



لَنَحْنُ مُوسِيقَى

بیان شکیب کعبور

تنقیح لغوي:

شهد الفیصل

تصمیم الغلاف:

أسعد العساف

إهداء

إلى أولئك الذين اكتشفوا أنني أحتاج حرفاً واحداً لأصبح آلة موسيقية فعزفوا على مفاتيح قلبي بشغف.

بيان 

لله اللحن الأول لله

تمرة بداخلها حبة لوزٍ حلوٍ وقلبٌ بداخله حُبٌّ مر

لطالما اعتقدتُ أن البرق صورٌ تلتقطها الملائكة تحتفظ لنا بها في السماء؟

ماذا عن الرعد؟

كان خدعة الملائكة الذكية كي تخيفني لأختبئ بين يديك لنحظى بصورة أجمل.

كانت ناي تستذكر هذا الحوار الذي قرأته في رواية يوماً ما، فهي من الأشخاص الذين يتذكرون كلماتٍ أحبوها في
المواقف الحرجة كي يشعروا بالأمان.

ما الذي قد ذكرها بهذا المقطع تحديداً؟

ربما الجو العاصف والبحر الهائج الذي يتهشم على صخور الشاطئ، والبرق الذي يكسر السماء فيحوّلها إلى
اللون البنفسجي المزرق.

لو كانت الآن في منزلها لأعدت مشروباً ساخناً، وجلست بقرب النافذة لتقرأ كتاباً ما.

سألت دمية من عينها عندما تذكرت النافذة.

هل من الممكن لإنسانٍ ما أن يبكي من أجل نافذة!

ماذا لو كانت النافذة الوحيدة التي تطلُّ على والدتها وهي تجمع محصول الزيتون والبرتقال.

النافذة الأخيرة التي تُلوح لها والدتها من خلالها وهي تمسح عن جبينها عرق الحقل، فتنقي برتقالة طازجة
تقشرها من أجلها ثم ترميها نحو الأعلى، هي التي تعلم أن ابنتها تحب البرتقال وتكره رائحة قشره.

(أنتِ بحاجة لفيتامين C لتنشيطي وتدرسي بشكل أفضل، أريدكِ أن تخرجي من كلية الحقوق لأرفع رأسي بك)

رنت تلك العبارة في أذن ناي عبر تلك التي كانت يومًا نافذة.

(أنا لست بحاجةٍ إلا لفيتامين الحب لأتنشط، الحب يُزودك بألف ملائكة للقيام بمهامك على أتم وجه، فقد يكون رفع الأحجار مع جرعة حب أسهل من تحريك قطعة سكر بلا حب.

لا الخبز ولا الزيت ولا البرتقال هو ما يجعلك قويًا بقدر ما يجعلك الحب كذلك).

هذا ما قالته ناي لنفسها عندما أغلقت عينيها من حموضة البرتقال اللذيذة في تلك اللحظة.

أما الآن، فهي تمسك بالكيس البلاستيكي الذي تحتفظ فيه بأشياءها التي جهزتها لتكون محمية من البلل. بدأت تتلمس محتوياته فتحسست رزمة النقود الورقية التي لا تتجاوز أربعة آلاف يورو ثم سوار والدتها الذهبي وأخيرًا وصلت يدها إلى تلك القارورة التي تحتوي مستخلص قشر البرتقال.

لم تعد تكره رائحة قشر البرتقال، فقد كانت تلك الرائحة الأخيرة التي تشقتها من يدي والدتها التي فارقت الحياة إثر رصاصة طائشة تم إطلاقها في تشييع أحد شهداء القرية.

دهنت القليل من العطر على يدها وأخذت نفسًا عميقًا فاختلطت خلاصة قشر البرتقال برائحة ملح البحر.

قاطع ذاكرة ناي العطرية صوت المهرّب وهو يقول أنه سيتم تأجيل الرحلة اليوم فمن الحال أن يصمد (البالم) المطاطي أمام هذه الأمواج.

سيقتضون هذه الليلة في العراء إذن، وعلى الرغم من برودة الطقس إلا أنهم لن يتمكنوا من إيقاد النار كي لا يثيروا انتباه السلطات.

حسنًا . . . مزيدٌ من الصبر، فكل ما يفصلهم عن اليونان احتمال القليل من البرد ومسافة زرقاء.

(علينا أن نثبت غطاءً بلاستيكيًا ليقينا من المطر إذن) قال بحر.

بحر خرج كلية فنون جميلة، وأول ما قد فكر به بعد نصب الغطاء البلاستيكي الأبيض بين شجرتين هو إمكانية تحويل الغطاء إلى لوحة.

كان بحر من ذلك النوع من الرسامين الذين يرسمون الأمور كما هي .

عندما يرسم فيلاً فهو يرسم فيلاً، لا مجموعة من اللطخات الملونة يتوسطها ضباب رمادي وهلال، وعليك أن تتكهن أنت أن هذا الهلال هو عاج الفيل الغائب تمامًا عن الصورة.

كان على بحر أن يغادر مناطق نفوذ الجماعات المتشددة، فقد كانت صحيفته سوداء لديهم أو إن صحَّ القول مليئة بالكثير من الألوان . . أكثر بكثير مما قد يحتملون.

وعندما اتخذ قراره بذلك، كان اللون الوحيد الذي اعترضه هو قلب والدته الأبيض التي كانت خائفة من أن يلتهم البحر ابنها أو أن تلتهم الجماعات المتشددة، وعندما أقنعها ابنها بأن البحر لا يغرق في البحر ودعته بدمعة وابتسامة.

الحياة بالنسبة لبحر ليست أكثر من علبة ألوان وریش بقياسات مختلفة، وقد كان يكرر عبارة سمعها في مكان ما: (الكون ليس أكثر من نقطة أفتها الآلهة على نفسها لتضحك، فلماذا نبكي نحن !)

كان يرى العالم بلا حدود أو تقسيمات، بل لوحة تندمج ألوانها بعضها البعض بحيث لا يدرك اللون متى يبدأ ومتى ينتهي ومتى تختلط حدوده بلون آخر، كم سيكون الأمر ممتعًا لو اقتدى البشر بالألوان .

هكذا كان يرى العالم بعينه الزرقاء الوحيدة . . .

الأمر الآخر الذي فكَّر به بحر هو ضرورة أن يتعرف على الأشخاص الذين يشاركونه هذه المساحة بين الشجرتين، والذين سيمتطون معه المركب المطاطي بعد قليل، والذين يقاسمونهم حلم الوصول إلى ألمانيا .

لا شيء كتقديم الطعام قد يكسر الحاجز بين البشر، فأخرج من حقيبة ظهره علبة بلاستيكية تحتوي تمرًا أفرغت أمه جوفه وملائته باللوز الحلو، قدّم لكل شخص من الموجودين ثمرة ووضع العلبة في الوسط .

ابتسم وسام في وجه بحر وكأنه أدرك رغبة الأخير في جعل الألفة تملأ الجو الماطر وعرف عن نفسه:

(اسمي وسام، سأبلغ ليلة الغد ثلاثين عامًا)

لم تُثر إجابة وسام بحر كثيرًا . . .

فقد كان بحر يميل إلى الأشخاص الذين يستطيعون التعريف عن أنفسهم بطريقة تختلف عن طريقة الهويات الشخصية والبطاقات المهنية .

لقد كان ناظمًا على كل خانة من خانات الهوية الشخصية التي تجعلنا نسخًا عن بعضنا البعض بتغيير بضعة حروف أو أرقام .

لقد كان يظن أن الإنسان ليس اسمه أو عمره أو دينه أو طائفته أو مهنته بل الإنسان هو شغفه، شغفه فحسب . ولو أخذنا بوجهة نظر بحر لألغينا الملايين من البشر الذين يقضون الخمسين سنة الأولى من أعمارهم وهم يذهبون إلى عمل لا يحبونه ويستمتعون في الدفاع عن بلد ولدوا فيه بالصدفة ويقتلون شخصًا آخر لا ينتمي لديانتهم أو يزدرونه أو يشعرون بالشفقة تجاهه على أقل تقدير، أما ما تبقى من عمرهم فيقضونه في محاولة نسيان ما قد مارسوه في سنواتهم الأولى ليغفروا الآلام التي ابتدعوها لهم ولغيرهم من البشر .

هم يعودون أطفالًا أو يستدعون الطفولة على شكل زهايمر ليحبوا ما يجب أن يحبوه أو على الأقل ليتحرروا من إدراك أنهم كانوا يكرهون شيئًا أو شخصًا أو انتماءً ما .

حسنًا . . . إنها لسخرية من القدر أن يجتمع وسام وناي في هذه الرحلة معًا كغريبين، وهما اللذين قد تشاركا علاقة حب عابرة .

قد يتم لومي على استخدامي كلمة عابرة لوصف علاقة دامت أكثر من سنة، لكنني أقصد بالعبور هنا أنهما مرًا عبر بعضهما دون أن يعلق شيء من أحدهما بالآخر، هذا إن استثنينا قليلًا من الألم وبعض النظريات التي كوّنها كل منهما عن الجنس الآخر، والعديد من العلاقات السريعة بالنسبة لوسام وسنوات من الوحدة بالنسبة لناي، فيكفي أن يمر في حياتنا شخص واحد غير مناسب ليزيد من استعصائنا على أي شخص بريء آخر قد يمر من بعده .

انتهى الأمر بوسام بأن ثبت نظريته الأزلية حول الحب بأنه مجرد تغيرات هرمونية تطرأ على أجسادنا في مرحلة

معينة عندما تقابل أشخاصًا محددين هم مجرد إسقاط لرسمٍ تقريبي صممناه لهم في عقولنا .

إذن الأمر برُمته بالنسبة له خليطٌ من الأكسيتوسين والأندروفين مع رشة من السيروتونين، وقد كان يرتشف هذا الكوكبيل حتى النشوة الأخيرة، يرتشفه حتى اللحظة التي يروي بها غروره لأنه نجح في لفت نظر امرأة ما .

وعلى الرغم من وسامته وذكائه إلا أن لفته لقلوب النساء لم يعتمد عليه فحسب، بل على رغبة النساء أيضًا في علاجه من داء (دونجوانيته) المزمن .

فالنساء قد يقضين وقتًا طويلًا في إصلاح ما لا يمكن إصلاحه بسهولة، ويمكنك القول أن هذا المرض هو مرض نسائي مزمن أيضًا .

بالطبع مرض، فليس من المعقول أن تراهني بوقتكِ وشبابكِ لإيجاد الطفل المختبئ داخل كل دونجوان، فكلما اقتربتِ من هذا الطفل ومسحتِ على شعره سيبتعد عنكِ أكثر .

ومهما بذلتِ من جهد سينتهي بك الأمر كسمكة، والحب سيكون هو الطعم .

المنفذ الوحيد لتكسبي هذه المعركة هي أن تتجاهلي الطعم، أن تتجاهلي الصنارة وكذلك الصياد .

حينها سيترجل الصياد من مركبه وسيسقط في بحرٍ ليكون هو السمكة وسيضع الطعم في فمه وسيتوسل إليك لتصطاده، وكل ما عليك فعله هو تجاهل توسلاته .

وأيّ علاقة تلك التي ستكون قائمة على التجاهل والتقليل من شأن الآخر !

لسببٍ غير مفهوم أصبح الاعتراف بالحب أمرًا مُخجلًا قد يتم تعييرك به في السنوات القادمة من عمرك على عكس التجاهل والكراهية التي ستجعلك محطًا للاحترام !

حتى مصطلح الاعتراف بالحب يشبه الاعتراف بذنب ما .

بجميع الأحوال إنه لمن الإنسانية ألا نحاول صيد من أراد اصطيدنا، فالأفضل أن نقولي وداعًا لحظة اللقاء .

وآلا تحاولي استهلاك نفسك في علاج أي دونجوان قد يصادفك، فما من علاجٍ مُجدٍ سوى أن يثق بذاته، فعلاجه

ليس بيدك بل بيده .

كل ما ينقصه هو أن يكون مؤمناً بقدرته على إيقاع امرأته بحبه آلاف المرات، فشعوره بأنه خاو وعاجز سيضطره إلى بتر كل علاقة قبل أن تبدأ، فلو كان يثق بذاته لن يبحث عن هذه الثقة في عيون الآخرين ولن يحتاج إلى كوكيل جديد كل فترة بل سيكون هو من يصنعه .

لم يكن صديقنا قد أدرك ذلك بعد، فها هو يبحث دوماً عن نساء يجددن له هذا الكوكيل مرة بعد مرة، نساء بشفاه ممثلة وخصوص نخيلة .

بالمناسبة لماذا يميل الرجال لهذه الصفات ؟

هي خارطة الإنسان البدائي لإيجاد شريك له، فالشفاه الممثلة تمنح سحنة طفولية تثير في الرجل الرغبة في حماية صاحبة هذه الشفاه .

إن الحب هو ممارسة للأبوة والأمومة بين الشريكين، كيف لا وأول العلاقات التي نشأ الطفل عليها هي علاقته بأبويه . أما الخنصر التحيل فدليل على أن هذه الأنثى خصبة وجاهزة للامتلاء بجنين .

في الوقت ذاته تميل الأنثى للذكر عريض المنكبين اللذان يدلان على بنية قوية تمكنه من رمي الرماح وحمل الفرائس، وإن زيادة حجم الأكتاف اليوم ليس سوى دليل على أننا بدائيون أكثر مما نعتقد، خاصة أننا لم نعد نحمل الثيران البرية على ظهورنا .

وعلى الرغم من أن حقبة فريد فليينستون انتهت إلا أن غريزة الصيد مازالت متأججة لدى الرجل . . . هذا ما قد اقتنع به وسام بعد دراسته للغة الجسد، وقد استطاع أن يعزف على هذا الوتر جيداً بكتفيه العريضين، لحيته الكثيفة، وحدقتيه الواسعتين اللتان تمنحانه مظهر الإنسان الشغوف بمن أمامه، ومن الصعب تمييز هذه العلامة عن توسع الحديقة الناتج عن الكذب . لقد كان وسام يعتمد على جهل نسائه بهذه العلامات أو ربما كان يظن أنه لا يكذب عليهن، ففي بعض الأحيان يكذب الإنسان بصدق لدرجة لا يدرك فيها أنه يكذب .

وما زال صديقنا يبحث عن نساء غير عاديات ليصبحن عاديات بعد فترة.

إن الأشياء العادية، الأماكن العادية، والأشخاص العاديين كانوا براقين ومدهشين يوماً ما، وربما استخدمنا لهذه الأشياء بشكل يومي وارتدادنا لهذه الأماكن بكثرة واحتكاكنا بأشخاص كنا نحلم بلقائهم، كل ذلك يجعل من هذه التفاصيل عادية. ولأصدقكم القول ليست العلة في الأماكن أو الأشياء أو الأشخاص بل العلة بأعيننا التي تطفئ البريق، وقلة أولئك الذين يملكون عيوناً قادرة على الاحتفاظ باللمعان الأول والدهشة الأولى.

لا يمكننا لومه فما يمارسه وسام قد يطلق عليه حب حتى لو كان لحظة حب عابرة مع كل امرأة إلا أن هذا الحب هو ما يمكن تسميته (بحب القهوة).

فأنت تشرب القهوة ليس حباً بذلك السائل المر الأسود بل حباً بالشعور الذي يمنحك إياه من نشاط وصحة واعتدال للمزاج.

فلتخيل للحظة أن القهوة تجعلك خمواً أو أنها لا تؤثر بك أبداً . . .

ستوقف عن حبها حتماً !

أي أنك لا تحب القهوة بل تحب الشعور الذي تقدمه لك .

هذا الحب أكثر أنانية مما يبدو . . . أليس كذلك !

لكم لن تتوقف عن القول أنك تحب القهوة، وسام أيضاً لن يتوقف عن البحث عن الحب لكن على طريقته.

أما ناي فلم تكن تحب القهوة، ولم تكن مصابة (بحب القهوة) أيضاً، بل كانت مغرمة بالغيوم وأشجار البرتقال والفناجين والقسط والعصافير والموسيقى والكب والشعر.

كانت تقف محارة بين عبارتي درويش:

(على هذه الأرض ما يستحق الحياة* وكل الذين ماتوا نجوا من الحياة بأعجوبة).

توقفت حيرتها عندما اقتنعت أن الإنسان متناقض شاء أم أبى وبالطبع هي تترأس هذه القائمة البشرية.

فهي تشعر بالحزن لأن والدتها لم تشاركها ما يستحق الحياة والذي لا تعلم ماهيته تحديداً، وربما تشعر بالسعادة لأنها في عالم أفضل الآن وليست متسمة على شاطئ ما لتخوض عرض البحر في مركب مطاطي لتصل إلى مكان تكون فيه مواطنة من الدرجة الثانية، فهذا ما قد لمح إليه المهرب الذي عاملهم على أنهم مجرد كائنات بلا هوية بإمكانه أن يقتلهم برصاصة واحدة إن لم يسددوا له كامل المبلغ قبل الانطلاق.

هي تشعر بالخوف من حب من جديد، وتتوق إليه بذات الوقت، فليس من السهل العثور على شخص قادر على الحب في هذه الأيام.

الجميع ينتظرون أحداً كي يحبهم، كي يقوم بشحنهم بالعاطفة، وقلة أولئك الذين يستطيعون أخذ دور التيار العاطفي، ليملأوا الآخر بالحب قبل أن يطالبوه بملئهم.

هي تتجاهل رغبات جسدها ومع ذلك ترى أن هذه الرغبات طبيعية، مجرد غرائز كما الجوع والعطش.

كانت تظن أن الشرقي لا يحترم الفتاة التي يشاركها سريره خارج إطار الزواج، وربما كانت محقة، فقلة من هم كذلك ولا بد أن السبب الرئيسي خلف الأمر أن الذكر لا يحترم ذاته لقيامه بما تم تخزينه في عقله على أنه خطيئة فكيف له أن يحترم شريكته في هذا الفعل المشين!

أسهل ما قد يقوم به هو أن يُفرغ عبرها شهواته ثم يندم فينبذها رغبةً منه في نسيان خطيئته.

وبذلك لا تكون حواء دفعت ثمن تفاحة السقوط من الجنة فحسب، بل دفعت ثمن كل تفاح الجنة.

حسناً... أليس هذا تناقض!

وعلى الرغم من كل هذه التناقضات إلا أن ناي تمكنت من أن تقع في غرام نفسها مرة بعد مرة لأنها تقبلت تناقضاتها.

وقد كانت متأكدة أن الحب سينقذ العالم وليس بالضرورة الحب بين الجنسين.

بل حب قصيدة قد تغفو في حضن أبياتها حتى الصباح، أو حب رائحة (الجونسون) التي تفوح من خدي طفل

صغير، أو حب لشلة من النجمات التي كانت تسميها مجموعة (الحب الأصغر) لاعتقادها أن (الحب الأكبر) يجب أن يكون موجوداً في مكان ما بالقرب منها .

كانت متأكدة أن بإمكانها تضميد جراح حب قديم بالمزيد من الحب، وعلى أنقاض علاقتها بوسام وضعت نظرية مضحكة بعض الشيء:

(كيف تتخلصين من بقايا حبك القديم بتربية حيوان أليف) .

كانت مؤمنة أن للقوائم الصغيرة قدرة كبيرة في التربيت على جروح القلب، لذلك اتخذت العديد من الحيوانات كأصدقاء ما عدا العصافير والأسماك لأنها كانت تكره حبس الحيوانات في أقفاص تحول بينها وبين عناقتها، وقد كانت معجبة أشد الإعجاب بليوناردو دافنشي الذي كان يزرع طرقات فلورنسا ليشتري أقفاص العصافير ثم يمنحها حريتها .

وعندما كانت والدتها تتأفف من تحويل ناي غرفتها لحديقة حيوانات كانت ناي تقول:

ـ أحب الحيوانات لأنها الصورة الأتقى والأكثر اختزالاً للألم مقارنة بنا، فهل سمعت يوماً بقط محتار إن كان يريد الاستقرار أم لا، قط ملّ من غرامياته ودونجوانياته فظن أن الزواج هو سبيله الوحيد كي يهدئ العاصفة الأنثوية التي تجتاح عقله؟

هل سمعت يوماً ببطة تضع جناحيها على خصرها وتحاول التفكير بطرق تعجيزية لإجبار (بطوطها) على تملكها بحيرة كاملة باسمها لتضمن بقاءه في بحيرتها إلى الأبد !

هل سمعت بثعلب يكذب على ثعلبة ويخبرها أن الطريقة التي تناول بها الأرانب هي الأكثر لباقة على الإطلاق وأنه يود لو تشاركه جحره بعد انقضاء العواصف الثلجية في سيبيريا !

هم متصالحون مع ذواتهم، يدركون احتياجاتهم، لا يكذبون ولا يتملقون ولا يدعون أن حسّهم الحيواني مرتفع .

على عكسنا تماماً !

الحيوانات لن تجادل بأفكارك ولن تكرهك لتبنيك قناعات مختلفة عن قناعاتها، وحتماً لن تقيم مناظرة ضدك لتقنعك بمواقفها تجاه قضية ما .

هي تقتل لتتغذى وتبقى على قيد الحياة ولا تقتل أبداً باسم فداء الغابة أو لتطبيق شريعة ما على مزاجها الخاص .
كانت والدتها ترد عليها: وما أدراك ألا تكون كذلك . . . لكنك لا تفهمين لغتها فحسب .

وكان الأمر ينتهي بنظرة من عيني شمس البريئين الذي يهز ذيله ثم يلحق يدي ناي ربما ليقنعه بأنه من الحال أن يكون كذلك .

لكن نظرة واحدة الآن إلى البحر الهائج أثارت الخوف في قلبها، كيف لا وهو مسكن لأسماك القرش والحيتان التي قد لا يعجبها تطفلهم السريع على منزلها، أو ربما قد يعجبها ذلك جداً .

ثنت ناي ركبتها على الرمل الندي وقربتها من صدرها فوقعت حمالة مفاتيح من جيبيها .

نظر بحر إلى الحمالة التي يعرفها جيداً، فهي من المنحوتات الخشبية البسيطة التي كان يصنعها وبيعها لصالح جمعية لدعم تعليم الأطفال المتضررين من الحرب .

لقد كانت الحمالة عبارة عن بومة خشبية صغيرة ملونة بدرجات متفاوتة من الأزرق والبنفسجي، وقد كُتب على وجهها الخلفي عبارة بخط أسود دقيق:

(أحبُّ البومة لأنه لا يحبها أحد . . . أحبها كتعويضٍ مني عن الكره الذي تلقتُه من الجميع بلا سببٍ سوى أنها كانت ذاتها) .

لم تكن هذه العبارة مكتوبة من قِبَل بحر وقد لفتت نظره فقرأها قبل أن يعطي الحمالة لصاحبتها .

—أنستي، لم البومة تحديداً؟

نظرت ناي إلى الشاب ذي العين الوحيدة وقالت:

—بإمكانك استبدال البومة بأي كائن آخر، أي كائن قد ننبذه لأنه يمارس نفسه بكل طبيعية .

ـبرأيك هل قد ينبذ الإنسان غيره لأنه يكون على سجيته فحسب؟

ـالجميع يحبون الموسيقى ذاتها، الكتب ذاتها، يدعمون القضايا ذاتها، يصفقون عبر التاريخ للشخصيات ذاتها تجنباً لآلم بذهم، أي أن كل شخص يحاول أن يكون الآخر ليتجنب كره الآخر له، وليس أي آخر بل الآخر الأقرب إليه.

ـلكن لو كان كلامك صحيحاً لما كنا بهذا التنوع.

ـإن هذا التنوع مرهونٌ بعدم التفكير خارج الصندوق، أي أنك مُخَيَّر في حب أشياء ليست مختلفة بالجوهر عن بعضها البعض، الأمر مشابه لأن تكون مخيراً بين حب اللون الأسود أو الأبيض مما لا يتيح لك فرصة التفكير بأي لون آخر.

وعلى الرغم من أن استشهدا ناي بالألوان قد أعجب بحرّ تماماً كإجابتها إلا أنه اعترض:

ـألا تظنين أن التفرد كذبة كبيرة، أي أننا بطريقتك هذه سنخلق ثلاث طوائف، طائفة الأشخاص المحبين للون الأبيض، وطائفة الأشخاص المحبين للون الأسود وطائفة المحبين لباقي ألوان الطيف؟

ـلكنني لم أقصد بمثالي التفرد، هنالك ملايين النسخ على الأقل من أي شخص يظن نفسه متفرداً، فكرتي قائمة على عدم كرهني الشخص الآخر بسبب ميوله أيّا كانت.

فجميعنا تماماً كهذه القلادة التي تعلقها أنت بعنقك.

هذا النصف الأسود الذي تشغله نقطة بيضاء، وذلك النصف الأبيض الذي تشغله نقطة سوداء... كلاهما يمتزجان معاً ليشكلا دائرة واحدة.

كانت قلادة بحر من متوجاته الخشبية أيضاً وكان يزين بها عنقه ليتذكر أن كل شيء من الممكن أن يتحول إلى نقيضه لأن فيه بذرة هذا النقيض.

أضافت ناي: أنت لا تضعها لأنك تدين بالتاوية أليس كذلك!

ابتسم بحر لأن ناي أتت على ذكر التاو، لكنه حاصرهما بإجابته:

ـأسيزعجك لو كنت كذلك؟

ـلن يزعجني ولن يفرحني، لك كامل الحرية باعتقاد ما شئت.

ـكل ما في الأمر أنني أحب التمازج بين اللونين واندماج حدودهما فحسب.

ـأشعر أن لحالة مفاتيحي ولقلادتك ذات الروح.

ـربما ذات الشخص قد منحهما جزءاً من روحه.

بالمناسبة . . . لماذا حمالة مفاتيحك لا تحمل أي مفتاح، أفي هذا نية مُبَيَّنة أنك لا تنوين العودة إلى بيتك في يوم ما؟!

ـأوقد يكون ذلك لأنه لم يعد لدي منزل كي أعود إليه.

اعتذر بحر لناي ظناً منه أن منزلها قد تحول إلى ركام بقذيفة ما، وتقبلت ناي اعتذاره وأخبرته باختصار أن منزلها ما زال قائماً، لكن أحوالها وأعمامها قد سلبوه منها بعد وفاة والدتها، كيف لا والقانون يمنحهم الحق بذلك، فقد كانت الابنة الوحيدة لوالدتها ولم يكن هنالك أخ ذكر يحرمهم الميراث.

ضحكت بينها وبين نفسها لأنها محامية ولم تتمكن من الدفاع عن حقها، وأن أقاربها الذين لم يتكلفوا عناء إلقاء تحية الصباح على والديها قاسموها بعد موتها الأرض والمنزل.

وكل ما قد حصلت عليه هو مبلغ من المال آثرت أن تسافر به وسوار والدتها الذهبي.

هي ليست حزينة لفقدان المنزل، فلا قيمة لمنزل ليس فيه نافذة تطل على والدتها في حقل البرتقال.

منزلها الحقيقي الوحيد هو تجاعيد وجه أمها والأغنية التي كانت تدندنها لها قبل النوم.

منزلها الحقيقي هو الدعاء الذي كانت تحصنها به قبل خروجها من البيت ورائحة ماء الزهر الذي تسكب بضع

قطرات منه في إبريق الماء، وقطعة الجبن الذائبة التي تضعها في فمها بعد أن تغليها جيداً والمغموسة بمربي الورد.

أما الآن فلم يعد لديها منزل، فلم البقاء ولم العودة!

قاطع بحر أفكارها عندما رأى إيماءة حزن سحبت فمها قليلاً نحو الأسفل:

يما أنه لديك اهتمام بالثقافة الآسيوية، لا بد أنك تعرفين قصة المعلم الياباني ريوكان الذي قد دخل عليه لص فوجد المكان فارغاً وبينما هو خارج من الباب قال له ريوكان لقد أتعبت نفسك بالوصول إلى هذا المكان لتجده فارغاً وإنه ليعز عليّ أن أتركك تذهب خالي الوفاض، إليك ثوبي هدية، فخلع ثوبه وأخذه اللص المذهول، أما ريوكان فقد جلس عارياً قبالة النافذة يراقب القمر ثم قال (كم وددتُ لو أعطيتُه هذا المشهد الجميل).

شبك بحر ذراعيه حول ركبتيه ونظر إلى الأفق:

انظري إلى هذا المنظر الرائع أمامك، ليس بإمكان أي لص أن يسرقه منك أو أن يسرق جماله من عينيك.

وجّهت ناي نظرها إلى ذلك الامتداد الواسع دون أن تنبس بكلمة.

كان البحر بلون رمادي مزرق وبقايا الشمس تندمج به لتمنحه قبلة برتقالية ربما لذلك هدأ البحر قليلاً، فالتقبل لها مفعول مهدي على الجميع.

ومع ذلك من المحال أن تبدأ الرحلة ليلاً حتى بعد توقف المطر، فمن الصعب توجيه المركب نهائياً وصولاً لليونان فكيف لو حل الليل.

شعرت ناي أن الصمت استمر لفترة طويلة ورغبت بقطعه، فحدقت في عينه الوحيدة وقالت له:

أنا ناي وأنت؟

بحر.

اسمك كبير جداً.

اسمك أكبر، فلا شيء في هذا العالم أكثر امتدادًا من الموسيقى .

وربما لم يقصد اسمها بل نفوذها . . .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ناي وبحر تابعت عينا نورسين السوداوين الجميلتين الشمس وهي تغيب .

كم تشبه الشمس التي غابت ذلك النهار !

كان العيد السعيد الأخير الذي قد مرّ عليها مع مريم .

أم نورسين تصلي صلاة العشاء تحت شجرة الكباد وخالاتها وجدتها يشربن القهوة حول نافورة الماء ويستعددنّ

لتجهيز حلوى العيد .

جوز، وفستق حلي، وماء زهر، وسكر ناعم . . . ومريم .

أصابع مريم الصغيرة تعبث بالطحين والسكر، كيف لمخلوق من سكر أن يعبث بالسكر !

رغم كل شقاوة ابنتها مريم إلا أن لا شيء يمنح اللذة لقلبها سوى هذا المخلوق السكري .

ما زالت نورسين تذكر كيف أن ابنتها لم تتذوق حلوى العيد التي قد شاركت للمرة الأولى في صنعها .

وأن والد مريم أصرّ على أن تكون مريم جزءًا من عيدهِ هو لا من عيدها، فعند الانفصال حتى أعياد الأطفال

تُقسّم وعندما تقسّم الأعياد لا تعود أعيادًا .

ليست المشكلة في الانفصال نفسه فقد يكون الحل الوحيد في بعض الحالات، فليس من المعقول أن يستمر شخصان

بالعيش معًا تحت سقف واحد عندما ينتهي رصيدهما من الحب والاحترام، لكن المشكلة في استنزاف قلوب

أولادهم عندما ينتهي هذا الرصيد ! والمشكلة الأكبر هي اعتبار (كلام الناس) أهم من مشاعر أطفالهم .

كم بإمكان الإنسان أن يبيع سعادته وسعادة من يحب فقط ليوهم من حوله أنه سعيد !

كم من الصعب على الطفل أن يعيش بين أب وأم يغضبان بعضهما بعضًا، والأصعب أن يخبرانه بأنهما سيبقيان

معاً من أجله . . . لأنهما يحبانه !

نورسين كانت فتاة رقيقة قرأت الكثير عن الحب في الروايات والقصص وشاهدت عنه الأفلام لكن لم يحدث أن وقعت به، وعلى الرغم من أنها كانت تسمع صوت أخيها ليلاً يغازل الفتيات على الهاتف إلا أنها لم تتجرأ على التلفظ بكلمة حب حتى .

كان أخوها يفتش أوراقها وخزانة ثيابها وتحت سريرها ولو كان هناك طريقة يستطيع من خلالها تفتيش رأسها لما توانى عن ذلك، ففي عُرف عائلتها الإنسان هو شرفه .

وهذه الكلمة مقتصرة على نساء العائلة فقط دون رجالها !

في عائلة كهذه . . . أن تكون المرأة شريفة يعني ألا يكون لها تواصل من أي نوع مع الجنس الآخر، وأن يكون الرجل شريفاً يعني أن تلتزم نساء عائلته بهذا القانون فحسب .

لم تكن نورسين تكثر لذلك كله، فقد كان الحب بنظرها منزل صغير تزرع فيه تفاصيلها الدافئة .

أطباق ملونة وشموع ووسائد ناعمة وستائر رقيقة، وطفلة بصفيرتين شقراوين تشتري لها يوماً سجادة صلاة وردية صغيرة، ورجل يقبل جبهتها عندما تطهوله وجبته المفضلة .

وكل ما كانت تتخيله هو هذا الرجل _رجل بلا ملامح_ يهديها فستاناً أبيضاً لتمارس حبها معه بشرعية .

فكانت كل محاولات أخيها للإيقاع بها متلبسة بالحب تبوء بالفشل !

وفي يوم ما أصبح لهذا الرجل ملامح وأهداها الكثير من الذهب والفساتين والشوكولا والورود .

أهداها مريم . . . وأحلاماً مغلقة بالحب والتي أصبحت فيما بعد كوابيس مغلقة بضجره منها، لتصبح تلك الأحلام من نصيب امرأة أخرى .

ما زالت تذكر حوارها مع زوجها في اليوم الذي أخبرها عن رغبته بالزواج بأخرى .

كل الحوار توقف في عقلها عند عبارة (أنت لم تعودي أنثى) .

كم يمكن للعقل أن يعثب بنا فيعيد عبارة لم يتجاوز لفظها ثانيّتين . . . مكرراً إياها للأبد .

ما الذي قد يعنيه أن المرأة لم تعد أنثى ؟

أي جزء قد فقدته من نفسها كي لا تكون كذلك ؟

تحسست شفيتها عندما سمعت كلماته وقامت بمسح اللون الذي يغمرها . . .

أبذلك لم تعد أنثى !

مسحت كحل عينيها الغارقتين بالدموع . . .

أبذلك لم تعد أنثى !

غرست أطافرها في تلك التشققات التي غطت بطنها بعد حملها بمريم حتى خرج الدم من جلدها .

قامت بحرق ثيابها الداخلية في تلك الليلة فهي لن ترتديها لرجل لا يراها أنثى ولن تعطيها حتماً لأي امرأة أخرى
قد تحل عليها لعنة ألا تكون أنثى كما حلت عليها .

ليس هنالك ما هو أكثر إيلاماً للمرأة من أن تكون لها فترة صلاحية، تُستهلك بها ثم ترمى لأنها لم تعد أنثى، وأن
تشعر أنها لم تعد كافية وأن ما تقدمه لم يعد مرغوباً .

كانت نورسين تحبس أنفاسها وهي ترى زوجها يتقرّس في نساء المحطات التلفزيونية، تصطنع الهدوء وتكبح نفسها
كي لا تقوم بتعطيم التلفاز .

كانت تريد أن تخبره أن ما يضعنه على رؤوسهن هو مجرد وصلات شعر صناعية وأنه ما زال لديها شعراً كثيفاً
طبيعياً تلونه من أجله كل فترة دون أن يكثر !

تريد أن تخبره أن أطافرها كانت كأطافرهن المصقولة إلا أن الماء وسوائل التنظيف التي تسكبها تجعل منزله نظيفاً
حولتها إلى أطافر متقصفة وسحبت منها الألوان .

كانت تراقبه وهو يأخذ شهيقاً كأنه يريد أن يستنشق العطر الذي يعطرن به، وهي التي تفرغ علب العطر على جسدها، كيف بإمكانه أن يستشعر عطرهن الذي لا يمكن شمّه ولم ينتبه مرة إلى عطرها !

هكذا هو الحال مع الكثير من البشر، يرغبون بما ليس لديهم ليس لأنه أفضل مما لديهم بل فقط لأنهم لا يملكونه .

أهنالك أسوأ من أن يظن الإنسان أنه يملك إنساناً آخر فيزهد به من أجل ذلك !

تساءلت نورسين كيف لها أن تتقبل امرأة أخرى في حياة زوجها، كان عليها أن تنسحب عندما شعرت أن هنالك من يشاركها إياه من خلف شاشات التلفاز والهااتف، لم يكن عليها أن تنتظره ليخبرها أنها لم تعد أنثى .

إن كان من الصعب على الإنسان أن يشارك غرفته وهاتفه وفرشاة أسنانه كيف بإمكانه أن يشارك قلبه وجسده وحبّه واهتمامه مع أكثر من إنسان واحد !

جال ببالها في تلك الليلة خاطر، ماذا لو أن هنالك قانوناً يُبيح للنساء الزواج على رجالهن .

بإمكان أي امرأة أن تتزوج على زوجها مجرد أنه قد نبت له كرش كبير بعد سنوات من تناول الدهون، أو لأنه فقد شعره، أو لأنه لا يتمتع بمنكبين عريضين وساقين طويلتين تمكثانه من التقاط الأواني العالية دون الاستعانة بسلم أو لأنه لا يتجب إلا الصبيان أو بسبب صوت شخيرته العالي أو لأنه لم يعد رومانسياً بالقدر الكافي .

ومن حق المرأة في هذه الحالة الزواج على هذا الإنسان لأنه ببساطة لم يعد رجلاً !

نعم، إن الموضوع بهذا السخف، لكن ولأنه زرع في عقولنا منذ الصغر فنحن نسلم به وكأنه أمر طبيعي ومن العادي جداً أن يحصل ويتكرر .

أليس من الطبيعي جداً حينها أن تقوم المرأة إما بابتزاز الرجل بأطفاله كي يبقى مجرد وعاء احتياطي لتفريغ الرغبات الجنسية أو للقيام بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال لا أكثر، أو فليكن هذا الرجل شجاعاً وليطلب الطلاق وليتل لقب مطلق الذي سيرافقه طيلة حياته .

فعليه أن يُحبس في المنزل أو أن يكفر عن هذا القلب بزواجه بعجوز تكبره بعشرين سنة على الأقل لأنه لم يعد

مرغوبًا .

كيف لا فهو لم يعد رجلًا ! لقد تم استهلاكه ببساطة .

ضحكت نورسين من خيالاتها، وبعض الضحكات تكون أكثر ألمًا من الدموع وقررت حينها أن تدعن للانفصال الحتمي وتعود لمنزل عائلتها كي تخدم الجميع فقط لأن مكاتها الاجتماعية قد انخفضت من امرأة متزوجة إلى امرأة مطلقة شبه هرمة .

على الرغم من أنها كانت على يقين أن نساء اليوم لا يهرمن مبكرًا، فمعظم النساء اللاتي يسيل لعاب الرجال من أجلهن على الفضائيات قد تجاوزن الأربعين بكثير . . . ولكن ما زلن يبدون في العشرين .

الحب والاهتمام هو مضاد الأكسدة الأول للشيخوخة، وكل ما يتم معاملته بلا مبالاة سيشيخ .

إضافة إلى عمليات التجميل بالطبع .

بكت نورسين كثيرًا ذلك العيد الذي بات حزينًا كي يعيد الله مريم من أجلها وتنشقت مكان سجود ابنتها الصغيرة التي كانت تصلي صلاة طاهرة بعد وضوئها بدموع والدتها فقط كي تبقى سعيدة وكي تتمكن من العيش معها .

أدخلت يدها في حقيبتها وتلمست سجادة الصلاة الوردية ونظرت إلى البحر .

البحر ذاته الذي عبرته ابنتها مع والدها عندما هاجر بها إلى ألمانيا وها هي الآن تهاجر أيضًا لتلقي بها، متأملة أن تستطيع مراقبتها وهي تنمو، وأن تتمكن ولو لمرة واحدة أن تضفر شعرها الأشقر من جديد .

وزعت نورسين نظرها على أصدقاء رحلتها السبعة وهم يجلسون على الرمل الندي متدثرين بذكرياتهم، وهم يتناولون تمرًا بداخله لوز حلو وبداخل قلب كل منهم حب مر .

الحروب الخارجية قد تكون غطاءً يبرر هروبنا من بلداننا لكن الحقيقة أن الحروب الداخلية هي التي لها الحصة الرئيسية في ذلك .

(كيف فقد عينه؟) فكّر حليم بتوجيه سؤاله لبحر.

قد تظن أنه من عدم اللباقة أن تسأل شخصاً قَدّم لك للتو طعاماً عن فقدان أحد أجزاء جسده، لكن ماذا إن كان السائل شخصاً بلا ذراع!

لم تكن ذراع حليم أولى الأجزاء التي فقدتها من نفسه بل آخرها فحسب.

حليم الذي فقد طفولته، وإيمانه، ومعمل العطور الصغير الذي أنشأه، وخطيبته، وأخيراً ذراعه.

وعندما ستسأل حليم عن وجهة نظره بالإنسان، سيخبرك أن الإنسان هو رائحته.

كيف لا وهو يذكر ملامح الأساتذة الذين كانوا يتطوعون ليدرسوا في المنزل الذي ينتمي إليه هو وإخوته الستون.

إن وجوههم توحى بأن هنالك رائحة سيئة في الجو لكنه لم يستطع يوماً أن يميزها، على الرغم من أنه كان يتنشق بعمق فيشم نفسه مرات كثيرة في اليوم ويشم إخوته أيضاً.

لكنه في عمر السادسة فهم سبب هذه الرائحة عندما أتت سيدة وزوجها وطفلتها لزيارة منزله لتقدم الألعاب له ولأخوته.

كانت الطفلة تقاربه بالعمر وتمسك دمية تدعوها (باربي) وعندما كانت الطفلة تشعر لتسقط دميته أرضاً كانت السيدة تقوم بحملها هي ودميتها وتدفن وجهها في خديها وتنشقها دون أن تتغير معالم وجهها.

على ما يبدو ليس لهذه الفتاة ذات الرائحة التي تورقه ولا يستطيع شمها، أراد الاقتراب من الفتاة علّه يستطيع أن يحدد ماهية رائحته من خلال تنشق رائحة معاكسة لها.

اقترب كثيراً منها حتى استطاع أن يلمس دميته وشمّ رأسها فداعبت أنفه رائحة شهية تشبه رائحة بوظة الفانيليا التي قدموها مرة لهم في الصيف الماضي.

أراد أن يعرف المزيد من هذه الرائحة وأن يمتلئ بها لكن الأساتذة أبعدته عن حلمه الشهوي.

ودعتهم العائلة السعيدة بعد أن قدمت له ولأخوته ألعاباً، وكان الدب البني من نصيبه فأطلق عليه اسم (باربي)

فقد كان له ذات رائحة الفتاة ودميتها، وكم كان سعيداً بانتصاره العطري هذا .

مرغ وجهه تلك الليلة في دبه (باربي)، عانقه بشدة ووضع رأسه بهدوء على وسادته وقام بتغطيته برقة، ومع كل نفس كان يخشى أن تتلاشى رائحته ومع ذلك كان يقاوم خوفه ويخبيئ جسده الصغير المجاور لدُبه الصغير تحت الأغطية السميقة التي أزالها عنه أحد أخوته الكبار مخبراً إياه أن الجو حار وما من داعٍ ليغطي نفسه بكل هذه الأغطية، فأجابه حليم أنه يريد أن تنتقل رائحة (باربي) إليه كي يكون لديه هو أيضاً سيدة تتشق رائحته كلما تعثر فتشعر بالسعادة لأن رائحته جيدة أيضاً .

أخبره أخاه حينها أن (اللقطاء) لا عوائل لديهم، فقط (غير اللقطاء) هم من لديهم عوائل .

فهم حليم تلك الليلة أن هنالك نوعان من الأطفال في هذا العالم (لقطاء وغير لقطاء) بحسب تعبير أخيه .

اللقطاء لديهم منزل يعيشون فيه مع عدد كبير من الأخوة اللقطاء مثلهم أما غير اللقطاء فليدعم منزل يعيشون فيه مع والديهم وأخوتهم الذين يقاسمونهم الدم .

اللقطاء يتناولون البوظة مرة كل صيف أما غير اللقطاء فيتناولونها متى أرادوا .

اللقطاء قد يكون لديهم دب (باربي) واحد طيلة حياتهم وقد لا يكون، أما غير اللقطاء فليدعم العديد من الدبة والأرانب والقطط وغيرها من التسميات التي لم يفهمها حليم ذلك الحين، لكنه فهم أن عالم غير اللقطاء أفضل من عالم اللقطاء . إنه عالم جميل، شهبي ومُعطر .

وعندما سأل حليم أخيه عن السبب في هذا التقسيم العالمي أجابه أن الله أراد ذلك وصبَّ اللعنات على والديه اللذان قد تركاه .

حليم لا يعلم من هم والديه، ولا يعلم أيضاً أي شيء عن الله . هو يرى أن الله ووالديه جميعهم قد تخلوا عنه فلم يعد يكثرث لوجودهم، بل أصبح على يقين بعدم وجودهم وإن كانوا موجودين فهو لا يريد هم .

كبر حليم وكبر معه حلمه العطري، فكان تارةً يبيع الورود على الطرقات ويبيع تارةً أخرى العطور، ومع الوقت

أصبح لحليم رائحة مختلفة هي الرائحة الوحيدة التي قد تُكفّر عن ذنبه بأنه لقيط، هذه الرائحة هي رائحة المال .
كل ما كان يفكر به حليم هو العائلة وقد بذل قصارى جهده لتأسيسها، فاختار فتاة جميلة كان يتمنى أن يكون
طفلها قبل أن يكون زوجها .

أغدق عليها اهتمامه وماله وذهبه وكل ما يمكن أن يقدمه ليكفّر عن الذنب الذي لم يقترفه .

لكن ما يُشترى بالمال يُفقد بفقدانه، لا سيما الأشخاص .

بعض الفتيات ما زالت دماء النخاسة تجري في عروقهن، يعن أنفسهن لمن يدفع أكثر، ومهما قدمت لهن من حب
أو اهتمام لن تستطيع الفوز بهن إن لم تكن جيوبك ممتلئة وللأسف خطيبة حليم كانت كذلك .

وكيف بإمكاننا أن نلومها ونحن نصفق لحفل الزفاف الأفخم، وتلمع أعيننا لحجر الألماس الأكبر، كيف بإمكاننا أن
نلومها ونحن نربي الفتاة على أنها يجب أن تستلم مبلغاً من المال يزيد أو ينقص بحسب جمالها وشهادتها الدراسية
أو حتى مستوى عائلتها الاجتماعي ليتم الاستفادة من خدماتها والاستمتاع بجمالها وفقاً لهذه الصفقة .

نحن من جعلنا أسواق النخاسة تمتد حتى اليوم لكن بصورة حضارية أكثر !

لذلك كان من الطبيعي أن تخلع خاتم الخطوبة دون أن تكلف نفسها عناء زيارة حليم المصاب في المشفى عندما
سمعت أن معمل خطيبها التهمته النيران بعد أن تم إبطاره بالقذائف .

قُطعت ذراع حليم التي من المفترض أن ينتقل الخاتم إليها، وكأنها إشارة مبكرة بأن ذلك الزواج لن يتم .

بعد خروجه من المشفى وقف الشاب أمام بقايا معمله، وقد كُتبَ على بقايا جداره: حليم اللقيط .

أمسك دبه (باربي) بأسنانه وحاول بأظافر يده السليمة أن يمسح العبارة التي كُتبت على الجدار .

ثم صرخ بصوت عالٍ:

نعم أنا لقيط . . .

أنا الابن غير الشرعي لرجال الدين الذين يغتصبون عقول من يتبعونهم ليقنعوهم أنني مذنب بذنب لم أقترفه .

واليوم أنا الابن غير الشرعي لهذه الحرب اللعينة التي تغتصب الوطن .

توقف عن مسح تلك العبارة بأظافره الدامية فقد عادت تلك الرائحة لجسده من جديد ولملم ما تبقى منه وها هو الآن على هذا الشاطئ برفقة دبه (باربي) الذي يرقد في حقيقته بسلام، يبحث عن مكان لا يستطيع أحد فيه أن يشم رائحته، ليصبح هو أيضاً غير قادر على ذلك .

أما على بعد أمتار قليلة كانت زين قد ابتعدت عن مجموعتها ولولا ذلك لكنت شُدّت للحديث الذي دار بين بحر وناي .

اقتربت من البحر بقدر ما تستطيع لتأمله وهو غارق في السواد الدامس مُقلبة صدفةً صغيرة بين يديها ومقربة إياها من أذنها فخيّل لها أنها تسمع كلمات المتصوف الهندي (كبير):

اسمع صوت أصداغ البحر العظيمة . . . صوت الأجراس

اسمع يا صديقي

الضيف الذي أحبه موجود داخلي

إن سألتَ زين عن الإنسان ستخبرك أن الإنسان هو دينه، ودينه هو الحب، والحب هو الله . . .

كلام جميل ومستحسن، لكن ماذا إن قفزت من أول المعادلة إلى آخرها دفعةً واحدة؟

هل ستبدو لك زين غريبة الأطوار حينها ؟ زندية ؟ ضالة عن طريق الحق ؟

هذا ما ظنه أيضاً أبناء قريتها، واعتقدوا أنه لا بدّ أن يتم إنزال عقاب إلهي يليق بضالها .

يليق بتلك الأفكار الهجينة التي تحملها في رأسها، بملابسها الغريبة، بسفورها، وبشرودها في البراري .

ما الذي قد تفعله فتاة داخل حقل قمح طيلة الليل ؟ . . . الجميع يتساءلون، وكثُر هم الفضوليون الذين أخذوا

بمراقبتها، وكانوا لا يرون إلا خيالاً مترج الساقين هادئ ومستكين.

لا بد أن الله قد ابتلاها بالجنون! هذه النتيجة التي قد خرجوا بها.

أما زين فكانت تجلس في قصرها الذهبي محاطة بالسنابل من كل ميل ملتحمة بالطين، وكلما زاد التحامها كانت تشعر بروحها تزهّر، تزهّر كغصن نارنج يفوح عقبه ليندمج بروح هذا الكون... وب عقله، ليندمج بالله.

تفتح عينيهما المغلقتين بهدوء لساعات فترى ما حوّلها بوضوح فهي لم تنتقل من الظلام إلى النور، بل من النور إلى النور، ثم تبدأ بالدوران حول نفسها وكأن غصن النارنج داخلها استحال معزوفة إلهية، فتدور وتدور وتدور منصّة لنفحة السلام التي يلقيها الله في قلبها لتتوقف بعد حين عن الدوران وتبدأ بتأمل القمر.

قد تساءل عن الفراغ الذي تعيشه هذه الفتاة، تأمل ودوران!

لكنها كانت ممتلئة، ممتلئة بسعادة لحظتها الراهنة.

فعندما كانت تنظر إلى القمر كانت تستمتع بجماله فحسب متلذذة بنكهة الحاضر دون أن تتعكر بحزن الماضي أو بقلق المجهول.

وهذا ما كان يميزها عن الآخرين المشغولين تارةً بآلام ماضيهم، بالتراث والأساطير والقصص البائدة، والمتعكرين تارةً أخرى بمصائبهم بعد دقائق... وبعد سنوات... وبعد الموت.

هي كانت تؤمن أنه من الغباء أن تربط سعادتك بماضٍ لم تعد أنت موجود فيه وبمستقبل لم تصل إليه بعد.

أبناء قريتها ليسوا قلقين فقط بشأن مصائبهم بل بمصائب غيرهم ممن يخالفونهم الرؤية والعقيدة.

هم يظنون أنه في جيب كل منهم كرت ذهبي يضمن لهم المقاعد الأمامية الأولى في الجنة، وكما اعتادوا تقسيم حقوقهم هنا في الأرض منحوا أنفسهم السلطة لتقسيم السماء.

كانت زين ترى أنهم يُنْهَكُون أنفسهم بما لا يعينهم ولا يُنْقِصُهم ولا يُغْنِيهم!

فما الفائدة المرجوة من إصرارك على تألم جارك في الجحيم إلى الأبد لأنه يحمل في رأسه فكرة مخالفة لأفكارك.

هذا الجحيم في عقلك، ولا يحرق أحداً سواك !

كانت تدرك جيداً أنهم يحترقون، فتتجاهل رائحة الشواء متأملة الجمال من حولها وتقول:

الله يشير إلى شجر الرمان، إلى كروم العنب، إلى الشمس، إلى القمر، لكن الحمقى ينظرون إلى إصبعه.

الله يشير إلى المحبة والخير والجمال، إلى التعاون والأخوة والإنسانية.

الله يشير إلى صدر طفلٍ عارٍ لتكسوه، وفاه جائعٍ لتطعمه.

لكم لا ترى من الله سوى إصبعه!

كيف ستره وأنت لا تكترث إلا لشمعتك، لركعتك، لدمعتك، ولظهرك.

كم أنا أني أنت، تريد ما هولك والله يريدك لكل شيء.

هذا ما تعلمته زين من غواتاما .

غواتاما بردائه الأزرق الطويل، وبابتسامته الدائمة وببشرته المشرقة رغم أنه قد تجاوز السبعين بكثير.

لا أحد يعلم عن غواتاما شيئاً، من هو، أو من أين أتى ولا حتى نسبه أو اسمه، فغواتاما هو لقبه فحسب.

كما لا مكان محدد لغواتاما، لكن المريدين كانوا يجدونه دوماً وكأنه في كل مكان.

وقد كانت زين هي الفتاة الوحيدة بينهم لكنها الأقرب إليه ربما لأنها في الدرس الأول_أو في الحب الأول كما يحلو

لغواتاما تسميته_ لم تطلب عنواناً دقيقاً لمكانه على عكس أقرانها .

فغواتاما كان يجد في عدم السؤال عن المتوقع نوعاً من الاستنارة والذكاء، فالأسئلة المتوقعة لها إجابات سهلة

وجاهزة، وكم يتشابه السائلون .

جميع المريدين سألوه إلا هي، وكانت إجابته بأنه طلب من كل واحد منهم أن يختار اتجاهًا وقام بتوزيعهم على

أربعة طرق، أحدها نحو الشمال والآخر نحو الجنوب، أحدها نحو الشرق والآخر نحو الغرب، وطلب منهم المشي

في هذه الطرق التي اختاروها .

متى سيتوقفون؟

ما الذي سيبحثون عنه؟

كم من الوقت ستستغرق الرحلة؟

كل هذه الأسئلة لم يكن لها إلا إجابة واحدة: (ستعرفون عند الوصول).

الوصول إلى أين؟ سأله أحد المريدين، لكن غواتاما أدار ظهره وشبك ذراعيه نحو الحلف ومشى بعيداً عنهم، فما كان منهم إلا أن بدؤوا رحلتهم بصمت، كل منهم يحمل تساؤلاته في الطريق المخصص له.

وبعد ساعات من المشي وصلت زين إلى نبع حيث يجلس غواتاما بهدوء على صخرة مرخياً قدميه في الماء وكأنه كان هناك منذ الأزل.

وصل المريدون تباعاً إلى ذات المكان بفوارق زمنية قليلة.

ومنذ ذلك الحين توقفوا عن طرح تساؤلات حول مكان معلمهم الذي شمر عن زنديه في تلك اللحظة وغمرهما في الماء وقال:

لقد سلكتم طرقاً مختلفة، لكن جميعكم وصلتكم إلى المكان ذاته.

الحب الأول: لا تتم أخاك أنه ضالٌ بطريقه، فطريقه سليم كما هو طريقك حتى لو كان الطريقان متعاكسين.

قد تصلان إلى الوجهة ذاتها وقد لا تصلا، وذلك لا يُلغي أن كليكما على صواب.

ستجد ما أردت، لكن اتر حُبكَ على طول طريقك الذي تسلكه، اتره كقطع رغيف خبز ليستدل به الجائعون إلى الحب، وسيعود رغيفك ليكمل من جديد .

أما إن صرخت بصوت عالٍ واتحبت سيهرب الجميع من طريقك وسيسلكون طرقاً أخرى لأن طريقك يضجُّ

بالبكاء والعيول .

الآن يمكنكم توجيه أسئلتكم برفع القلب . . .

تلقى يومها غواتاما العديد من الأسئلة:

كيف أحب نفسي؟

كيف أصلي بخشوع؟

أين أجد الله؟

كيف أوقف الصوت الذي يعث بي داخل رأسي؟

ماذا يوجد بعد الموت؟

أما في هذه اللحظة حضنت زين صدقتها والإجابات التي حصلت عليها من غواتاما طيلة رحلتها اللاحقة معه، وانتعشت برذاذ البحر الذي لامسها وعادت بهدوء إلى مجموعتها وأثناء ذلك تلاقت عيناها بعينين أثارتا فضولها بحزنهما، ربما ليس حزناً بقدر ما هو شعور بالذنب . . . التقت عيناها بعيني سومر .

أول ما قد يلت نظرُك بسومر إضافة إلى حزنه المخفي خلف صمته وكبرائه، هو رأسه الحليق، وذراعيه المخضيين بسمرة فائضة ومعصمه المزين بسوار وردي يحمل حبة فراولة تبسم!

قد يبدو لك ذلك المظهر غريباً بعض الشيء، لكن حبة الفراولة المبتسمة ليست سواراً بل رباط شعر .

أصبح الأمر أكثر غرابة؟

حسناً . . .

الإنسان هو آثامه .

إن الذنوب التي نرتكبها في حياتنا تصبح ثقيلة أحياناً لدرجة لا نعود فيها قادرين على حمل ذواتنا دون أن ننحي .

لكن ماذا إن وضعنا هذه الذنوب في معصمنا ؟

سومر يحمل ذنبه في معصمه، يحمله ليتذكر كلما رفع ظهره أنه يجب عليه أن يحنيه .

ما زال سومر يذكر ذلك الفجر، وقد كان فجرًا عاديًا حيث كان يقوم بالحراسة في القطعة العسكرية المفرّز إليها، يشعل الحطب ليغلي إبريق الشاي، ينظر للنار المتقدة ويفكر باللحظة التي قد يعود فيها إلى منزله الذي هجره منذ ثلاث سنوات وأربعة أشهر وأربعين وخمسة أيام وفجر .

كان يفكر في اللحظة التي قد يستحم فيها بالماء الدافئ، وينام في سريره تحت أغطية من الفرو الناعم ويشارك عائلته الفطور الصباحي ويحتسي كأس شاي معطر بالزعتر البري، شاي له نكهة مهدئة ليس كجرعة الشاي التي يشربها هنا والتي لم تعد توحى إلا باليقظة والترقب .

يحلم بالسهرات الصيفية وبعيني ليلي العميقتين . . .

عندما يعود سيتزوج منها ولن يسمح لأحد أن يطلق رصاصة واحدة في حفل زفافهما، لن يسمح إلا برش الأرز والياسمين، وعندما كان الجوع يقرص بطنه ليذكره بقيمة الأرز قرر أن يكتفي بنثر الياسمين .

ليس الورد الجوري هو رمز الحب بنظره بل الياسمين، إنه يحتاج الكثير من البياض كي يغسل اللون الأحمر من عينيه والياسمين كهيلٌ بذلك، أو تلك الياسمينة اليتيمة التي تغرسها ليلي في شعرها الفاحم الطويل كهيئة وحدها بذلك .

ابتسم سومر عندما تذكر الليالي الصيفية التي كان يهرب فيها ليلاً إلى الأحراش ويتسلق الأشجار ثم يشعل خطافاً كهربائياً ثلاث مرات .

هذه الإشارة التي تلتقطها ليلي من نافذتها، فترتدي الليل شالاً على كتفها وتهوّل إلى مكان اللقاء .

من ذا الذي قال أن المقاهي أو الحدائق أو شواطئ البحر هي الأماكن المثلى للقاء العشاق ؟

قد تكون الأشجار هي المكان الأمثل لذلك، فتصبح الأغصان أكثر راحة من الأرائك الوثيرة أو الكراسي أو الوسائد .

كان سومر يرتشف الشاي ويتذكر رائحة خدي ليلى الحميرين وعبق شعرها وتلك العبارة التي دسها في أذنها:
(أريدُ أن أخبرك سرّاً . . . إنني أحزن قليلاً عندما يعانق عطري عطرك ونبقى أنا وأنت في مكانينا ثابتين . . . فهل
العطر أذكى من الإنسان؟)

تذكرُ ابتسامتها الخجولة وشفيتها النابضتين وعلى الرغم من تذكره كل تلك التفاصيل إلا أنه لم يستطع استحضار
نكهة القبله، ربما لأن القبله ليست نكهة بل هي اندماجٌ بالحبيب حتى آخره .
قطع عليه خيالاته وذكرياته مع ليلى صوت حركة بين الشجيرات على بُعد أمتار منه، فحمل بندقيته وصرخ: من
هناك؟

كان الضوء قد انبثق وأصبحت الرؤية واضحة إلا أن الشجيرات كانت تتحرك دون أن يظهر أحد من خلفها .
صرخ مرة ثانية وثالثة فلم يظهر أحد، كان الخوف قد التهم قلبه حينها، فهو في قرية بعيدة عن القرى المحيطة وقرية
من الحدود، لم يخطر بباله إلا أن يكون سبب الحركة جنود ينتمون إلى الطرف الآخر ويخططون للإغارة عليهم
فأطلق عدة طلقات نارية على الشجيرات وحينها همدت الحركة .
اقترب من الأغصان الغضة وحركها فوجد جثتين هامدتين . . .

إحداها لغنمة على ما يبدو أنها كانت ترعى، والأخرى لفتاة صغيرة هي راعية الغنم .
أما هذه اللحظة فترقرقت الدموع في عيني سومر المكابرتين ولامس السوار في يده والذي كان رباط شعر الفتاة
التي قتلها ذلك اليوم . . .

لقد هرب سومر من كل شيء بعد هذه الحادثة، من قطعه العسكرية، من البنادق، من النار المشتعلة، من أباريق
الشاي، وحتى من ليلى . . . هرب من كل شيء في رغبة عميقة منه ليهرب من نفسه . . . ليهرب من آلامه ومن
ذنبه.

وعلى بعد بضع خطوات من سومر كانت تجلس أيل التي تتطاير خصل شعرها من حولها .

أيل بعينها الواسعتين وشفتيها المملكتين وجسدها المشوق قد تشكل فريسة شهية بالنسبة لوسام أو ربما هو من سيكون فريستها !

ألا يقول نيتشه أن المرأة هي الفخ الذي نصبته الطبيعة !

كي لا نظلم وسام والذي ربما قد فكر بأيل وربما لم يفكر بها حتى اللحظة، سنعود إلى أيل.

الإنسان هو مظهره .

ربما ستزعج مني أيل لو سمعتني أعرف بها بهذه الطريقة وهي التي عملت جاهدة طيلة حياتها كي لا يتم اختزالها بمجرد جسد جميل .

وعلى الرغم من وجود مرآة في غرفتها تمتد على طول الجدار إلا أن الجدار المقابل لمآتها كان عبارة عن مكتبة لا تحمل الكتب فقط بل ممتلئة بشهادات مختلفة في إجادة اللغة الفرنسية والإنكليزية والألمانية التي ألفتها كي تستطيع الحصول على قبول جامعي لمتابعة الدراسات العليا في الهندسة المعلوماتية .

كل هذا فعلته لتجاوز شعورها بأنها قابلة للانتهاز من قبل الآخرين فقد كان هذا الشعور لا يفارقها .

إن الجمال مؤلم كانت هذه العبارة تتكرر في ذهنها منذ أن كانت في الثالثة عشر من عمرها أي من اليوم الذي بدأ فيه العرسان بطرق بابها .

وهي التي كان تفكيرها آنذاك منحصرًا باللعب مع صديقاتها وبواجباتها المدرسية .

من الغريب أن يشعر أي رجل بالإثارة تجاه طفلة بهذا العمر حتى لو كان جمالها أكثر من طاغٍ ولو كان جسدها بمنظوره ناضجًا !، فبشهوته هذه يحرمها جزءًا من براءتها .

الأمر أشبه بأن تطلب من شجرة ما أن تحمل بالثمر دون أن تزهر، قد لا تكون مرحلة الإزهار هامةً بالنسبة لك لكنها بكل تأكيد هامة بالنسبة للشجرة .

إن هذا ينطبق أيضًا على الإنسان ! فليس من حقك أن تحرم أي إنسان من أن يزهر .

هل من الممكن أن تكون نظرية أيل صحيحة؟

الجمال مؤلم....

حسنًا ماذا لو أنه في كل مرة يتم تقييمك وفقًا لمظهرك.

أن تكون خاضعًا لقوانين صارمة في الجمال، وأن تكون راحتك النفسية مقترنة بهذا المظهر الخارجي... وأن تخوض معركة غير منصفة مع الشيخوخة.

هل بإمكانك أن تتخيل كم من النساء يصارعن في هذا العالم ليكنَّ أجمل، كم يتحملن الآلام مبرحة للعمليات الجراحية ليكنَّ متناسبات مع معايير الجمال الشائعة، وكم من الآلام النفسية قد تنقل قلوبهنَّ. آلام ما قبل التجميل نتيجة الاستهزاء بما ليس لهنَّ به يد أو الأسوأ من ذلك... التهميش.

والآلام ما بعد التجميل، وكأنَّ لسان حال الجميع يقول:

لقد أمسكنا بكنَّ، أنتنَّ مجرد دمي بلاستيكية!

الأمر أشبه بأن يدفعك شخص ما بقسوة للقيام بأمر ما ثم يستهزئ بك بعد القيام به، هذا ما يفعله المجتمع حرفيًا! حسنًا... لكن ماذا عن أيل، لم الجمال مؤلم بنظرها؟

أحمر الشفاه، الأقراط المتدلية، الكعب العالي، ضفائرها التي تمَّ حلُّها للمرة الأولى وثوب الزفاف الأبيض جميعها تؤلم جسدها الصغير، تؤلم هذا القلب الكبير الذي تمَّ انتشاله من براءته.

لقد تمَّ استبدال مقعدها الدراسي بسرير الزوجية الذي يجمعها برجل يفوق والدها عمرًا، ودفاتر التلوين بكتب الطبخ، وحجرتها الصغيرة البسيطة بمنزل كبير جدًا بحيث كانت تشعر كل يوم أنها تكتشف فيه غرفًا جديدة.

لم تكن تدري إن كان عليها البكاء أم الضحك عندما كان ذلك العجوز ينادي والدها بـ (عمي)، وعلى الرغم من ذلك تمكنت من عقد صفقة معه لتكمل دراستها ودفعت ثمنًا غاليًا لإتمامها.

سندت أيل رأسها بيدها وتأملت الشمس وهي تُشرق، كم يحمل هذا الرأس من آلام لدرجة أنه يحتاج ما يسندده ليبقى صامداً .

هبت نسمة هواء فحرّكت وشاحها الذي كشف عن رقبتها المشوّهة، سرعان ما قامت أيل بتدريك الأمر وغطت جسدها الذي عانى الأمرين طيلة حياتها .

كم يخيفها ضوء النهار لأنه يكشف أكثر مما يمكن كشفه ليلاً، يكشف مالا تريد هي حتى أن تراه، فكيف لو رآه الآخرون !

وبذلك كما كان الجمال مؤلماً بالنسبة لها أصبح القبح كذلك .

انتصبت أيل عندما رأت أصدقاء رحلتها يجهزون أنفسهم للتحرك، فقد حلّ وثاق الحبال التي تُثبت المركب المطاطي بالصخور .

لقد جمع كل منهم أشياء واستعدوا لرحيلهم الأول . . .

خلاصة عطر البرتقال المُقوية، قلادة التناقضات الجميلة المتكاملة، الأصداف التي تُكرر أسرار البحار الأبدية، الدب المحشو عديم الرائحة، سجادة الصلوات التي لم تُستجب بعد، الوشاح الذي يغطي كل شيء ولا يغطي أي شيء، وحبّة الفراولة التي تبسّم بحرقّة .

وبطريقة غريبة كان وسام الشخص الوحيد الذي لم يحمل أي شيء على كتفه لكنه شعر بغربة عندما رأى ناي تصعد المركب المطاطي .

وبذلك حمل على كتفيه في هذه الرحلة شيئاً غير متوقعاً، شيئاً لم يعتقد أنه سيجمله فوق قلبه يوماً ما .

لله اللحن الثاني لله

تصبحين على عناق

قامت سارة بوضع المزيد من الحطب في المدفأة التي استلقت لوسي المبللة بجانبها، وقدمت لها وعاء يحتوي طعامًا مخصصًا للكلاب.

إن هذه الكلبة تحتاج المزيد من العناية هذه الأيام، لقد تقدمت بالعمر ومع ذلك ما زالت تستغل غياب سارة عن المنزل لتترك غرفة الجلوس الدافئة وتقضي وقتها في الفناء الخلفي بجانب القبرين القائمين هناك.

دأبت سارة رأس لوسي التي أغمضت عينيها المتعبتين:

(تشعرين بالوحدة من بعدهما أليس كذلك؟ ... أنا أيضًا).

وبينما كانت يدها غارقة في نعومة فرو لوسي ألقت نظرة على الصور المعلقة أعلى المدفأة.

لطالما كانت هذه الصور في مكانها هذا. لم يتغير المنزل كثيرًا في السنوات التي قضتها بعيدًا عنه لتدرس علم النفس.

في هذه الصورة تظهر لوسي يافعة وهي تحمل عظمة بين أنيابها بينما تجلس سارة مسندةً رأسها ببراءة على ظهرها.

وفي الصورة الأخرى يظهر والدها وهو يضع نظارته السميكة ويلقي محاضراته الأولى في الفيزياء في إحدى الجامعات الألمانية العريقة.

وفي الصورة المجاورة يرتدي رداء الأبيض مع أحد زملائه في المختبر، كما تظهر والدتها بثوب مرقط وهي تبسم وترفع كفيها مظهرة راحتها للكاميرا وكأنها تقول أنها لا تعلم شيئًا عن المكان الذي هي فيه الآن.

هذه الصورة تعود لعام 2004، كل ما هو مختلف الآن أن جميع من في هذه الصورة هم من الموتى.

اقتربت سارة من حائط الذكريات أكثر ولمست الصورة التي تقبل فيها والدها . ما زالت تذكر الحديث الذي قد دار بينهما ذلك اليوم عندما أخبرته أنها ترغب بالتخصص في علم النفس وأنها لن تسير على نهجه في دراسة الفيزياء .

فقال لها مبتسماً: (لن الإنسان كونٌ صغير له كواكبه ومجراته التي لم تُكشف بعد، له انفجاره الكبير الذي انبثقت عنه نفسه، له ثوبه السوداء التي يجهل وجودها وعندما يقترب منها كثيراً تبثع أجزاء منه، وله نسبته الخاصة فيعيش بين واقعه وخياله في زمانين مختلفين .

الفيزياء تنقب عن الإجابات وتبكر أسئلة جديدة لتبحث عن إجاباتها، وعلم النفس كذلك) .

حينها قبلته سارة وهو يستحق هذه القبله، فقلة أولئك الآباء الذين يشجعون أبناءهم على ممارسة ما يحبونه رافضين أن يكونوا مجرد نسخة مكررة عنهم، قلة أولئك الآباء الذين لا يحاولون العيش من خلال أبنائهم مهتمين أحلامهم ومتجاهلين حقهم الطبيعي بأن يكونوا ذاتهم .

انتقلت سارة لصورة أخرى تظهر فيها وهي تضع أحمر شفاه خمري وتصبغ خديها بلون أحمر، معتمرة قبعة سوداء ومزينة عنقها بعقد من اللؤلؤ، أما قدمها فتغوص في مقدمة حذاء ذي كعب عال بينما يبقى فارغاً من الخلف .

والدتها هي التي التقطت لها هذه الصورة بعد أن دخلت غرفتها لتكشف أن ابنتها التي لا تتجاوز العشر سنوات قد أفرغت محتويات خزانها على جسدها الصغير .

ضحكت والدتها كثيراً من مظهرها، داعبت أنفها وركعت على ركبتها لتكون مساوية لطول قامتها وقالت لها: (هنالك ما قد يزيدك جمالاً أكثر من مساحيق التجميل .

يُقال أن الغناء كل صباح مع العصافير يجعل الشفاء أكبر، وأن إطعام قطعة جبن لقطعة صغيرة جائعة والمسح على رأسها يجعل اليدين أنعم .

وأن منحك مقعدك في الباص لرجل عجوز يجعل ساقيك أطول، وأن عناقك لصديقتك قد يجعل شعرك أكثر

لمعاناً .

وهناك أخبار مُسرّبة أن كل شخصيات الكتب التي قرأتها ستُقبل وأنت نائمة .

أتعلمين ما الذي قد تفعله القبل بوجنتيك !

لا أدري لم استثنى ناقل الخبر الفلاسفة وعلماء النفس، ربما لينقذك من شارب نيتشه أو من رائحة سجائر فرويد .

يا صغيرتي . . . كل ما في عقولنا وقلوبنا، سينعكس دوماً على وجوهنا) .

وإنه لمن الغريب أن ينصب اهتمام سارة على دراسة علم النفس والفلسفة بعد كل هذه السنوات من تلك الحادثة .

كم كانت تمنى لو تمكن والداها من حضور حفل نيلها شهادة الدكتوراه .

ألقت نظرة على الصورة الأخيرة المعلقة على الحائط والتي يظهر فيها والداها يوم زفافهما .

والدتها ترتدي ثوب الزفاف الأبيض وتحمل بيدها باقة ورود بيضاء وتبتسم بحيث تظهر غمازة خدها، أما والداها

فمتأنقٌ بزة سوداء وليس فمه فقط هو الذي يبتسم، بل كل ما في هذه الصورة يبتسم ويجعلك تبتسم أيضاً .

كان والداها يغازل دوماً غمازة خد والدتها:

(إن غمازة خدها هي الدهليز الذي أسلكه في كل مرة أجعلها تبتسم . . . الدهليز السري الذي يقودني إلى قلبها

مباشرة) .

كان يحتضن سارة وهو يداعب غمازة خدها التي ورثتها عن والدتها ويقول لها: (أخبري أمك بذلك وأنا سأخبرها

أيضاً، فالحب هو الحقيقة الوحيدة التي لا يجب إخفاؤها عن أحد) .

كم من الرائع أن يبقى الإنسان عاشقاً لذات التفاصيل التي أحبها قبل عشرين سنة، بل ومجدداً لولعه بها، محافظاً

على شعلة الشغف الأولى حتى نهاية الطريق .

لقد مات والداها وبقي شغفهما حياً على هيئة ذكريات، هل بذلك يمكننا القول أن الإنسان هو ذكرياته؟ تساءلت

سارة التي تركت غرفة الجلوس وذهبت إلى المطبخ تعد مشروباً دافئاً .

كم هي بحاجة للاسترخاء بعد هذا النهار الطويل، لكنها مضطرة للقراءة والبحث لتنتهي أطروحتها .

في النهار تقوم بزيارة مخيمات اللاجئين، وحتى اللحظة مازالت تبحث عن أشخاص مناسبين ليكونوا موضوع بحث أطروحتها .

أما في الليل فتستمع إلى التسجيلات التي جمعتها نهاراً وتقوم باستخلاص ما يمكن استخلاصه .

لم يكن الأمر سهلاً، فعلى الرغم من إتقانها اللغة العربية بسبب أصولها السورية، إلا أن الموضوع يتخطى حاجز اللغة .

هي تحتاج لطاقة كبيرة لتحمل كل الآلام التي من المفترض أن تكون حالات تقوم بدراستها، بيد أنها لا تستطيع أن تفصل عواطفها عن عملها .

اليوم صباحاً قابلت طفلاً لا يتجاوز السابعة من عمره قد تم نقله للتو إلى (الكامب)، لقد كان وحيداً بلا أحد من والديه، وإن شاباً لا يعرفه هو الذي تكفل بمرافقته في رحلة اللجوء من أثينا حتى بودابست وصولاً إلى ألمانيا . ولم يكن لدى أحد معلومات فيما إذا كان هذا الطفل قد فقد عائلته في طريق الهروب من إزمير إلى جزيرة كوس اليونانية، فقد كان الطفل ممتنعاً عن الكلام تماماً، يرفض الإجابة عن أي سؤال يوجه إليه، يجلس وحيداً ويرفض تناول أي طعام ويعبث بكنتزته الحمراء .

كيف سيقضي ليلته الأولى في المخيم يا ترى؟ هذه الليلة الباردة التي تبرد شتاؤها على خريفها ليحمله توءماً له بالأمطار والرعود .

كيف سيواجه تلك الخيالات التي سترسّم على جدران مكان لم يألّفه، والبرق الذي سيتطفل على ظلمة ليله، ودوي الرعد الذي قد يذكره بهدير الحرب في بلده . لكن لا بدّ لبقائه أن يكون مؤقتاً في المخيم وسيتم نقله إلى عائلة ما كي ترعاه .

لو لم تكن هذه الحرب قائمة، لكان هذا الطفل يغفو على وسادته محتباً تحت الأغطية مع إخوته وكلما سمع صوت الرعد لامس أقدامهم الدافئة بقدميه الصغيرتين ليشعر بالأمان.

لو لم تكن هذه الحرب قائمة لكانت مخاوفه الآن متمثلةً بوحشٍ صغيرٍ يحتبى تحت السرير.

كل ما كان سيقلقه حينها هو ألا يتزامن موعد برنامجه الكرتوني المفضل مع موعد مباراة يتابعها والده، وأن تسمح له والدته بتناول البطاطا المقلية عوضاً عن صحن الخضار.

أخذت سارة رشفةً من مشروبها الدافئ، وتمتّت لو كان بإمكانها ثقل قليل من الدفء لذلك الطفل الصغير.

"أحياناً لا يحتاج الإنسان كي يحيا إلا كوباً من البابونج العطر، ويدٌ تمسح على رأسه، وصوتٌ يسأله كيف حال روحك."

وكانَ لوسي سمعت ما يدور في رأس سارة فقفزت بتناقل على الأريكة التي تجلس عليها ولا مستها بقوائمها الأمامية وقد أمالت رأسها قليلاً كأنها تستفسر عن شيء ما.

(لقد جفَّ فروكُ أيتها الشقية) قالت سارة مررةً أصابعها على رأس لوسي وظهرها ثم تابعت:

(ما رأيك أن نبدأ بالعمل قبل أن يتأخر الوقت؟)

تحركت سارة إلى غرفة المكتبة وتبعها لوسي.

هذه الغرفة هي أكبر غرف هذا المنزل وقد كان والدها يقضي فيها معظم وقته.

عندما دخلت سارة الغرفة وأضاءت الأنوار خُيل لها أن والدها يجلس كعادته خلف مكتبه وأمامه مجموعة من الكتب التي يقرأها ثم يعيدها إلى رفوف المكتبة.

لقد كان يعتزُّ بمكتبته هذه التي تصطف الكتب فيها على رفوف خشبية من أعلى الجدار القائم خلف المكتب حتى أسفله.

جلست سارة خلف المكتب الذي امتلأ بأكداس من الورق، ثم بدأت تستمع إلى التسجيلات الصوتية لتحوّل

الصوت إلى كلمات مكتوبة، محاولة الغوص في نفس صاحب الصوت لتدون أفكاره، معاناته وآماله.

استوقفتها صوت امرأة عراقية يزيديّة تدعى روجين قابلتها منذ عدة أيام:

(لقد كنا نعرض كلوحات، لكن الفرق أن اللوحة يتم تقديرها وتعليقها في ركن بارز من المنزل أما نحن فنغضب!)

توقف المسجل قليلاً محتقناً بعبرات صاحبة الصوت التي تابعت من جديد:

(عندما تريدن أنتِ التقرب من أحدهم ستذهبين إلى السوق لتشتري له هدية قد تكون علبة شوكولا أو عُقد أو ساعة يد، لكن هناك كنا نحن الهدايا، حيث يتم تحسّسنا ومعاينتنا كأبي بضاعة... نباع ونشتري ونهدى).

ما معنى أن يُباع الإنسان في الأسواق ويُتمنّ تبعاً لمواصفاته الجسدية!؟

وما الذي قد يظن الشاري أنه يملكه؟ هل يملك فكر وقلب هذا الإنسان أم يستحوذ على جسده فقط؟

كيف بإمكاننا أن نحول الإنسان إلى سلعة لمجرد أنه يخالفنا بالفكر أو الرأي أو العقيدة؟

تساءلت سارة وهي تتخيل نفسها حبيسةً في غرفة زجاجية... وخارج الغرفة رجال يتفحصونها ليضعوا التسعيرة المناسبة لها:

يورو لأن بشرتها مثالية.

يورو إضافي لأن شعرها كثيف ولامع.

ربما سيخصمون يورو لأن طولها غير كافٍ!

أو لأنها تضع نظارة على عينيها ولا تستطيع الرؤية جيداً بدونها.

وبعد أن تضاف مزاياها وتطرح مساوؤها على هيئة قطع نقدية، يتم تغليفها وتقديمها لرجل يدفع ثمنها وهو مطمئن أن أفعاله مباركة من الرب شخصياً!

حاولت سارة الخروج من هذه الغرفة الزجاجية وأوقفت المسجل الصوتي لكن دون فائدة.

فما زال صوت روجين يرنُّ في أذنها، بل وتحول هذا الصوت داخل عقلها إلى صور .

كم تمتّ لو تستطيع تمزيق الصور التي طبعها هذا الصوت في عقلها، الصورة التي تنفّلت فيها يد روجين عن يد ابنتها الصغيرة، فالبضائع المتفاوتة في الأعمار لا تبقى في ذات المخزن .

الصورة التي تحاول فيها روجين قطع شريانها بعد أن أعلمها مالکها أنه سيتم تأجيرها لملك آخر لبضع ساعات !

الصورة التي تم فيها اغتصابها من قبل ستة رجال عندما نقلت إلى مخزن آخر بعد ملل مالکها منها .

الصورة التي تخبرهم بها أنها أم متزوجة، فيضحكون منها فهي مجرد كافرة ومُلك يمين .

الصورة التي تتمكن فيها من الهرب بعد محاولات عديدة دون أن تعلم شيئاً عن ابنتها أو زوجها .

كيف يمكن أن تتحول المرأة من كيان إنساني إلى وعاء جنسي يباع ويشترى فقط لأنها امرأة !

(لم أكن أتصور أن نسختين من الصبغي X ثقيلتان إلى هذا الحد) .

تكلّمت سارة بصوتٍ مسموعٍ مما جعل لوسي ذات السمع الخفيف تحرك أذنيها وتمسح رأسها بساقي صاحبتهما التي ما أن انحنت لتداعبها حتى اصطدمت بالصندوق المتوضع تحت طاولة المكتب .

لم تكن لتنسى هذا الصندوق لمدة أسبوع، لكنها حاولت تجنبه طويلاً، فإن ملامسة الأشياء الأخيرة التي تخص شخصاً لم يعد متواجداً معنا في هذا العالم أمر بالغ في الصعوبة .

لقد كان هذا الصندوق الأثر الأخير الذي تبقى من والدتها، حيث يحتوي الأغراض التي جمعتها المريضة بعد وفاة والدتها في المشفى .

منذ اليوم الذي توفي فيه والد سارة وصحة والدتها في تداعٍ مستمرٍ بحيث لم تعش من بعده فترة طويلة بل وأصيبت بفقدان ذاكرة في مراحل حياتها الأخيرة .

اعتصر الأم قلب سارة لا سيما أن والدتها كانت على قيد الحياة قبل أيام قليلة فقط، حيث كان بإمكانها لمس يدها الممتلئة بالتجاعيد وسماع أنفاسها وصوتها المتحشرج المنادي بحروف اسمها متلفظة بعده بكلماتٍ لم تفهمها :

(سارة . . . والدك لا وجود له في قبره، والدك أصبح موسيقى وأنا أيضاً سأصبح كذلك).

وعلى الرغم من أنها سرت لأن والدتها تعرفت عليها ونادتها باسمها إلا أن ذلك السرور لم يستمر لأكثر من برهة، فقد فارقت والدتها الحياة بعد هذه العبارة التي علقت في ذهن سارة دون أن تجد لها أي معنى!

ربما هي هلوسات أخيرة لمريضة تحتضر، تدل على ولع والدتها بالموسيقى وشوقها لزوجها.

فتحت سارة الصندوق ووجدت فيه بعض الملابس ونبذة صبار كانت المفضلة لدى والدتها.

وضعت النبذة على المكتب وسقتها ببعض الماء، ثم أخرجت المعطف الصوفي الذي كان بلون الفيروز، ووضعت على كفنها.

ربما الشعور بالبرد ليس التعبير الصحيح عما قد شعرت به، هي شعرت بالحنين والحنين أشد برودة من الثلج أحياناً.

رنّ الجرس، وجرت لوسي بما لديها من طاقة كعادتها باتجاه الباب. إن لوسي دوماً ما تنتظر أحدهم، هذه عادتها منذ كانت جروة صغيرة.

تبعتها سارة وفتحت الباب للضيف المتوقع دائماً . . . إنه آدم.

يقف آدم أمام الباب بابتسامته المعتادة وهو يحمل طبقاً من الطعام:

(لا بد أنك لم تتأولي عشاءك بعد، وبما أنني لا أستطيع تناول طعامي وحدي، فستكون صفقة عادلة لكيأنا أقدم لك الطعام وأن تقدمي لي الصحبة).

يلكر آدم الباب بكفه ليغلقه، ويتجه نحو المطبخ ليضع الطعام على الطاولة ويُخرج صحنين من مشبك الأطباق.

يجلس على الكرسي في المطبخ وينادي لسارة التي سرعان ما تجلس أمامه وهي ترتدي المعطف الفيروزي في حين يرتدي هو كعزة قطنية تظهر زنديه المفولين.

وعلى الرغم من هذا النقيض في الثياب أحدهما صيفي والآخر شتوي إلا أن هنالك توافقاً كبيراً بين سارة وآدم

فقد كانت فصولهما النفسية متزامنة.

عندما يصاب هو بالربيع تُزهر هي معه، وعندما تصاب هي بالشتاء يكون لها مظلة ومدفأة.

آدم هو أحد جيران سارة وصديق مقرب لها أيضاً، والعلاقة التي تجمعهما هي من ذلك النوع الذي يعتبر في رتبة أعلى من الصداقة وأقل من الحب، حيث يمكن أن يحدث كل منهما الآخر وهو مطمئن لأنه لن يتم استغلاله أو الظن به سوءاً.

ـ كيف كان نهارك؟ سأها آدم وهو يدسُّ اللقمة الأولى في فمه، فاحترق من حرارتها.

ـ ألا تستطيع الانتظار قليلاً كي يبرد الطعام، قالت سارة بعد أن أحضرت له كوب ماء.

ـ الانتظار يحرمك لذة الأشياء.

ـ وما اللذة التي كنت ستُحرم منها لو أنك انتظرت قليلاً؟ لذة الاحتراق!

ـ بل لذة أن تنهضي لتحضري لي كوب ماء لأنك تكثرين لأمرى. تنحى آدم منتصراً.

ابتسمت سارة، فأضاف آدم:

ـ أصبحتا لذتين، كوب الماء وابتسامتك، رأييت!

انقلب الجو البارد المائل للحزن إلى جو دافئ مفعم بالحبة، حتى لوسي استشعرت ذلك وأخذت تدور حول ساقى

آدم الذي ألقى قطعة لحم لها، فاعتضت سارة:

ـ لا تعبت بنظامها الغذائي.

ـ أليست سعيدة هي بقطعة اللحم هذه؟ سيزداد وزنها؟ ستعيش حياة أقصر؟

رفع آدم سبابته وإبهامه أمام عينيه وكأنه يحرك نظارة طبية وهمية:

حسنًا فلأخذي الدرس الأول لهذه الليلة: (الأرطال الزائدة هي غالبًا أرطال من الحزن والناس يموتون بسبب

الحزن لا بسبب الدهون، السعادة ستحرق الحزن وبالتالي هذه الدهون . . . لن يكون لها وجود).

مضغت سارة لقمته بسرعة:

إذن طعامك هذا سيخفض من وزني؟

أغمض آدم عينيه وهز رأسه:

فقط إن تناولته بسعادة، وخرجت معي غدًا صباحًا لممارسة الرياضة.

أنت تعلم أنني لا أنام حتى الفجر فمتى قد أستطيع الخروج معك.

أرايتِ عدم النوم أيضًا هو أحد أسباب دهون الحزن هذه، إضافة لأنك تقضين وقتًا مع المرضى أكثر مما تقضينه مع نفسك.

نظرت سارة إلى زنديه ثم غمزته:

أيها الفيزيائي الوسيم . . . ليس الجميع قادرين على أن يشبهوك! . . . قل لي من مثلك؟

والدك . . . أستاذي، وأنا طالب نجيب في كل شيء.

التمعت عينا سارة بمزيج من الفخر والحزن والشوق، كان ذكر موت والدها قد نكأ الجرح من جديد.

شعر آدم بذلك فأمسك يدها بقوة:

لقد قاما بكل ما يمكنهما القيام به، كم أتمنى أن أكون كوالدك حينها سأموت بهدوء راضيًا.

ابتسمت سارة مكابرة على تلك الدمعة التي ترقرت في عينيها:

أنت تسير على نهجه، إنني أراه من خلالك.

الهم آدم آخر لقمة في طبقه ثم غسله ومسح يديه النديتين بالمنشفة ثم نظر لسارة وهو يفتح خزانة المواد الغذائية:

تبدن مُعبّة يجب أن تنامي باكراً الليلة.

أين تلك الأعشاب التي تحتسينها، سأحضر لك القليل منها .

_لقد شربت كوبًا قبل قليل ومازال في المكتبة.

_لا لا، الكوب الذي سأحضره أنا مختلف، سيكون محضرًا مجب .

_ما رأيك أن نتابع فيلم معًا ؟

_لا، اليوم ستنامين باكراً وغداً سنقوم بذلك .

فلتأخذي الآن حمامًا دافئًا ريثما أنهي إعداد مشروب الحب الخاص بك .

بينما كانت سارة تستحم والماء الدافئ يتغلغل في خصل شعرها فكرت كم آدم دافئ بحيث يتغلغل في روحها أيضًا ليغسلها وينعشها .

وأنها هي المختصة في النفس البشرية تحتاج من ينقذها من نفسها ومن أحزانها، وعلى الرغم من ذلك كانت تخشى أن تحتبئ خلف أصدقائها من نفسها، كانت العزلة تجذبها لأنها تجعلها في مواجهة حتمية مع ذاتها .

أخذت نفسًا عميقًا وتنشقت الرائحة العطرة للشامبو المختلطة بالبخار الساخن، لن تفكر بالأمر هكذا، هي تستمتع بوجوده وهو لن يتخلى عنها، فلم الخوف !

غسلت الخوف وبقايا الشامبو جيدًا ثم لفّت المنشفة على جسدها وخرجت وهي تقطر ماءً، فكان آدم مستلقيًا على الأريكة وأحس بوجودها فقال لها دون أن يلتفت:

لقد اخترت لك ثياب منامتك ووضعتها على السرير .

عندما دخلت غرفتها وجدت ثياب منامتها الوردية اللون مع خفّ ملائم لها، ارتدتها ووضعت قرطها الذي كان بشكل علامة موسيقية في أذنيها والذي أهداها إياه والدها في عيد ميلادها الأخير، ثم وقفت أمام المرأة لتسرح شعرها وهي تفكر أن الإنسان مخطئ عندما يظن أنه يرى نفسه وحده في المرأة .

إنه يرى كل أولئك الذين فقدهم، والذين تألم من أجلمهم، والذين أحبهم، والذين أسعدوه وأغضبوه وأربكوه، وإن

هؤلاء كلهم وبطريقة ما يتجمعون تحت جلد الإنسان دون أن يدرك ذلك حتى .

إنها تعلم أن والديها وروحين وذلك الطفل ما زالوا يختبئون تحت جلدها .

بإمكانها بإحصائية بسيطة لما يشغل ذهنها أن تتبأ كيف من الممكن لمظهرها أن يبدو دون أن تنظر في المرأة .

إن الحالات السوداء والجلد الشاحب والبثور لا تأتي من العدم، كذلك الأمر ينطبق على الوجنات الوردية والعيون

البراقة وخصل الشعر الحيوية، إن كل ذلك يأتي كانعكاس حقيقي لما يشغل عقولنا .

أطل آدم برأسه من باب الغرفة ليتفقد سارة التي ما زالت ممسكة بمشط ذي أسنان واسعة وهي شاردة الذهن .

وعندما رأت انعكاس وجهه في المرأة ابتسمت ودون أن تتبأ أصبح جلدها أكثر رونقاً .

إن آدم يذكرها بكل القصص السحرية التي كان يحدثها والدها عنها، بل إنه يُكرر العديد من العبارات التي لطالما

سمعتها منه، لذلك فإن وجوده كان مريحاً بشكل خاص .

أمسك آدم وجهها الذي ما زال ندياً بيديه الاثنتين ثم عانقها قائلاً:

لقد تأخرتِ، أترغبين بأن يبرد مشروب الحب الذي أعددتَه من أجلك !

لم تجبه سارة لكنها ابتسمت، فقرصها من خديها مقرباً وجهها من وجهه:

عليكِ أن تنهي مشروبكِ ولكن قبل ذلك يجب أن تحدِثيني عن مجريات يومكِ، وأعدكِ أنني قبل انتهاء القطرة

الآخيرة سأترككِ لتنامي بهدوء .

عادا معاً إلى الصلاة حيث جلسا على تلك السجادة الدائرية الممددة أمام المدفأة واستلقت لوسي جانبهما مسندة

رأسها على قائمتيها الأماميتين مستمتعة بدفء النار التي شكلت لوناً برتقالياً لطيفاً على فروها العسلي .

كانت سارة تُحدِث آدم عن كل ما واجهته طيلة اليوم، أخبرته عن رغبتها في عناق ذلك الطفل الصغير وأنها كانت

تفكر بإحضاره معها إلى المنزل على الرغم من أن ذلك يتطلب العديد من الإجراءات والأوراق الرسمية .

رفعت رأسها قليلاً نحو آدم وهي تفتح عينيها كطفلة وجدت كيساً من الحلويات موجهةً سبابتها تجاه النافذة حيث يطل منزل الضيوف في الساحة الخلفية:

إن منزل الضيوف فارغ ويمكنني أن أستقبل فيه ذلك الطفل أو روجين بل والعديد من الأشخاص لأنه يحتوي على عدد كبير من الغرف، يمكنني أن أخبز لهم البسكويت في الصباح وأن أحضر لهم الغداء وأتناول في المساء معهم مشاعرهم الحلوة والمالحة والمرّة أيضاً .

أمسك آدم سبابتها الموجهة نحو النافذة وقبلها:

ـ إنني أخبرك دوماً أنه عليك أن تكوني حذرة وغير مندفعة لكنك لا تصغين لتحذيراتي .

ـ لكن ما أحلم به ليس مجرد تحليل لدوافعهم، أو تشرّيح لما وراء سلوكهم .

إنني أرغب أيضاً بإيصالهم إلى ضفة الأمان، أن أساعدهم في التّأم جروحهم الداخلية وإيجاد حماية روحية خاصة ملائمة لكلّ منهم .

إنهم ليسوا مجرد حالات أدرسها وأنتهي منها، هل تفهمني ؟

ـ إنني أفهمك دائماً . . . نظر إلى كوبها الذي توقف البخار عن التصاعد منه بينما تبقى القليل من السائل الملتصع في قاعه، ثم أضاف: لم يبقَ أمام موعد نومك الكثير، لكنني أريد أن أخبرك أن أنثى بوضعك وبأحاسيس فائضة لن تكون الحياة متساهلة معها .

لقد كان آدم يعلم جيداً أن سارة تستمع كل يوم لعشرات القصص وكان يُصرُّ على منحها حصّة لائقة من الإنصات أيضاً دون أن يضيف الكثير من الكلمات .

لقد كان يفكر دائماً بأن عمر الإنسان أصبح أطول مع مرور الوقت ليس فقط بسبب تغلبه على المفترسات وانتقاله من الغابة إلى مستوى لا بأس به من الحضارة، بل لا بدّ أن الكلمات التي تفوه بها قد زادت من عمره أيضاً .

بالكلمات قد يتخلص الإنسان من مشاعر الحزن التي تنهشه كالضباع البرية، وقد ينجو من غضب يحشم على

صدره كمخالب دب بني، وقد يطلق أيضاً سراح مشاعر الحب كما يطلق سراح سنونو ملتئم الجراح وجاهز تماماً لل طيران.

إنما من جهة أخرى قد تكون الكلمات سبباً في لقاء المرء لحقه أيضاً !

لكن ولنكن صريحين ليس هنالك أكثر خطأ ممن لديه إنسان يستطيع أن يتدمر أمامه من أزمة المواصلات الخائفة، إنسان يفهم أن الدموع المذروفة على فطائر احترقت في الفرن خلفها قلبٌ عانى الحرقه أكثر من هذه الفطائر.

إنسان يستطيع أن تحدثه ساعات طويلة عن لا شيء وعن كل شيء .

عن لون القميص الذي لم يرقك في البداية، وعن ظلم مديرك لك، وعن الفرصة التي تمنيتها بكل جوارحك وخسرتها، عن المصباح الكريستالي الجديد في غرفتك، عن غضبك من نفسك، عن اللوحة الفنية التي أعجبتك ولم تملك ربع ثمنها، وعن الطريقة التي يجب أن ترد من خلالها على محادثة أثارت استياءك.

لقد كانت سارة محظوظة للغاية بوجود آدم، وكانت تعلم ذلك جيداً فغمزت له بعينها فلا شكر على إنصات واهتمام إلا بضحكة من العينين.

أنهت سارة مشروبها حتى الرشقة الأخيرة، وحينما اطمأن آدم على مسار يومها حان الوقت كي يتركها لتغفو بسلام.

قبل أن يرحل نظر إليها كهادته بزاوية عينه اليسرى وبابتسامته الهادئة وقال لها عبارته المعهودة (تصبحين على عناق).

لم يصدف أن قال لها بعد زيارته الليلة الخاطفة أنه يمتنى لها ليلة هائلة أو أمسية جميلة، بل كانت (تصبحين على عناق) عبارته الأخيرة التي يحتتم بها أيامها الحافلة دوماً .

إنها تعلم أنه ما من شيء قد يمنحها الطاقة أكثر من عناق صباحي حار، حتى لو كان عناقاً من لوسي فحسب.

عادت سارة ووضعت على جسدها ذلك المعطف الفيروزي وبعد أن اطمأنت على لوسي المستلقية في سلة

القش الكبيرة المخصصة لها، اتجهت نحو غرفتها وأطفأت كل الأضواء ثم اندست تحت الغطاء الدافئ وبعد أن استقر خدها على الوسادة شعرت بلمس غريب بالقرب من خاصرتها اليمنى.

إنه شيء قليل السماكة لكنه مُتَكَلُّ بشكل مزعج قليلاً، تحسست جانبي المعطف لكن لم يكن هنالك أي جيب قد يحتوي على أي شيء، فخلعته وتفقدت البطانة الداخلية له فلاحظت وجود جيب داخلي.

أشعلت المصباح القريب من سريرها لترى محتوى هذه الورقة والتي توقعت أن تكون رسالة أخيرة من والدتها أو شيئاً من هذا القبيل، لكنها لم تكن إلا نوتة موسيقية مصفرةً الشنايا.

تملكها حرقه اعتادت عليها في الأيام السابقة عندما كانت تفقد آخر ظهور الكتروني لوالدتها، وآخر منشور قامت بمشاركته في صفحتها، وآخر تسجيل صوتي أرسلته لها لتطمئن على حالها.

إن تلك الغصة كانت تُثير في قلب سارة المزيد من الغضب الذي تملكها تجاه نفسها، لأنها كانت تتأخر دوماً في الرد على والدتها.

وإن تأخرها هذا لا ينطوي على تجاهل أو حتى على قلة محبة، لكننا غريب نحاول تتبع العلاقات غير مأمونة الجانب بل ونطاردها في محاولة منا لإنجاحها، وبصورة غير عادلة إن حب الأمهات يكون مأمون الجانب، مضموناً ومستمرّاً دون أدنى محاولات لإنجاحه.

انتصبت سارة من جديد لعلمها أن الأرق لن يفارقها الليلة ولأنها على يقين أن للنوم طرق كثيرة يتسرب من خلالها من بين أيدينا وأن مطاردته لن تزيد الأمر إلا سوءاً، فنهضت وارتدت خلفها ليحميها من برودة الأرض.

كانت الضجة التي أصدرتها والأضواء التي أشعلتها كهيلة بإيقاظ لوسي من جديد والتي اتجهت تاركةً وسائدها الطرية في سلة القش إلى غرفة المكتبة الكبيرة حيث يتوضع بيانو خشبي كلاسيكي مصنوع من خشب فاتح اللون وقد حُفرت على تاجه العلوي زهور وردية ذات حواف مُذهبة.

إنه اللحن الأخير من والدتها فكيف لها ألا تعزفه!، هي التي تعلم جيداً أنه يمكن للموسيقى أن تشرح مشاعر تعجز الكلمات عن وصفها.

جلست سارة على الكرسي أمام البيانو ورفعت الغطاء، ثبتت النوتة أمامها وبدأت أصابعها تلمس الأزرار البيضاء والسوداء، فشعرت أن اللحن غير مألوف لأذنها فأعادته مرة بعد مرة، وفي المرة الثالثة سمعت صوتاً قوياً. إن هذا الصوت لم يصدر عن البيانو نفسه بل كان صوتاً عميقاً آتٍ من خلف ظهرها، استدارت فرأت أن جدار المكتبة قُتِحَ على مصراعيه لتظهر من خلفه غرفة سرية.

تجمدت قدما سارة وهي تنظر لرفوف الكتب وهي تتباعد أمام عينيها خلال لحظة واحدة وقد كشفت عن ضوء أرجواني ترامى على جدران المكتبة بأكملها. إن الفضول وحده جعلها تخطو عدة خطوات للأمام بجذر، أما لوسي فقد اختبأت خلفها حيث أحتت ذيلها نحو الأسفل وهي تتأمل ذلك المكان الغريب الذي صدرت منه برودة ثلجية.

في تلك الليلة توهجت نوافذ المنزل بلون دافئ وقوي في آن معاً، وانعكس هذا اللون على أوراق الأشجار التي ما زالت صامدة في وجه الريح الخريفية القاسية وعلى شاهدة القبرين في الساحة الخلفية، لقد كان ذلك الضوء كرهور النایت سكاي (Night sky petunias) التي أحاطت بالقبرين من كل الاتجاهات.

١١١١ اللحن الثالث ١١١١

كيف ستجود من القناديل التي تلسعك من الداخل؟

كأي هاوٍ يقوم بجمع العملات أو الطوابع البريدية أو الفراشات كان وسام يستعرض أيضاً ما قد جمعه طيلة حياته من النساء، يضعهن في قوائم طويلة ويرقمهن إما بحسب الأقدمية أو وفقاً لما تسعفه ذاكرته. ليس هنالك أكثر إغواء للإنسان من أن يكون مرغوباً، أن يكون حلقة غامضة تسترعي انتباه شخص آخر لمعرفته واكتشافه.

إن هذا الشعور وحده قد يحول انتباهه عن أنه مجرد ذرة عابرة على سطح النقطة الزرقاء الباهتة، ووفقاً لذلك وحده لا تكون الحياة هي تقيض للموت، بل يكون الحب هو تقيضه... لأنه يقنعنا ولو على سبيل الوهم أننا عمالقة أزيلون.

اسمٌ واحد كان وسام يتردد بوضعه في قائمته، ربما لأن صاحبة هذا الاسم لم تحقق له الغاية من وجودها، أو لأنها نسفت في ذهنه الفكرة السابقة وأكدت له أن جمع النساء كالطوابع البريدية لا يمكن إلا أن ينطوي على سبب واحد فحسب... أنه لا يرغب بأن يكشف أحد حقيقته.

لقد كانت من النوع الخطر الذي يجعله يُدلي باعترافات لا يجب أن يخبرها حتى لنفسه، لذلك كان من الأسهل له أن يقوم باستثناءها عوضاً على أن يعترف بأنها محقة بشأنه أكثر منه، وبذلك يكون الإنسان هو أسرارته التي يخفيها عن الجميع.

لقد كان وسام يحاول إزاحتها من ذهنه كما يحاول إزاحة الأمواج الآن بذراعيه بغية الوصول إلى يابسة لا تلوح له في الأفق القريب، إلا أن المياه شديدة البرودة كانت تعيقه عن إمكانية التحكم بأفكاره أيضاً.

إنه يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يرفع رأسه نحو الأعلى ليملاً رثيته بالمزيد من الأوكسجين، لكن كل ما يلقاه هو

حُرقة صاعقة في منتصف وجهه سرعان ما تنتشر لتقرص عينيه ولثته، فتنتهي بغصة في حلقه يحاول إخراجها بسعال متقطع فيتناثر الماء حارقاً من جديد عبر أنفه.

كانت الأمواج تلمحه بقوة كي تعيده إلى الخلف، وصولاً إلى اللحظة التي تسبق صعوده المركب المطاطي، ربما ليتعلم أن يكون أقل جرأة وأكثر حذراً في المرات القادمة.

كان عليه أن يحصي احتمالات الغرق مقابل احتمالات النجاة، وأن يأخذ بعين الاعتبار هشاشة مركبه الذي من الممكن لسكين صغيرة أو حتى لزجاجة مكسورة أن تثقبه ليتناثر هو وأصدقائه ككرات صغيرة تتقاذفها الأمواج.

إن الطبيعة قد تكون عنيفة عندما تحاول أن تثبت لك أنها على حق، والمشكلة أنها دوماً على حق حتى لو لم يكن بإمكاننا فهم ذلك.

إن وسام على يقين الآن أن الهجرة عبر القارات لم تكن الطريقة الصحيحة للنجاة من الموت، وأنه في كل مكان من هذا العالم سيخوض حربه الخاصة وأنه سيتجول دوماً بقلب مثقوب وسيغرق لتلكمه الحياة من جديد في منتصف وجهه كي يصحو، هذا إن كان محظوظاً.

لكن ألم ينجو أكثر من مرة من الموت، أليس بإمكانه أن ينجو اليوم أيضاً.

خارت قواه فجأة وما عاد قادراً على مقاومة الماء أكثر، بات يشعر أن ساقيه أثقل من أن يكون قادراً على تحريكهما، جال بعينيه بسرعة عبر الموج الرمادي باحثاً هذه المرة عن سترة نجاته... عن ناي.

على الرغم من الماء الذي كان يملأ أذنيه بصدى غريب كأنه يسكن صدفة، إلا أنه استطاع أن يسمع قرع كعنها الخمري على زفت الشارع العريض بالقرب من منزله. امرأة بصفيرة نحاسية طويلة تدلى على كفها الأيسر والذي تزيد من مهامه أيضاً بحقيبة تتلاءم مع لون حذائها، مرتدية تنورة تغطي ركبتيها تماماً أما قصبتها ساقها الناعمتين فتتواريان خلف جورب أسود شفاف قليلاً.

إنها امرأة تبدو وكأنها تهتم بالوصول إلى مؤتمر صحفي أو ندوة شعبية أو معرض فني، أما عقلها فيبدو في مكان آخر تماماً، ومع أنها لاحظت مرور وسام أمامها وتلاقت أعينهما إلا أنها سرعان ما سمرت نظرها عند نقطة

تلاقي قدميها، وإن ارتفاع صوت الرصاص في الأجواء زاد من سرعة خطواتها .

وعلى الرغم من أن الصوت يبدو بعيداً إلا أنك كمواطن سوري لا يمكنك إلا أن تكون حذراً حذر العصافير، فالعصفور سيظهر حتماً إن أحس بوجود صياد في الجوار فإن أخطائه الرصاصة الأولى فهذا لا يعني أنه سينجو من الثانية .

يلبل وسام شفتيه المالحتين واللتين تجعدتا بطريقة لزجة، يلمس تشققاتها بأصابعه ثم يعيد يده إلى الماء من جديد وهو مستلقٍ على ظهره مغمض العينين وبحركة واحدة يشعر أن الموجة قد تحولت إلى ذلك الشارع العريض ذاته . أما الملمس الناعم والبارد للماء فتحول إلى ملمس خشن من الحصى على خده، وهو مستلقٍ على الرصيف فوق جسد تلك الفتاة ذات الكعب العالي ليحميها من شظايا قذيفة قد وقعت بالقرب منها .

ما الذي قد دفعه للمخاطرة بنفسه ذلك الحين لينقذ فتاة لا يعرف عنها شيئاً، هل هي رغبة دفينية للظهور بشكل بطولي لإثارة إعجابها، أم أنه مجرد رد فعل لم يحسب أبعاده بشكل جيد ؟

على الرغم من أنه هو الذي أنقذها ذلك اليوم إلا أنه عندما حدّق في عينيها شعر أنها متقذّرة .

وكان خطورة الموقف وحدها مع هذا الرجل هي من تجعله يذعن للترتيب الصحيح للأشخاص في حياته، وهذا يجعل منه رجلاً شديد الخطورة ليس على الآخرين فحسب بل على نفسه أيضاً .

إنه رجل ليس بإمكانه تقبل وجود فرشاة أسنان إضافية بشكل دائم على مغسلته، أو وسادة ثانية على سريره، أو فطوراً محضراً بأطباق متماثلة تكفي لأكثر من شخص واحد .

إن الاستوديو الذي يقطنه كان مُعداً لطرد أي امرأة تفكر بالمشاركة الحقيقية، كل أثاثه يخبرهن أنهن في زيارة قصيرة جداً، لا تتجاوز طول نشوة تناولها مع شخص لا تحبه .

وفي أوقات لم يكن يراها إلا لحظات ضعف سمح لنأي أن تغزو عالمه، أن تستبدل أكواب القهوة الورقية السريعة بفناجين خزفية متماثلة، وأن يصبح لها رقم سريع على هاتفه الأرضي الذي بات يستخدمه في مكالمات تتجاوز

الخمس دقائق بكثير ليطمئن بها على سير يومها العادي.

هو الذي قد لا يهتم في كثير من الأحيان بمعرفة اسم المرأة التي يشاركها سريره الفردي ذي الوسادة الوحيدة.

لكن هذا لا يعني أنه كان كذلك مع جميع النساء اللواتي صادفهن، فقد كان في حياته نوعان من النساء.

النوع الذي لا يبذل أدنى جهد لمعرفة أي شيء بشأنهن وهذا النوع يحتاج للكثير من أكواب العرق ليسمح لهن بالمرور عبره بحيث ينساهن قبل بزوغ الفجر التالي هذا إن علق في ذهنه أي تفصيل يخصهن.

أما النوع الآخر فقد كان يستخدم كل صحوته بحضورهن، وكأنه يقوم بدراستهن بفحص قلوبهن ومشاعرهن عن قرب دون أن يخاطر بشعور قد ينساب منه دون وعي.

إن النوع الآخر هو الذي جعله على دراية بأهواء الفتيات...

لقد كان يستطيع التقرب بنجاح من كل الأنماط النسائية، على الرغم من أن اختصار إنسان ما بنمط واحد ينطوي على شيء من السذاجة وضيق الأفق إلا أنه كان يحاول اكتشاف أكثر الصفات بروزاً ليتعامل مع صاحبها على هذا الأساس.

النساء الحسنات كن الأسهل منالاً بالنسبة إليه، فهو يعلم أنه عليه أن يوقظ الحسنة النائمة بالتقائه لذكائها المفترض أو لخصالها الدمة ليجعلها تعتقد وأنه للمرة الأولى في حياتها هنالك شخص استطاع تقدير ما لم تنل عليه التقدير يوماً، وبالثناء وحده قد تستسلم لغواية اكتشاف جمالٍ أعمق داخلها وستعط حينها بحب عميق.

ماذا عن المرأة الخجولة المتحفظة جداً؟ لقد كان يتصيد هذا النمط من النساء كنوع من التحديات السريعة، إن لديه طريقة واحدة لم يصدف أن خبيت آماله لإخراج هذه المرأة من قوقعتها محاولاً الظهور أمامها بأعلى مستويات من التحرر والانفتاح، فقد كان لديه يقين أنها ستجذب حتماً لتقيضها الذي يعيش حياة فائقة السعادة بنظرها والذي سيكون السبيل الوحيد للخروج من قوقعتها وبذلك ستشبت بعنقه دونما خجل.

لم تفلت من يده يوماً امرأة بما في ذلك الذكية المتفوقة، إنها دليل مؤكد على كفاءته في جمع كل قطعه الفنية دونما

استثناء، كل ما كان عليه فعله أن يبدو بمستوى مناسب من الذكاء أمامها بحيث لا ينفرها بضحالة فكره محاولاً ألا يثير فيها رغبة التنافس بمستويات دهاء أعلى من المطلوب، مع ضرورة إشباعه لحسّها الجمالي الخاص.

فالنساء لا يتساهلن بعدم تقدير جمالهن مهما كان ذكاً وهن مملقاً، وقد يجعلن الرجل يدفع ثمنًا غالياً إثر ذلك، إنه نوع من العذاب اللذيذ الذي تستطيع النساء وحدهن ابتكاره.

لكن عليهن أن يكنّ حذرات في ذلك، ففائضٌ قليلٌ من الجمال سيحول العذاب اللذيذ إلى ألم خالص خلّاقٍ للتحدي عند أي رجل، وإن هذا قد يحول امرأة شهية إلى عدو مرتقب يتحين الرجل اللحظة المناسبة للإيقاع به.

هنالك ألف طريقة لدى وسام للتعامل مع المرأة الحزينة، والمرأة الضحية والمرأة المرتابة، والمرأة اللعوب، والمرأة التي تملك كل شيء وتلك التي فقدت كل شيء.

وقد كان من اللقاء الأول قادراً على تحديد الوقت اللازم للإيقاع بها.

فعقدة ذراعها تخبره أن الوقت سيكون طويلاً، وأنه يحتاج حديثاً مثيراً للاهتمام كي تطمئن وتبدأ بفك عقدتهما. ملامستها للكوب براحتي كفيها يوحي له بأنه عليه منحها دفئاً وأماناً أكثر.

نظرها المتكرر للساعة سيقوده حتماً لتغيير محور الحديث الذي بدأ يدفعها للملل.

تأخرها عن مواعدها لأكثر من 15 دقيقة ولأقل من نصف ساعة، سيعني غالباً أنها استشارت قبيلة من النساء أفدنها بأن التأخر عن الموعد ضرورة حتمية، وذلك لا يكون بنظره إلا دليل قبول مبدئي فالنساء لا يستشرن بعضهن فيما يخص رجل لا يكثرن لأمره.

أما تلبيتها لموعد آخر معه فما هو إلا نقطة لصالحه، فالمرأة لن تحسّي فنجان قهوة مرّة ثانية مع رجل تمقته على الرغم من أنها قد تقوم بذلك مع امرأة تبغضها.

لقد كان وسام قادراً على نظم كتاب يتجاوز الألف صفحة في هذا المجال، لكنه كان يحتفظ بذلك كله لنفسه ربما لأنه لا يرغب بالمنافسة. لكنه أغفل جانباً شديد الأهمية ربما لا يكون قد انتبه إليه وهو يتصفح كتب روبرت

جرين . . . (أنّ البراءة هي السلاح القاتل للرجل المطارد للنساء) .

أو من الممكن أنه قد انتبه إلى هذه النقطة جيداً، إنما إذعانه لذلك ما هو إلا اعتراف خفي بأنه مجرد مغوٍ متهتك عابر .

لكن حتى توماس ذلك الزير الذي لا يمكن لامرأة أن تكون مرةً بين أسنانه وقع في حب تيريزا، وبالرغم من أن حبه لها لم يجعله أقل تهاكاً إلا أن ميلان كونديرا ذكر في روايته أن حب توماس لتيريزا لم يكن إلا ضرورة حتمية بعد دخولها حيز ذاكرته الشاعرية .

لقد كان وسام يفكر كثيراً بماهية هذه الذاكرة الشاعرية، وقد تصورهما على أنها مجرد حيز في العقل يضم كل الرمزيات التي تجعل الحب ليس ممكناً فحسب بل أمراً ملجأً في الحدوث أيضاً .

وبذلك تكون هذه الذاكرة مكاناً باكسسورات وديكورات لا تقاوم، وبطقوس وألوان وروائح مُعدة خصيصاً للإيقاع بقلبك .

وإن هذه الذاكرة الشاعرية لن تكون ذاتها بالطبع لدى الجميع، فقد تكون لدى البعض مقهى منسياً بإضاءة خافتة تتلاقى فيه أربع عيون حائرة لم تكن تنتظر أحداً .

قد تكون حيزاً صغيراً يشغله شرشف زهات أحمر اللون وقد وضعت عليه سلة قش وزجاجة نبيذ وفطائر محلاة .

قد تكون قبواً ضيقاً لدى البعض حيث ينتظر الجميع أن يتم إنقاذهم منه بعد انهيار البناء إلا شاب وفتاة عقدا اتفاقاً بأن يتواجدا في كل المباني الآخذة بالانهيار .

إن هذه الذاكرة باختصار هي المسرح الأمل الذي تمنينا فيه لقاء من نحب، وليس بالضرورة أن يكون المسرح ساحراً أو متمعاً بظروف فائقة اللطف .

فالذاكرة الشاعرية بالنسبة لوسام لم تكن إلا طريقاً خشناً مصاباً بالحرب كقلبه تماماً، غارقاً بالكثير من الدماء

مجهولة المصدر، أما الرائحة الطاغية في أجوائه لم تكن رائحة زهور أو عطور أو شموع. . . إنما بارود، في حين أن الطقس الغائم كان قد غطس ذلك المكان بلون رمادي.

قد تكون هذه الذاكرة مكاناً اعتدنا التواجد فيه دائماً كذلك الاستوديو الصغير الذي يقطنه وسام منذ عدة أعوام لكنه وبدقائق أصبح أوسع وأطهر عندما مسح بالمعقم ركة تلك الفتاة التي بدت أنها ذاهبة لموعدي . . . حيث كانت جالسة وهي تشدُّ تنورتها نحو الأسفل لتخفي جلدها الذي كان يطل من القماش الشفاف الممزق، وقد كان النور شحيحاً يصدر عن شمعتين فقط إحداهما على وشك الإنطفاء، والتي كانت تصدر لهيباً عشوائياً مائلاً إلى السواد .

وبذلك تكون الذاكرة الشاعرية مكاناً قطناه لفترة طويلة دون أن ندري، والذي بدأ يأخذ ألواناً أكثر إنعاشاً ودقاً في آنٍ معاً، كضوء التلفاز في غرفة عاتمة وهو ينعكس على وجهي وسام وناي وهما يتناولان البوشار ويتابعان فيلمهما المفضل، أو كجدران الغرفة التي تغيرت بسبب إضافتها ستائر بلون مختلف .

قد تغزو ذلك المكان روائح جديدة أيضاً، كرائحة حساء الدجاج الذي تحضره ناي عندما يكون وسام مريضاً، ورائحة مسحوق تنظيف تنشقه وهو يرتدي ثيابه النظيفة .

للسوائل حصة في ذلك أيضاً، كشراب الورد الذي عبأته في زجاجات شفافة متعركة، أو كدموعه التي كان يذرفها على صدرها عندما كان يحدثها عن والده .

لم تكن دموعه مجرد حزن على شخص غاب عن هذه الحياة، بل كانت دموع خوف أيضاً من أن يكون مثله، أن يكون إنساناً عاجزاً عن الحركة والتعبير والانتقام، وعلى الرغم من أن اعترافه بذلك كان يريجه إلا أن هذه الراحة المحرمة كانت تقض مضجعه، وقد بات يخشاها لظنه أنه أصبح بظهر مكشوف أمامها .

كان يشعر أن حياته مجرد كرة صوفية وصلت ناي إلى نهاية خيطها وهذا يعني أنها ستصل إلى البداية حتماً .
لم يكن باستطاعته أن يخبرها أنه غير قادر على منحها طفلاً، فلو سمح بذلك لن يضع في أحشائها إلا الطفل الذي كان عليه في الماضي والذي لا يرغب بأن يتذكره أبداً .

لقد كان يملكه شعور بالعجز أمامها وانعدام كلي للشهوة، وبعد العديد من القبل على شفاهها كان يتأبه قلق حقيقي فيما يخص فحوله ولذلك كان يجد مبرراً ملحاً وضرورياً لخياناته المتكررة.

إنه يطمئن أن الأمور تسير على ما يرام ولذلك لم يتوقف عن مضاجعة النساء يوماً بوجود ناي في حياته إلا أنه كان يقوم بذلك في مكان بعيد جداً عن ذاكرته الشاعرية.

لقد كان يمارس ذلك فقط بغية الممارسة، إنه يستهلك الأخريات اللاتي يستهلكه بدورهن ولذلك كان يشعر بالخواء الدائم.

فلو كان هنالك شخصان يشتركان على دلو ماء بحيث يأخذ كل منهما حاجته دون ملئه فمن الطبيعي أن يفرغ ذلك الدلو يوماً ما لكن ما الذي قد يحصل عندما يسكب كل منهما قليلاً من الماء لأجل الآخر؟ هذا ما قد يميز ممارسة الجنس عن ممارسة العاطفة.

إن من يشاركك جسده فقط لن يكثر لأن يتناول معك الذرة الساخنة في الطرقات ليلاً، ولن يمسح وجهك بوردة عند الاستيقاظ، لن يهتم لتفسير بريق عينيك، فحزنك وسعادتك لن يعنياه كثيراً.

إنها تفاصيل لن يهتم بها إلا من يحبك حقاً، شخص لن يقودك للتفكير بأنك تستهلكه ويستهلكك.

لقد كان جسد وسام في ذلك الأزرق الداكن والعميق جداً يتأرجح بين قوتين، وبطريقة ما شعر أن هاتين القوتين هما إلا امرأتين.

امرأة تشده نحو الأسفل والثانية تدفعه نحو الأعلى، إحداها تشده نحو اليمين والأخرى نحو اليسار.

رباه كم كان يشعر بالكراهة تجاه تلك المرأة الأولى، لكنه لم يكن يدري أن كراهه لها وحده هو الذي يجعله تحت رحمته.

لقد كان يكره الطريقة التي تمسك فيها سيجارتها في الصباح الباكر دون أن تكترث لرثيته الصغيرتين، وذلك الصوت المزعج الذي تصدره عند ارتشافها الشاي.

لقد كان يكره أيضاً صوت رنين الأساور الذهبية في رسغها الأيمن، وبالرغم من ذلك كان يعتبرها إشارة للهروب منها لسبب واحد فحسب هو أنه كان يتجنب دومًا النظر في عينيها .

إنه يكره الطريقة التي تمضغ فيها اللبان، كما يكره عدم مسكها ليدته وهو يجتاز الشارع.

يكره حديثها الذي لا توجهه إليه، وأنه لا يشكل نقطة فاصلة في حياتها يمكن أن تتوقف عندها إلى الأبد .

وإن كرهه لهذه المرأة الأولى جعله يفلت من بين يدي ناي ومن أي امرأة قد تحبه بصدق.

هنالك دومًا امرأة مميزة في حياة كل رجل قد تحدد طبيعة علاقاته بكل النساء من بعدها حتى لو لم تقصد هي ذلك، بل ودون أن يشعر هو بالأمر كله.

وإن هذه المرأة تكون شديدة الخطورة على من يليها من نساء في حال امتلكت القدرة على جعل الرجل سعيدًا جدًا أو تعيشًا جدًا، فامرأة كهذه لا ترضى بالحدود الوسطى.

لكنها في كل الأحوال ستجعل الرجل شديد الحذر في اختيار من بعدها، إما لأنه خائف من تكرارها أو...
الأسوأ من عدم تكرارها .

بعد امرأة كهذه قد يتوقف الرجل عن التوق الحقيقي للنساء، وإن حصل ذلك سيشعر أنه مهدد في كل لحظة.

كانت تلك الخيالات الأخيرة التي فكر بها وسام قبل أن يفقد الوعي وهو محاط بقناديل البحر البراقة.

وعلى الرغم من أن المنظر قد يبدو ساحرًا لشخص ينظر من الأعلى كأنه سجادة كريستالية لامعة تتهادى على الموج الأزرق إلا أن المظاهر خادعة، فما يبدو صافيًا متماسكًا لامعًا وجذابًا قد يشبعك لساعات مؤلمة، وأحيانًا قاتلة.

لله اللحن الرابع لله

متلازمة (علبة البسكويت)

كان البدر يهرب بسرعة بين الغيوم الكثيفة القائمة ليلتمع مترقفاً على صفحة المياه، مما منح ناي رؤيةً شبه واضحة لما حولها فبدأت بتحريك ساقها بهدوء بحركة تشبه حركة المقص، فإن آخر ما ترغب به أن تثير انتباه أو شهية أي كائن في الأعماق.

في هذه الليلة كان ينبغي لناي أن تحتفل بعيد ميلادها ولم توقع أن تكون هديتها مركباً مطاطياً مثقوباً .
في الأحوال العادية كانت تجتمع مع عدد قليل من أصدقائها وتشاركهم قالباً دائرياً مغلفاً بطبقة سميكة من الكريمة البيضاء حصراً .

لقد كانت في حقيقة الأمر مُنجذبة إلى أصل الاحتفال بأعياد الميلاد المستمدة من الإغريقين الذين كانوا يُقدّمون قوالب مُضاءة بالشموع كقران إلى آلهة القمر (آرتميس) . كانت تتخيل ملاحهم المشبعة بالخشوع وهم يُشعلون الشموع واحدةً تلو الأخرى ليصبح القالب الدائري متوهجاً ودافئاً كوجه إلهتهم، أما البخور المتصاعد من الشموع المنطفئة فسيحمل أمانهم حتمًا إلى آرتميس التي قد تحققها لهم يوماً ما .

وبذلك يكون ثمن الأمنية حفنةً من الطحين والسكر، نصف كوب من الزبدة، عدة بيضات، قطرات من الفانيليا، قليل من قشر البرتقال ومسحوق أبيض سحري يصبح رغويًا كريمة عند خفقه لعدة دقائق، والأهم من ذلك كله زفرة طويلة واحدة تخص صاحب عيد الميلاد بحيث تختلط أنفاسه بالبخور وتصل إلى السماء لتداعب خصل شعر آرتميس، فتصبح الأمنية محققة .

ترى متى بدأ البشر بتقديم الهدايا لبعضهم البعض احتفاءً بأعياد الميلاد الشخصية؟

ربما فعلوا ذلك عندما تيقنوا أن آرتميس لن تحقق أمانهم بعد اليوم، وبذلك أصبح الأصدقاء يقدمون هدايا مغلفة

بورقٍ مزركشٍ وشرايط ملونة كجائزة ترضية لأمنية غير محققة.

باتوا يقدمون الساعات لأن آرتميس لم تُصغ لأمنية العمر المديد فقد كانت تداعب نمرًا حديث الولادة في الغابة، ويتهادون الكتب لأن آلهة الأمنيات كانت تتجول مع حورياتها بعربتها الفضية وبذلك لم تعطِ بالاً لأمنية إنسان ما بالحكمة، أما العطور فكانت البديل لرائحة حبيب لن يصل في الموعد لأن آرتميس كانت مُنشغلة بتحويل أحد المتلصصين إليها أثناء استحمامها في البحيرة إلى ظبي كي تلتهمه الكلاب كعقاب له لانشداهه بجسدها.

عندما يقف الإنسان أمام أمنياته يجد أن جُلها لم تتحقق وربما لن تتحقق أبدًا.

وقد يأتي الوقت الذي تصبح فيه أبسط الحقوق أمنيات، كأن يتمنى المرء ألا يجوع أولاده مثلاً أو ألا يعيش ويموت وحيداً أو أن يجد عملاً ثانياً كي يؤمن كفاف يومه.

بعض الأمنيات غير المحققة تجعل من الإنسان شرساً حاقداً، وبعضها تجعله مستسلماً خائفاً، وفي الكثير من الأحيان قد تؤدي بحياته.

في كل مرة تنقذ ناي شموع أمنياتها تجدها كثيرة جداً

فعندما كانت في التاسعة من عمرها تمت ألا يُعتف والدها والدتها، أن يتوقف عن رميها بكل ما قد يقع تحت يديه وأن تحتفي الكدمات الخضراء والزرقاء من على جسدها.

كانت تتمنى أن تستطيع والدتها حضور تكميمها في المدرسة دون شفة مشقوقة أو عين متورمة، مما سيتيح لنادي الابتسام أمام الكاميرا دون أي حاجة لابتكار كذبة لأصدقائها كوقوع والدتها عن الدرج في الليلة السابقة أو تعثرها بحجر لأن أطفال القرية الأشقياء قد كسروا المصباح الوحيد الذي يضيء الشارع.

وفي عيد ميلادها العاشر تمت موت والدها.

كثُر هم الأطفال الذين تمنوا في لحظات أن يفقدوا آبائهم، إلا أن هذه ليست أمنيتهم الحقيقية.

أمنيتهم الحقيقية هي أن يموت الغضب، وأن يتوقف العنف الجسدي، وأن يعم الدفء والمحبة جو أسرهم.

عندما بلغت الحادية عشر من عمرها تراجعت عن أمنية العام السابق .

في ذلك العام تحديدًا تعرض والدها لعمل جراحي، كانت تسمع أبنه للمرة الأولى يتردد في ردهات المشفى عندما بدأ مفعول التخدير بالزوال .

كان يستلقي بضعفه وألمه على السرير الأبيض حيث تخرج أنابيب كثيرة من جسده . لمست ناي حينها يده ثم عانقه طويلًا على أمل أن تتلاشى ملامحه الضعيفة الغارقة بالرجاء واستجداء الحب، ويا للغرابة كل ما كان يعينها ذلك الوقت أن يعود والدها قويًا قاسيًا كما كان تمامًا .

كان ذلك العناق الوحيد الذي قد جمعها بوالدها .

في الرابعة عشر تمت أن تشفى والدتها من ذلك المرض الغريب الذي أصابها والذي حولها من أم إلى طفلة لتلاحقها ناي من مكان لآخر .

في الثامنة عشر تحققت تلك الأمنية التي طالبت بها قبل ثماني سنوات، وبطريقة غريبة تعافت والدتها تمامًا .

في الحادية والعشرين ملأت رائحة القالب الساخن المخبوز حديثًا الاستديو الخاص بوسام، ولأن الصدفة جعلتهما يتشاركان بذات يوم الميلاد زينا القالب الخاص بهما معًا ووضعًا شمعة واحدة حمل بخورها الرقيق أمنية ناي فقط (أن تحيط السعادة قلوبهما إلى الأبد) .

أما ذهن وسام فكان خاليًا تمامًا من الأمنيات، فقد كانت المرة الأولى التي يحتفل أحدهم بذكرى وجوده في هذا العالم . . . إن هذه الفكرة أخافته وأقلقته واستحوذت على عقله .

وعلى عكس ناي التي كانت تحتفظ دومًا ببقايا الشموع ألقى هو تلك الشمعة اليتيمة بعد أن كسرهما إلى نصفين كي لا تعود صالحة لأي شيء، تمامًا مثل قلبه .

في الثانية والعشرين تمت ناي دون قالب حلوى أو شمعة واحدة لو لم تتركها والدتها وحيدة .

إن بقاءنا وحيدين يثير داخلنا ضعفًا من نوع خاص، هذا الضعف قد يقودنا بطريقة ما لاستجداء أشخاص قاموا

بجذلانا .

في لحظات الحزن الشديدة قد يرغب المرء بعناق أعدائه، لكن لا يمكنك الاعتماد على شهامة عدو أو حبيب سابق، فالضعف والحزن لن يثيرا لديه إلا الضحك أو الشماتة وفي أفضل الأحوال الشفقة .

كانت ناي تُذكر نفسها بذلك قبل أي محاولة منها للتواصل مع وسام عندما يتم اقتراحه الكترونياً كصديق مفترض .

تلقت خبر وفاة والدتها وحدها، ودون أي عزاء من أحد وخرجت من مصابها، لقد كانت وحيدة تماماً لكنها نجت، ووقفت في وجه عمها الذي قرر أنه من الأفضل لها أن تتخلى عن شهادتها لتتزوج أحد أبنائه وبذلك يحصل هو على الحصة الكبرى من حقل البرتقال والمنزل، إضافة لذهب يمكن أن تكون ناي قد أخفت جزءاً كبيراً منه .

حتى ابنة خالتها والتي كانت ناي مؤمنة بصدق نواياها تجاهها شجعتهما للقبول بهذه الخطوبة السريعة والتي ستعود عليها بمنفعة لا يمكن إنكارها هي (الأ تبقى وحيدة)، في حوارهما الأخير قالت لها:

الجمال والذكاء والقوة، إن هذا هو المزيج الأسوأ الذي قد يرغب به أي رجل رغم أنهم يُدلون دوماً بآراء مناقضة لذلك .

إن امرأة كهذه ستكون مُنفرة بطريقة غريبة، من ذا الذي سيرغب بأن يشعر أنك لست بحاجة ماسة لتسكي عليه، وأنك لست بحاجة لاستشارته في كل خطوات حياتك .

إن الرجال يهربون عندما يشعرون أنه ما من مغزى لوجودهم، فقد تربوا على أن وجودهم وحده يجعل الأمور أفضل وأقرب للكمال، إنهم يستمتعون بتحقيق ذلك من أجلك .

أجابتها ناي بابتسامة مائلة:

أضيفي إلى مزيج القوة والذكاء والجمال رشّة من الحساسية المضاعفة ليصبح المزيج أكثر سوءاً .

إنني أعلم أن هذ المزيج منفر وإنني أظهره عن سبق الإصرار والتصميم، لأنني على يقين أن الرجل المناسب لن

يرغب به فحسب بل سيحارب من أجله، حينها بإمكانني الاتكاء على كفه بسلام.

لست بحاجة لأكون أضعف أو بقدرات عقلية أقل لتكون فرصي بالزواج أكبر، فأنا لا أرغب بفرص كثيرة إنما بفرصة محددة مختارة بدقة لا مجرد خيار عشوائي لأحد كان من الممكن أن يختارني أو أن يختار أي امرأة غيري. أنا لا أرغب بأن أكون مجرد امرأة في الظلام، أو أن أكون مع رجل يحاول إخفائي بكل ما أوتي من قوة، أو أن يشعر بالدونية أمامي فيحاول تحطيمي.

ولن أنجب أبداً أبناء يرثون عن أبيهم الرغبة بإخفائي، أبناء قد يشطبون اسمي من شهاداتهم كأنه عيب لا يستحق الظهور الفخري.

ـ ووجودك مع وسام حقق لك ذلك؟

ـ لا لم يفعل، ولذلك انسحبت من تلك العلاقة وسأنسحب من كل علاقة غير مجدية، لكنني لن أستسلم أبداً.

التهمت ناي قضة من البسكويت ثم أشارت إلى العلة أمامها:

(لا يمكن لإنسان أن يُحبط من الجنس الآخر بسبب تجربة واحدة فاشلة، إنني أطلق على ذلك اسم "متلازمة علة البسكويت")

ربما اعتدت أن تجدي مجموعة من الإبر الصدئة والأزرار القديمة في علة معدنية زاهية الألوان كان من المفترض أن تحتوي قطعاً من البسكويت المقرمش والمرشوش ببلورات سكرية والمغلف بورق الزبدة، لكن ذلك لا يعني أن كل العلب ستحتوي حتماً على خيطان متشابكة ومقصات حادة، فهذه العلب تم صنعها لاحتضان البسكويت اللذيذ منذ البداية).

قدمت ناي لابنة خالتها قطعة بسكويت إضافية ثم غمزتها، وكان ذلك اللقاء الأخير بينهما.

أما الآن فهي تسبح في ماء لا تعرف لها نهاية، تسمع بين الفينة والأخرى أصواتاً مريبةً أو ربما يخيل إليها ذلك.

لو كان بإمكانها أن تغلق أذنيها لفعلت، لكن الأمر غير ممكن فكانت تستعيض عن ذلك بإغلاق عينيها جيداً

مقدمةً بسرعة أكبر.

إن الذي يجعلها تندفع في الماء بانسيابية . . . شعور غريب، إنه مناقض تمامًا لكل ما كان يتأبها في الفترة الماضية. لقد شعرت للمرة الأولى أنها ليست وحيدة أبدًا، إن أمها ترافقها هنا بين الأمواج تصفق لها بجناحها البسيط المعتاد، حتى والدها كان يشدُّ على قبضته ويurm شفتيه ليخبرها أنها ستصل دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ومشمش الصغير كان يموء أمامها كي تتبعه، أما آرتميس فتلوح لها بحب كبير.

الإنسان قد يكون أحياناً كل ما قد فقده.

إن ذلك كله جعلها تتقدم في الماء كأنها حورية لم تمشِ على قدمين قط.

١١١١ اللحن الخامس ١١١١

إنسان برتبة نجم بحر

لكل طفل دميته المفضلة التي ظنّ طيلة طفولته أنه بامتلاكها سيصبح أسعد طفل في العالم.

قد تكون هذه اللعبة سكة قطار طويلة، أو حلبة سيارات أو دراجة، أو دمية ناطقة.

كل ما كان يشغل أيل منذ ذلك اليوم الذي رأت فيه بيت الدمى في منزل إحدى قريباتها أن تحصل على بيت مماثل.

كان بيتًا بطاقتين.

في الطابق العلوي يتلألأ مصباح لامع بالقرب من سرير مخملي واسع ذي غطاء مُحلى بقطف من الدانتيل السميك، وبجانبه مرآة مزودة بالعديد من الأدراج والتي فتشتها بكل حذر لتجد فيها مشطاً ومُجفف شعر بلاستيكي ودسته من المناشف الصغيرة المطوية بعناية، والعديد من علب العطر فائقة الصغر وعلبة مساحيق تجميل ملونة وقلم شفاه أحمر اللون.

حاولت ذلك اليوم أن تنظر في المرآة طويلاً أثناء إمساكها بأحمر الشفاه لكنها لم تتمكن من رؤية وجهها المعتاد بل كان وجهها مشوهاً بطريقة غريبة وموجاً.

كان لقرببتها أن تتحمل أي شيء إلا أن تتجاسر أيل وتمسك قلم أحمر الشفاه وتمرره على شفتيها، فأخذته منها بسرعة، ولم تبادر أيل بأي رد فعل حاد فسرعان ما أذعنت أنه ليس بإمكانها المطالبة بالكثير ولذلك انتقلت للعب بالمكتبة المثبتة في الطابق السفلي قريباً من المدفأة المتوهجة بلون برتقالي وحركت بإصبعها كرسي الخيزران الموضوع أمام المدفأة على سجادة لا يتجاوز طولها نصف منديل إنما مُحَاكَة بدقة وذات ألوان زاهية.

ولكن ذلك أثار امتعاض الطفلة صاحبة البيت أيضاً، فوضعت كرسي الخيزران داخل الحمام بجانب المغسلة في

الطابق العلوي، ولم تستطع أيل أن تخبرها أنه لا يمكن لكرسي هزاز أن يوضع في الحمام ولكنها تقبلت عن طيب خاطر الفستان الأبيض الذي سرعان ما اكتشفت أن تلك الطفلة ما كانت لتتحلى عنه إلا لأنه ممزق وملوث بطريقة منفرة.

فتحت أيل عينيها وهي تحلم بتلك الحادثة التي تعود لزمان بعيد جداً، واستغرقت فترة من الزمن قبل أن تدرك أنها تغفو على بطنها _وليس على سريرها الواسع المنجد بمخمل خمري_ إنما على رمال ندية بقيت عالقة بجذها وحاجبها الأيسر عندما جلست لتفحص ما حولها.

كانت ثيابها ثقيلة بفعل الماء الذي تشربته، فوجدت صعوبة في النهوض وعندما تمكنت من ذلك قامت بإزالة الرمل عن وجهها الذي اصطبغ بحمرة قوية نتيجة احتكاك الحبيبات الدقيقة بشرتها الناعمة وجالت بعينها في المكان.

لا يوجد إلا حركة طفيفة على هذا الشاطئ تمثل بعض السرطانات الصغيرة التي تتحرك بشكل جانبي كأنها تفصح المجال لكائنات غير مرئية بالمرور.

ماذا لو كانت الناجية الوحيدة من هذه الرحلة، كيف بإمكانها متابعة المسير أو معرفة محطاتها التالية، وهل من الممكن ألا يكون هذا المكان مأهولاً إلا بسرطانات البحر والقشريات الأخرى!

انتصبت على صخرة كبيرة ووضعت كفها الأيمن لتحمي عينيها من وهج شمس حادة قليلاً مقارنة بطقس الليلة الماضية ونظرت في كل الاتجاهات لكن دون أن ترى أي حركة بشرية في الجوار، وقد كانت تستعد لتصرخ (هل من أحد هنا؟) لكنها لم تفعل.

عادت إلى الخط الرملي الموازي لماء البحر وقامت بنفض ثيابها من البقايا الرملية وغسلت شعرها الذي تحلته بعض الأعشاب البحرية، كان يكفي أن تميل قليلاً إلى الأمام ليُغمَر نصف شعرها بالماء. وبعد أن انتهت من ذلك تأكدت من ضبط وشاحها حول عنقها بشكل جيد وحاولت عصر بعض ثيابها ثم بدأت بالبحث عن حقيبة الكنف الخاصة بها. إن هذه الحقيبة تحتوي على ولاعة وستكون محظوظة جداً إن وجدتتها، فهذا يعني أنه

بإمكانها أن تضرم النار في بعض الأغصان الجافة إن اضطرت لقضاء الليلة هنا، كما بإمكانها أن تشعل سيجارة إلا أن ذلك يعتمد على مدى متانة الغلاف البلاستيكي الذي يحتويها .

لم يكن بإمكانها تقدير الوقت بشكل جيد لكن لا بدّ أنه قد مرّت عدة ساعات على وجودها هنا ووقتاً غير قليل في رحلة بحثها .

كل ما وجدته حتى الآن فردة حذاء ضائعة، كرة مثقوبة، وعلبة سردين فارغة، ونجم بحر والكثير من الأصداق .
أثار نجم البحر البرتقالي الضخم فضولها، هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها نجم بحر لكن قصي كان قد حدثها كثيراً عنه وعن قدرته المذهلة في تحديد أطرافه المبتورة كأنها لم تُبرّ يوماً .

"ليس بالضرورة أن يكون الكائن سريعاً لينجو، أو أن يكون مزوداً بأنياب حادة أو أسنان طاحنة، بل يكفي أن يكون قادراً على تجديد نفسه وذلك لا ينطبق على نجم البحر وحده" . كانت كلماته تتردد في ذهنها .

ماذا لو كان بإمكاننا جميعاً أن نكون نجوم بحر؟

أن تعود الأيدي المبتورة كاملة بكهوف نابضة وأصابع قادرة على الحركة، وأن تتمكن الساقين من الانطلاق مع الريح بعيداً عن العكازات والكراسي المتحركة .

وأن تختفي ندوب الجسد كاملة كأنها لم تكن، وأن تختفي معها الحروق التي خلفتها عقائب السجائر وقطرات حمض الكبريت .

وفي نهاية أمانيتها كانت أيل تحجل دوماً لأن تشير إلى وجه قصي، ولذلك كانت تمنى التأم وجهه دون أن تبوح له بذلك .

لكن قصي كان يفهم ومن نظرة واحدة أن أيل تشمله بأمنيتها التي تلي حديثهم عن نجم البحر ولو سرّاً، فكان يعقب أن الترميم والنمو لا يشمل الجسد فقط بل يشمل القلب والروح أيضاً .

ـ يكفي أن يمتلك الإنسان القدرة على ترميم ثقب روحه الناتجة عن رميها بالكلمات الجارحة .

فتجيبه أيل: لا ينجح الإنسان دومًا في ذلك، فالأمر لا يمكن أن يقتصر على الكلمات الجارحة، إن هنالك أفعالاً جارحة بل وقاتلة أحياناً .

يردّ قصي بثقة:

يمكن لأي أحد أن ينجو، لكن ليس أي امرئ قادر على أن يكون إنساناً برتبة نجم بحر .

كانت تلك الكلمات تخرج من فمه حاسمة، ناجية من اللأثاة التي تُداهم على حين غرة بعض حروفه .

ما لبثت الشمس أن اختفت خلف الغيوم، فبدأت أسنان أيل بالاصطكاك ببعضها ولامست ذراعها اليسرى بيدها اليمنى لتبث في أوصالها قليلاً من الدفء .

وحدها ذكرى قصي قد تجعلها أكثر دفئاً .

كانت قد تعرفت إلى قصي في إحدى الجمعيات الخيرية، حيث كان هو من أطلق عليها اسم (أغمض لثرى) .

لم يكن من الصعب معرفة سبب اختياره لهذا الاسم، فهو مكان لرعاية الأطفال فاقد البصر .

كانت معجبة بجهوده الخارقة في تسجيل الكتب الصوتية والمسرحيات والروايات العالمية بنبرة صوته المميزة لعرضها في النشاطات الأسبوعية للأطفال .

هنالك سحر خاص في الروايات والكتب المسموعة لأنها تحفز خيالاتك الخاصة، تجعلك ترتدي وجوه الشخصيات التي أحببتها والتي تصبح ملائمة لك كلما كان الصوت أكثر قدرةً على تحديد هوية هذه الشخصيات، وهذا ما كان يتقنه قصي جيداً .

كان صوته ينخفض تارة ويرتفع تارة دون أن يخدش أذنها، يصبح دافئاً ناعماً كالكشمير إن كانت الشخصية عاشقة، وعميقاً كأنه يتردد في كهف مظلم إن كان الحدث غامضاً بحيث يثير التشعيرية في جسد أيل التي تشعر وكأن قطرات الماء في ذلك الكهف بدأت بالتساقط أسفل ظهرها .

كانت تثني أصابع قدميها عندما يحدثها عن القصور الواسعة فتستحضر بخيالها برودة الرخام اللاسعة، وعندما

كانت الأحداث تدور بالقرب من محطة قطارات كان يشوش ضوء القطار الساطع المتلألئ في الضباب بصرها، وتسمع صوت صفيره وضجيج عجلاته على السكة بأذنيها .

كانت تشعر بارتظام صدى الأوبرا بصدرها عندما تكون البطلة مغنية أوبرالية، وبانكماش صدغيها من الداخل عندما يجبرها قصي عن ألم في رأس إحدى الشخصيات، وبرائحة الجلد الناعم لطفل عض بقواطعه الصغيرة قطعة مارشملو، وتضع كفها أمام وجهها لتحميه من قطرات متناثرة من كلب ينفض نفسه بعد الخروج من بركة ماء .

لقد كانت قريبة من كل الشخصيات بحيث تستطيع تحديد درجة سمة بشرتها ونمش خديها . تشعر بأنفاسها وتسمع لهاثها ووقع أقدامها الهاربة على الطرقات، وصولاً إلى صوت الخطوة الأخيرة قبل التعثر بقليل .

حتى أنها كانت تبكي الشخصيات التي تُقتل فيعزيها هو بثوانٍ من صمته، لا سيما تلك التي تموت في مراحل متأخرة من الرواية، فالشخصيات التي يفقدها القارئ في البداية لا تثير تعاطفه إنما فضوله .

أما دموع القارئ وآلامه وحسراته فتقاس بمدى معرفته (الحرفية) بالشخصية، حتى لو كان الميت لصاً أو مزور عملات أو حتى خائناً، كل ذلك لا يهم إن استطاع الكاتب أن يظهر جائباً مضيئاً للشخصية بمهارة، وذلك لا يعتمد على تبرير الأفعال الشريرة، بل هي جولة في عقل الشخصية بحيث تظهر جوانبه الإنسانية . . . جماله، صدقه، وشهامته إضافة لحصاله السيئة ليثبت لنا أنه مثلنا تماماً، ولا شيء يعصمنا عن أخطائه سوى اختلاف الظروف . . . ربما .

ماذا لو كان هنالك من يأخذ دور الكاتب الماهر من أجلنا فيعرض كل ما يدور في دواخلنا على الآخرين، أما كانوا غفروا لنا، ووصل الأمر بنا معهم إلى محبة صافية!

كان ذلك يحتل جزءاً كبيراً من أفكار أيل . . . ألا يمكن أن يكون كل ما قد عانت به بمثابة صك غفران يحميها من كل التهم الموجهة إليها ؟

لقد كانت تلبسها حيرة شديدة من تقييم سلوكها ذاته، فهي لا تستطيع إنكار أن لذة غريبة كانت تملكها عند ارتدائها ثيابها أمام زوجها العجوز الملقى على سريريه والعاجز عن الكلام أو الحركة .

كانت ترتدي بنطالها أمامه وقبل أن تغلق سحابه تخلعه من جديد، ثم ترميه على سريريه لتستبدله بتنورة قصيرة ترفعها على جسدها ببطء ثم تقف أمام المرأة آخذةً مسقطاً جانبياً واضعة يدها على خصرها، متأملة جسده العاجز عبر المرأة وهي تلون شفاهها بأحمر فاقع لتشي ركبتها في نهاية الأمر على الشرشف الأبيض وتطبع قبلة على شفاه زوجها المجددة.

لو كان هذا المشهد مُقطّعاً من مسلسل ما لظنّ المشاهدون أنها تقوم بمجلسة إغواء، إلا أن ما تقوم به هو أمر مضادٌ للإغواء تماماً، وبالرغم من أن الإغواء ينطوي بجزء صغير منه على الإغاية إلا أن ما كانت تفعله هو حالة من الإغاية التامة.

كانت أيل تفكُّ أزرار قميصها وتقف بالقرب من رأسه حيث كان بإمكانه أن يتأملها جيداً.

إنه على علم تام بكل تفاصيل هذا الجسد، فبعض تفاصيله من صنعه وحده. كحروق أعقاب السجائر الممتدة على حواف عمودها الفقري على كلا الجانبين... حروق قائمة ومستديرة بحوافٍ مجمدة قليلاً.

كان يتبعها ذلك اليوم عندما ذهبت لزيارة منزل عائلتها في الحي الذي انتشلها منه، وشاهدها في طريق الذهاب وهي تُقلُّ شاباً في سيارتها.

كان ذلك الشاب يجلس إلى جانبها وكانا يتبادلان حديثاً طويلاً لم ينتهِ فور توقف السيارة بل استمرَّ لأكثر من خمس دقائق قبل أن تحرك المفاتيح من جديد مُلوحةً لذلك الشاب تاركة إياه على إحدى الأرصفة قبل أن توجه إلى منزل عائلتها.

انتظر عودتها بفارغ الصبر مشعلاً عدة سجائر مرتباً إياها على حواف المنفضة بحيث كانت الرؤوس المشتعلة موجهة نحو الخارج مشكلة دائرة مشتعلة، كما تشتعل خيانتها المفترضة في قلبه.

إن الخيانة بنظره كانت تعني أنه ليس كافياً، وإن الإنسان لا يؤله شيء في هذا العالم بقدر ألا يكون كافياً.

هو لا يحتمل ولو على سبيل الدعابة أن يكون كذلك بعد كل ما قدمه لها من مال ومنازل وسيارات ووثاب وحُلِي.

عندما أدخلت أيل المفاتيح في الباب ودلفت إلى الصالة وجدته غارقاً في العتمة وضباب السجائر مرتدياً بنطاله القماشي الذي يكشف عن جورب وحذاء جلدي باهظ الثمن والذي تناثرت حوله بعض البقايا المحترقة على السجادة.

ولما كانت تعلم هوسه الشديد بالنظافة والترتيب، فهمت منذ لحظة دخولها أن هنالك أمراً جليلاً استدعى كل هذه الفوضى التي تعم المكان لكن بالرغم من ذلك لم تستطع أن تنجو من بين يديه.

لقد تفنن تلك الليلة في رسم الطريق الذي لا يجب لها أن تسلكه، رسمه على ظهرها سيجارة تلو الأخرى.

لقد كان من الرجال الذي يغضبون بصمت دون أدنى كلمة، أولئك الذين يستغلون كل غضبهم في عنف حقيقي لا بمجرد كلمات صارخة.

أما هي فقد كانت من الفتيات اللواتي يرضخن للإهانة فقط لأنهن لا يملكن خياراً إلا الرضوخ، ولأن كل الخيارات الأخرى كانت ستقودها في النهاية للإهانة.

لم تكن أيل على دراية بالجرم الذي استدعى كل ذلك العقاب، وقد باءت كل صرخاتها ومحاولاتها للهرب بالفشل فهي تقطن في مزرعة بعيدة جداً وهناك مسافة لا تقل عن نصف كيلومتر بين باب الدخول الرئيسي والصالة التي كانت ملقاة فيها على بطنها مُعرّاة من ثوبها ويدها مقيدتان نحو الخلف بسلسلة حديدية.

بعد أن نشر زوجها كل السجائر التي أزت حتى الجمرة الأخيرة على جلدها، اغتصبها بطريقة فضة بحيث احتكت حروقها بزغب السجادة الخشنة التي زادت من آلامها، أما هو فارتسمت على وجهه تكتيرة سيطرة وقوة وغمرته في تلك اللحظة نشوة غريبة لأنه استطاع الحصول على امرأة يرغبها رجال كثير... شيء ما في خيانتها المفترضة جعلها تبدو أشهى في نظره.

بعد أن فرغ منها جلس على الكرسي الأقرب إلى جسدها المرمي على السجادة بحيث كانت قدماه قريبتان من رأسها وسألها عن الشخص الذي أقلته اليوم في سيارتها ولم يكن مقتنعاً بالإجابة الوحيدة التي قدمتها له، إلا أنه تأكد من صدقها بعد ذلك بمخاطبة هاتفية أجراها مع أحد الرجال الذين أرسلهم ليوسعوا ذلك الشاب ضرباً

وأكدوا له هويته بعد تفقد أوراقه الشخصية وتركوه يدمي على رصيف كان من المفترض أن يموت عليه لولا أنهم اكتشفوا أن هذا الشخص يحمل كنيثها ذاتها وما هو إلا أصغر أعمامها .

ولما كانت تلك مجرد توصيلة بريئة لشخص ليس فقط من أقاربها بل من محارمها أيضاً، اختفت تلك النشوة التي راودت الزوج منذ دقائق كأنها لم تكن، ففك وثاقها .

أما أيل فاغتسلت جيداً بالماء فقط، إنها تعلم أن حروقها الطازجة لن تحتل أي سائل تنظيف، كما شعرت أنه مهما غسلت نفسها سيبقى هذا الزوج بتفاصيله عالقاً بها .

ما من سبيل للهرب من رجل يمتلك كل شيء، ولم يكن بوسعها التفكير بخيار الانفصال .

هي تعلم أنها ليست بمواجهة رجل واحد، بل بمواجهة عصابة من الذين يعملون تحت إمرته والذين قد ينهون حياتها بمكالمة هاتفية بعد أن يتمتعوا بإيذاء أخواتها واحدة تلو الأخرى أمامها وأمام أبيها .

لذلك كانت تجلس معه على طاولة المفاوضات وتحاول أن تقتنص منه ما يمكن لها الحصول عليه، فبعد ليلة السجائر مثلاً تمكنت من إكمال دراستها الثانوية، أما إنهاؤها المرحلة الجامعية فكانت بعد اليوم الذي رمى على بطنها قليلاً من حمض الكبريت الذي تناثر ليصل إلى رقبته .

كانت تعلم أنه لا يمانع تشوه جسدها، إنه يحافظ على قشرتها الخارجية سليمة بحيث يمكن لها بأدنى الظروف أن تلفت كل الرجال، لكن ما من أحد غيره سيرغب بذلك الجسد الذي بدأ بالتآكل حرفياً، لأن ما يثيره حقاً ليس الجسد بل القدرة على تملكه واستعباده وتهشيمه متى شاء .

لم تجرب أيل خيائه يوماً إلا أنه بعد أن ارتدى طريح الفراش بعد صراع طويل مع أمراض كهولته كانت تسلى بإغاضته بتمير طيف ولو كاذب من الحيانة أمامه . إنها اليوم بطلة تلك الحالة التي ذكرتها لكم بأنها نقيضة للإغواء .

هي التي تعلم أنه لم يعد يمتلك القدرة على تحريك سبابته ليقوم رجاله بسحلها من شعرها خارج بحر المال الذي سيتركه لها من بعد موته .

انتهى ذلك الموقف الا إغوائي بضحكة ساخرة منها وهي تنظر لأحمر الشفاه الذي منح زوجها مظهر مهرج تعسٍ جداً.

أغلقت أزرار قميصها واستدارت قبل أن يرى عينيها الدامعتين، إنها تبكي لأنه جعل منها مسخاً.

إنها اليوم تمتلك كل المصانع والشركات وأسطولاً من السيارات إضافة للمزارع والمساح والمطاعم، هي تمتلك كل شيء إلا قدرتها على ألا تكون مسخاً ينتقم من ضعف الآخرين وهم على فراش الموت.

فقط بوجود قصي وحده لا تكون مسخاً، فهل كانت تحبه؟

لم تكن على يقين من أي شيء سوى أنها تتحول من مسخ إلى نجم بجر وجوده.

ربما هي لا تحبه لكنها تحب نظرياته حول هذه الحياة، وعلى الرغم من أن الحياة واحدة لكنها من جهته تبدو أجمل.

لقد كان يُصر على نقل الحياة لصغاره الذين لا يبصرون إلا عبر الصوت، فما كان منه إلا أن شيد لهم عالماً من الصوت الخالص عبر الكتب الصوتية والغناء والثرثرات الليلية عن الآمهم وآمالهم.

كان لديه قناعة تامة أن أشياء كثيرة تنتقل عبر الصوت، كالحب والعزيمة والحماس واللفظ وقد كان يقول لها:

(بالرغم من هزيمة الصوت أمام الضوء في السرعة، لكنني أظن أنه أبطأ لأن لديه حمولة أكثف من المشاعر).

كانت أيل في سرها تتمنى أن تبقى مع قصي إلى الأبد، إنه لمن المريح لامرأة مثلها أن تحب رجلاً غير متطلب ويستطيع تلافي التشوهات، بل وتحميلها.

لقد كانت واثقة أنه بإمكانها استعراض كل حروقها وندوبها أمامه دون أن تثير في نفسه الشفقة أو التقزز، بل فكرت للحظة أن جلدها المهترئ سيجعلها مرغوبة أكثر في ناظره.

إنها على يقين أن المرء لا ينجذب للآخر وفقاً لمميزاته بقدر ما قد ينجذب لامتلاكه عيوباً مشابهة.

إن ذلك وحده يجعل من الشريكين متعادلين، متعادلين بحيث لا يحتاج أحدهما بذل المزيد من الجهد لتقبل الآخر أو

التضحية بملذاته للفوز به .

لم تصل إلى ذلك كله عن عبث، فإن تصرفاته الواضحة وشت بذلك أكثر من أي قول .

فقد كان يستشيرها في كل الروايات التي يقوم بتسجيلها، فتمنحه رأيها بها قبل أي أحد آخر، كما كان يدعوها أيضاً إلى كل الرحلات التي ينظمها لأطفال الجمعية .

يتذكر عيد ميلادها دومًا، ويدرك جيدًا أن النرجس زهرتها المفضلة، يعزف لها المقطوعة الموسيقية التي تروقها، يشجعها على متابعة دراستها، ويطري على ذوقها ومظهرها بأدب جم .

يستمتع إلى شكواها وآلامها هو الذي يعلم أن جلادها ما زال بين الحياة والموت مستلقيًا على فراش الفرض كخيال شبه حي .

لقد كانت تظن أنه قد يبادر بخطوته الأولى في اللحظة التي يسمع فيها خبر وفاة زوجها، لكن ذلك لم يحصل .

ولم تملك من الجرأة شيئًا لتقرب هي، وبقيت رهينة ما بين الحيرة وانعدام الثقة .

هي التي تعلم علم اليقين أنه ليس من الشائع لأنتى أن تبادر بالتعبير عن رغبتها بشخص ما، وأن ذلك قد يحولها من شخص مرغوب جدًا إلى امرأة قد يزهد بها أي رجل .

واعتقدت في نهاية الأمر أن الكبرياء وحده هو الذي أبعداها كل هذه المسافة وصولاً لهذا الشاطئ الرملي .

كانت أيل تفكر بذلك كله وهي تتأمل نجم البحر البرتقالي إلى أن قطع عليها أفكارها شخصان خرجا معًا من البحر بحيث كان الماء ينساب من ثيابهما .

كان أحدهما يستند على الآخر وهو يعرج قليلًا وكان ساقه مصابة بجرح يعجز عن تحريكها كما يجب .

ومع اقترابهما ظهرت ملامحهما واضحة بالنسبة لها فقد شاهدت وسام وهو يتكئ على كف ناي التي كانت تنصب بقوة رافعة رأسها نحو الأعلى .

على ما يبدو إن آرتميس حققت أمنية ناي فأقتذت حياتين معًا عوضًا عن حياة واحدة .

الحن السادس

الثوب التي لا يراها أحد

داخل أحد الكهوف البحرية التي تمتد قممها بشكل مخروطي نحو الأعلى وتفتح في مركزها على زرقة سماء هادئة كان هنالك جسد مستكين.

كان الكم الأيسر لقميصه يطفو على السطح ويخفق مع كل تيار مائي، أما الكم الأيمن الممزق قليلاً فيكشف عن ذراع مجروحة بشكل طفيف.

شعر حلیم بألم أثناء محاولته تحريك رأسه وسمع عظام رقبته تططق بصوت خفيض دون أن ينعم بتلك الراحة التي يكتسبها المرء عادة بعد إدارة رأسه يمنى ويسرى.

وعندما حاول أن ينهض شعر بدوار مصبوغ بلون أبيض ساطع ومض في عينيه، فعاد للاستلقاء من جديد على صخرة مسطحة، وعلى الرغم من أن الملمس اللزج الذي خلفته هذه الصخور على رقبته كان لا يقل إزعاجاً عن صلابتها إلا أنه لم يكن قادراً بعد على الحراك.

لقد كان يشعر بالجوع والعطش معاً لكنه لم يشعر بنكهة مالحة عندما قام بلعق شفّيته، بل شعر بنكهة أخرى غير متوقعة.

إنها نكهة حلوة جداً لأطباق الحلويات التي تقدم في الاحتفالات السعيدة، كسوار الست والبقلاوة وحلاوة الجبن.

لقد كان في ذلك اليوم يتأمل الوحمة في يده ممسداً إياها بيده الأخرى، وهو غالباً ما يفعل ذلك عند عدم شعوره بالأمان، لقد كان يجلس في صالون المنزل مطأطأً رأسه غارقاً في حواف تلك الوحمة التي تشبه حبة الكستناء ريشاً تطل العروس المنتظرة.

إنه يُقدم على شيء لم يسبق أن عاشه ولو لمرة واحدة في حياته، وعندما يقدم المرء على تجربة للمرة الأولى فإما

أن يقوم بذلك بشجاعة متهورة أو بحزن شديد .

إنَّ ما قد يفكر فيه شاب عادي مقدم على خطبة فتاة ما هو الرغبة في تكرار تجربة ناجحة كان شاهداً عليها في عائلته أو في أي عائلة أخرى، أو قد يحاول تجنب العديد من التجارب الفاشلة ليكون هو بمثابة استثناء .

لكن من غير الممكن اعتبار حليم واحداً من الصنفين السابقين . . . بالرغم من أنه قد يتشابه معهم بأمر ما، ربما في الرغبة بإيجاد السعادة حتى لو بطريقة شديدة العشوائية، وهُم بذلك يخفون جميعهم شيئاً ما . . . شيء لن يفصحوا عنه بسهولة .

فخلف ربطة العنق الأنيقة قد يدارون غصّة حب سابق، وتحت ياقة القميص المكوية جيداً قد ينساب عرق توترهم وعدم الثقة بأنفسهم، وعلى حزام الساعة الجلدي قد تتحرك اللامبالاة ثقيلة مع كل تكة .

إن الفتيات يُخفين الكثير أيضاً، فخلف الأهداب المشطّة برّقة قد ترقد دمعة ذُرّت من أجل شخص لم يتصل، وتحت طرقات الكعب العالي البطيئة توارى أمنية بالركض في دروب بعيدة جداً، كما قد ينساب الكثير من التردد مع القهوة المسكوبة في طبق الفنجان .

لكن هذه الطريقة قد تثير الراحة داخلهم لأنه من خلالها يمكن إخفاء التاريخ الشخصي للإنسان بتاريخ أشمل هو تاريخ العائلة، وبهذا يمكن للمرء أن يضيء الجوانب التي يرغب بإضاءتها فقط دون أن يخبر الآخر عن انكساراته وهزائمه .

وإن حليم يعلم هذا جيداً لذلك كان يحاول أن يتستر على ما يرغب بإخفائه من خلال التشديد على النقطة الثانية وتمويه النقطة الأولى بجذر .

لقد أخبر حماء المستقبل بكل وضوح عن أملاكه، عن معمل العطور الخاص به والذي بنى فوقه منزله المجهز كما يجب له أن يكون .

منزل بغرف واسعة، ومطبخ مزود بكل الأدوات الكهربائية اللازمة، وغرفة نوم يمكن أن يستبدلها بأخرى فيما لم تنل إعجاب العروس .

كما يمكن له أن يطلق خطأ عطرياً خاصاً بها . . .

لقد كان يحاول جاهداً أن يخفي رائحته القديمة، رائحة الميتم والطرقاات التي جابها بعد اعتاقه منها .

ساححاً فقط للروائح الجميلة بالانطلاق والتي من الممكن أن تجعله مرغوباً ومحبوياً .

لم يكن حماء مكثراً كثيراً لبدائياته رغم أن لديه فكرة واضحة عنها، فيمكن لمعدن ثمين كالذهب أن يغطي بلمعانه تلك العلاقة غير الشرعية التي تجع عنها حلیم بسهولة، كما يمكنه أن يتناسى نشأته في الملجأ إن تنازل عن ملكية منزله لابنته .

لم يكن حلیم يدري طبيعة الحوار الذي من الممكن أن يديره مع ندى التي قدِمَت أخيراً مخفوفة بهالة من عطر حاد . كان حلیم مشغولاً بتحليل ذلك العطر عندما صافحها للمرة الأولى ولذلك طالت تلك المصافحة أكثر من المعتاد بقليل، وتأكد في نهاية هذه المصافحة من وجود قطرات من زيت القرنفل مع خشب الصندل وقطرات حمضية زخمة مع فائض من الإيتانول في عطرها، لكن جمال ندى شتت انتباهه قليلاً عن ذلك .

لقد فكر أن العطر الأنسب لفاتة كهذه هو خلاصة الفانيلىا التي بقيت تسكنه منذ نعومة أظافره، والتي ستبقى الرائحة الأقرب لقلبه .

ترى ما الحديث الذي من الممكن لشاب أن يفتحه للمرة الأولى مع فتاة من الممكن أن يتزوجها !

عليه حتماً أن يتكرر أسئلة جيدة، على الرغم من أنه يعلم أن الإجابات لن تكون على درجة عالية من الأهمية ولذلك سيتدخل باقي أفراد العائلة على أمل إتمام ذلك الحوار .

لقد أصيب حلیم بارتباك عندما شعر أن ندى تنظر إلى جوربه المثقوب، كان يحاول أن يثني أصابعه ليخفي ذلك الثقب اللعين الذي نبت فجأة من العدم، فإن آخر ما كان يريده هو أن يظهر بشكل غير لائق أمام عروسه المستقبلية .

وعلى الرغم من بريق ساعة الرولكس الذهبية في معصمه الذي كان يشدها لكن تملكه شعور طاعٍ بأنها تسترق

النظر بين الفينة والأخرى إلى ذلك الثقب الذي بدأ يتمدد أكثر وأكثر، لقد كبر لدرجة شعر فيها أنه قد يتلعه كنجوة عميقة تفصله عن العالم الذي لطالما رغب به .

تفصله عن الشرفة التي تلوح ندى منها وهي ترتدي مزرها المنزلي، وعن رائحة الطعام التي تعبق في مدخل البناء . لم يجرب طعاما يعبق بتلك الرائحة قط، لكن تلك الرائحة التي كانت تداهم أنفه عند تجوله بالقرب من المباني السكنية أوحى له دوماً بالسعادة والألفة والحميمية، كان يشعر بقليل من الحسد تجاه أولئك المجتمعين حول مائدة الطعام الغارقة بروائح التوابل والبهارات دون أن يتمكن من رؤيتهم حتى .

إنه يعاني حالة من الجوع غير التقليدي بعيداً عن أطباق السلطة والحساء والمعجنات والخضراوات المحشوة بالأرز واللحم، إنه جائع على نحو خاص لامرأة تتصل به إن تأخر عن موعد وجبة الغداء، ولأطفال يتطفلون على طبقه كي يطعمهم منه، ولأصابع صغيرة تطلب منه نصف رغيفه الساخن .

لقد كان الارتباط يعني له أن هنالك شخص ما قد يقلق إن تأخر عن مواعده المعتاد، ويحتفي بعودته .

إن الإنسان قد يدفع أثمن ما يملك من أجل ذلك، حتى أولئك البشر الذين يصطنعون أنهم غير مكترئين لأحد في هذا العالم، وأولئك الذين يكونون عنيفين على نحو خاص، الذين يرتكبون الجرائم، والذين ينتهي بهم المطاف بإنهاء حياتهم .

لم يحلموا يوماً بأكثر من أن يثيروا اهتمام شخص ما، لكن عندما لا يستطيع المرء القيام بذلك بطريقة إيجابية سيفعل ذلك بطريقة بائسة ومريعة لأن أحداً في هذا الكون لم يفهم مطلبه الوحيد .

أما حلیم فيعلم ما يرغب به جيداً، إنه يرغب بخلق كل ما لم يستطيع الحصول عليه، أن يعيشه عبر أشخاص آخرين، وأن يستطيع تغيير بعض التفاصيل الصغيرة فحسب .

كأن يستخدم تلك الأداة الخشبية لمدّ العجين بدل أن تضربه بها الطاهية التي لم يصدف أن حضرت لهم معجنات لذيدة أبداً طيلة سنواته العشرة التي قضاها في الميتم .

لقد كان يؤله أن يتم استخدام مبشرة الجبن لحف أصابعه الصغيرة حتى إنزال الدم منها من قبل أحد عمال التنظيف عندما يمنع حلیم عن مساعدته في سرقة صندوق العطايا المخبئ في مكتب المدير. لقد كان على دراية كاملة بأن هذه الأداة لم تُعدّ من أجل جرح أصابعه العشرة إنما من أجل تزيين طبق المعكرونة بالجبن البضاء الذائبة من حرارة الفرن، وأن الملاعق الخشبية صُممت لتحريك الطعام لا لضربه عندما يبلل نفسه.

إن كل ما يرغب به هو مجرد تعديل صغير في الأدوات واستخدامها .

وقد حصل على كل ما قد يرغب به

إنه اليوم قوي قوي جداً . . . ويجب أن يثق بنفسه أو على الأقل عليه أن يثق بمعمل العطور الذي من الممكن أن يغطي أي رائحة أخرى مهما كانت منفرة، وببزة جورجيو أرماني التي يرتديها وبالساعة الذهبية التي أغوت عروسه وبباقات الزهور التي كان من الممكن أن تملأ غرفة كاملة.

إلا أن ذلك كله ما كان ليغطي الثقب في جوربه، مما أشعره بضيق فبدأ بإرخاء ربطة عنقه.

لم يعتقد حلیم للحظة أن قدمه كانت متوارية خلف الطاولة الصغيرة التي تحمل أطباق الحلويات ولذلك لم تكن ضمن مجال رؤية عروسه أبداً .

إلا أن هنالك ثقب كثيرة لا يمكن لأحد غيرنا أن يراها ولسبب ما نشعر أن الجميع قادرون على رؤيتها

وذلك يجعلها منها أكثر اتساعاً وإزعاجاً .

انتهت تلك الليلة بالكثير من التهليلات والمباركات والأهازيج . . . انتهت كليلة شديدة الحلاوة إلا أن حلاوتها كانت مزعجة بالنسبة لحليم، فالقطر علق في نهاية لسانه وجعل لعبه ثقيلًا جدًا ولم يتمكن حتى ماء البحر هذا أن يغسل تلك النكهة على الرغم من مرور أشهر طويلة على ذلك.

أطلّت الشمس بقوة بحيث توسطت تلك الفجوة في الكهف البحري وداعبت خيوطها أجفان حلیم المغلقة والتي ظهرت رقيقة لتشف عن عروق أرجوانية.

فتح عينيه وحاول الوقوف مستنداً على الجدار الصخري الحشن بذراعه الوحيدة، شعر لوهلة أنه محظوظ ببقائه على قيد الحياة بالرغم من أنه لم يمتلك سبل النجاة الكافية... فكر بذلك وهو ينظر إلى كفه الأيسر.

إنه ليس بأفضل حالاته لكن عليه النهوض والتأكد من أن عظامه سليمة.

استعان بغصن مرمي بالقرب منه لا بد أن الموج قد رماه هنا مثله تماماً، إنه يرجو ألا يكون بعيداً جداً عن أي تجمع بشري.

حاول النهوض عدة مرات قبل أن ينجح بذلك، إن عظامه سليمة حتماً فهو قادر على تحريكها لكنه يشعر بإعياء وتعب، وإن الصخور الزلقة جعلت الخروج من هذا المكان صعباً.

لكن كل ما عليه القيام به أن يكون حذراً وأن يستند على الغصن ليتأكد من مدى عمق الماء وعدم وجود فجوات قد تعلق فيها قدمه.

كانت المياه ضحلة نوعاً ما إنما صافية حيث تمكن من رؤية أسماك صغيرة ملونة هي تسبح حول قدميه، فالتحنى محاولاً الإمساك بها إلا أنها انزلقت بخفة بين أصابعه، وقد كانت تلك الحركة مؤشراً أن حالته لم تكن على درجة عالية من السوء.

وبعد عدة خطوات كان قد اقترب من مدخل الكهف البحري فازداد الماء عمقاً بحيث وصل منسوبه حتى خصره، فاستدار حليم بدورة رشيقة ليودع المكان الذي قضى فيه عدة ساعات.

لقد كان ساحراً بحيث امتزج اللون الأزرق بتدرجاته العديدة كألوان مائية مع اللون الأخضر للطحالب على جدران الكهف البحري أما الشمس فقد تركت بريقاً سحرياً على صفحة المياه بحيث بدا المكان وكأنه قصر للجنيات.

وكما ابتعد حليم أكثر كان يستدير من جديد ليأخذ بذاكرته لقطة أبعد لذلك المكان الذي قد لا يراه مرة أخرى بمدخله المنحني نصف المغمور بالماء، وفي كل مرة كان يراه أكثر غموضاً وجمالاً، إلا أنه توقف عن الاستدارة عندما شاهد على بعد أمتار قليلة مجموعة من الأشخاص.

وسرعان ما ترك الغصن وحرك ذراعه الوحيدة ساجًا نحوهم إلا أن ركبته كانت تصطدم بين الفينة والأخرى بالصخور تحت الماء ومع ذلك تجاهل ألم الخدوش الصغيرة التي كواها الملح عندما ميز بوضوح رفاقه السبعة والذين ما إن لمحوه حتى بدؤوا بالتلويح له .

جميعهم كانوا يرفعون أيديهم في الهواء ما عدا شخصين أحدهما كان مستلقٍ وكأنه مصاب وبجانبه فتاة تمسح على ساقه .

لقد كانت ناي تقوم بمداواة اللسعات التي تركتها قناديل البحر على جسد وسام والذي كان محظوظًا لأنه نجا من تلك القرصات المميتة .

أما حلیم فقد كان محققًا إنها المرة الأخيرة التي سيرى فيها ذلك المكان .

لله اللحن الساج لله

أنت الموسيقى التي تُرى

تغيرت العديد من الأمور منذ تلك الليلة التي قامت فيها سارة بمهافة آدم ليعود إلى منزلها على الرغم من أنه لم يغادره منذ فترة طويلة، وقد شعرت لوسي بتلك التغيرات، فكان بإمكانها أن تشم رائحة الأدرينالين المتدفق عبر جلد سارة وهي تمسك بالهاتف.

وحتى مع مرور عدة أيام لم تكن تفضل الاقتراب كثيراً من ذلك المكان الغريب الذي ظهر فجأة في ذلك المنزل، بل كانت تقف بالقرب من البيانو الخشبي بحيث تداري جزءاً من رأسها خلف ساقه الأمامية مراقبةً عن كثب صعود وهبوط آدم وسارة عبر الدرج الحجري.

وقد كانت تضطر لتنبح عدة مرات لتذكر سارة بتقديم الطعام لها، والتي باتت تتأخر في تقديم الوجبات لكن لم يكن باليد حيلة فقد كانت لوسي تنتظر في مكانها المعتاد.

على بعد بضعة أقدام من لوسي التي كانت تهم بالتهم وجبتها كان ينحدر الدرج الحجري الذي ظهر من خلف رفوف المكتبة بدرجاته القليلة الحادة حيث يمكن لشخص غير حذر أن يتعثر عليها بسهولة.

إن المكان من الداخل واسع على نحو غير متوقع ويمتد تحت معظم أرجاء المنزل وتخلله بعض الدعامات الأساسية، أما الأرضية فلم تكن ترابية أو مهملة على الإطلاق ويمكن القول أن المكان يميل للتنظيم والترتيب، ففي صدره مثبتة تلك الكبسولة المضيئة التي كانت سبب توهج نوافذ المنزل متصلة بحاسوب غريب وضخم ذي شاشة سوداء تظهر في إحدى جوانبه صورة افتراضية لدماع بشري.

وفي الجهة الأخرى من ذلك المكان يتوضع مكتب واسع تترامى حوله العديد من المراجع القديمة والحديثة، أما على سطحه فهناك مجموعة من الأوراق التي كان يقلبها آدم طيلة الوقت ويمكننا أن نرى في حدقتي عينيه الموسعتين شغفاً شديداً وهو يحاول فك الشيفرات أمامه، وعندما يرفعهما محققاً في الضوء المنعكس من تلك الآلة الغريبة

كانتا تضيقان بسرعة غير متوقعة ويتراقق ذلك بضغطة إبهامه وسبابته بقوة على ذقنه .

لم يكن هذا اليوم الأول الذي يقضيه في منزل سارة، فمنذ تلك الليلة التي هاتفته فيها للعودة إلى منزلها وهو يقضي جُلَّ وقته لديها .

ـ ما الذي قد توصلتَ إليه ؟ . . قالت سارة وهي تنزل ببطء عن الدرجة الأخيرة بعد أن قدّمت للموسي وجبتها المتأخرة .

كان آدم يبدو مشتتاً ولم يحوّل نظره عن الأوراق فأجابها:

ـ كما أخبرتك سابقاً إن والدك كان يعمل على نظرية كل شيء .

وضعت سارة يدها على كتفه وزمت شفيتها: هل بإمكانك تبسيط الأمر لي، فأنا لا صلة لي بالفيزياء لا من قريب ولا من بعيد .

استدار آدم نحو الخلف فرفعت سارة يدها عن كتفه، فقال لها وكأنه انتبه للأمر فجأة:

ـ إياك أن تخبري أحداً بشأن هذا المختبر، فما كان والدك يحاول القيام به هو عمل استثنائي يمكن لجهاز كثيرة أن تحاول السيطرة عليه .

سحبت سارة الكرسي المجاور لآدم، وجلست عليه فالتفت الضوء على زجاج نظارتها بحيث أخفى عينيها تماماً، تابع آدم وهو يحاول تبسيط الفكرة لسارة:

إن كوننا محكوم بثلاثة أبعاد (الطول، العرض، الارتفاع) وقد قام أنشتاين بإضافة البعد الزمني، لكن وفقاً لما قد تركه والدك في أوراقه البحثية فإن هذه الأبعاد ليست أربعة بل إحدى عشر بعداً .

ـ إن هذه الفكرة ليست بجديدة على ما أعتقد .

ـ إنها ليست جديدة حتماً، لكننا كبشر محكومون بالتحرك ضمن الأبعاد الثلاثة فحسب، إننا كهراشات عالقة في مصيدة لا يمكن لنا التملص منها وعندما أقول مصيدة فأنا أقصد بذلك كوننا حتماً، والذي فعله والدك أنه مكننا

من الخروج من هذه المصيدة إلى مصائد أخرى . . . إلى أكوان أخرى ولا نهائية.

_أتقصد أننا أمام آلة للسفر عبر الزمن؟

_لا، إن ما نحن بصدده الآن مختلف قليلاً، إنه قائم على فكرة وجود عدة نسخ منك بحيث يمكن لكل نسخة من هذه النسخ أن تعيش تفصيلاً صغيراً مختلفاً عن النسخ الأخرى وبالرغم من تفاهة هذا التفصيل إلا أنه قد يترتب عليه تغييرات لاحقة بحيث تصبح حياتك مختلفة جداً في كل مرة.

فلنتخيل معاً فتاة ما تعيش على بعد حي واحد من هنا، استيقظت في صبيحة أحد الأيام لتجري مقابلة مع إحدى الشركات المهمة والتي سرعان ما أثبتت جدارتها فيها فتم نقلها إلى مقر الشركة الرئيسي في العاصمة وهناك بدأت بعقد صفقات مهمة إلى أن تمكنت مع مرور الوقت على إيجاد شريك ما لإقامة شركتهما المستقلة الخاصة، ثم تزوجته وأنجبت منه أطفالاً . . . لتوقف عند هذه النقطة تحديداً . . .

ما الذي قد يحصل لتلك الفتاة إن تعطل منبهها في ذلك اليوم الذي قبلت فيه للعمل في تلك الشركة المهمة؟ كانت لتوقف كل السيناريوهات المرتبطة بذلك التفصيل الصغير.

_ تقصد بذلك أثر الفراشة؟

_يمكنك القول أن الأمر مشابه لأثر الفراشة مع الحفاظ على كل السيناريوهات الممكنة والتي لا يمكن لك أن تُقدري إن كانت أفضل أو أكثر سوءاً من السيناريو الوحيد الذي تسنى لك ملاحظته وفهم التغيرات المرتبطة به.

_إذن في عالم موازٍ ما زال والدي ووالدتي على قيد الحياة حتى اللحظة.

_بكل تأكيد، لكن من غير الممكن أن تأخذي الاحتمال السابق بشكل منعزل، بل سيترتب عليه تغيرات لن تكون متوقعة بالنسبة لك . . .

اقترب آدم أكثر من الكبسولة الأسطوانية الكريستالية الضخمة وفرد ذراعيه:

_ما أمامنا الآن هو ثقب للعبور إلى الأكوان المتوازية.

نهضت سارة ولم تغير مكانها بل سندت ركبتيها على الكرسي:

هل يمكن من خلال هذه الأسطوانة العبور إلى أكثر من كون مواز أم إلى كون واحد فقط؟

لم أستطع تحديد ذلك بعد، لكن التجربة وحدها قد تكون خير برهان على ذلك.

رفعت سارة حاجبيها متسائلة:

هل تفكر حقاً بتجربة هذا الجهاز!

استدار آدم مقترباً منها ممسكاً بيديها الاثنتين حيث عادا للجلوس في مكانهما السابق من جديد:

أتعلمين ما هذه الشاشة الضخمة المرتبطة بكبسولة العبور للكون الموازي؟

إنه حاسوب.

تأملت عينا آدم وشد على يدي سارة بحيث ألمها قليلاً:

إنه راصد، يمكن له أن يرصد السيناريو المحتمل الذي قد يعيشه الفرد في الكون الموازي...

بل الأدهى من ذلك أنه يجعلك ترين الأمور من الداخل أيضاً.

أليس من المفترض بالراصد أن يرصد الأمور بشكل خارجي، فكيف ذلك؟

إنه قادر على رصد الأفكار والمونولوجات الذاتية، والمشاعر المترتبة على الأحداث، أتعلمين ما الذي قد يعنيه

ذلك!

شدّ آدم أكثر على كفي سارة فقامت بسحب راحتي يديها من بين يديه هذه المرة، وهز رأسه ببطء متابعاً:

إن ذلك يعني أنه بإمكانك دراسة الحالة النفسية للبشر في أوضاع مختلفة قائمة على تغييرات قد تكون طفيفة أو

عميقة.

لكن ما الذي يؤكد لك أن الجهاز يعمل! ماذا لو أدى لاختقاء الأشخاص مثلاً، أو لأذيتهم؟

نهضت من على الكرسي واستطردت وهي تستدير نحو الكتلة المشعة:

ألم تتساءل لماذا لم يتمكن أحد من ابتكار هذا الجهاز سابقاً . . . لا بد أن هنالك عوائق كثيرة منعت الحصول على شيء مماثل بالرغم من حشد الكثير من الطاقات.

ألم تتساءل لم لم يكشف والدي عن ابتكاره الخاص! لا بد أنه كان قيد التحسين والتعديل إذن.

ـ بالطبع كان هنالك العديد من التجارب الفاشلة والعوائق التي منعت حدوث ذلك سابقاً، فمثلاً كل الدراسات الفيزيائية السابقة أشارت أنه حتى لو تم التمكن من إيجاد ثقب دودي كنفق للمرور من كون لآخر إلا أن هنالك نقاط ضعف كثيرة قد تهدد حياة الإنسان، منها أن ينهار الثقب الدودي على نفسه بحيث يمزق جسد الإنسان إرباً، أو لا يسمح له بالعودة إلى نقطة البداية.

ـ ولماذا يمكن اعتبار ما اخترعه والدي استثناء؟

ـ لأنه قائم على تنفيذ عملي لرؤى أحد علماء الفيزياء النظرية وهو كيب ثورن الذي اقترح ضرورة وجود ما أسماه بالجاذبية المضادة كي لا ينهار الثقب الدودي على ما يحتويه.

وبذلك بدلاً من تحويل الإنسان إلى طبق من المعكرونة، سيتم تحويله بشحمه ولحمه إلى كون آخر.

اقترح آدم من جديد ولامس شاشة الراصد بإصبعه مشيراً إلى صورة الدماغ الطافي في الشاشة السوداء:

أترين هذا اللون الأحمر لحدود الدماغ، ما أن يتم رصد حالة منتقلة إلى كون مواز سيتحول إلى اللون الأخضر . . . وستظهر لك بوضوح الباحات المفعلة في الدماغ.

يمكنك أيضاً الانتقال من وضع التخطيط الدماغى للباحات إلى وضع حوارات الشخص الذاتية، أي أنك ستكونين قادرة على رؤية ما يفكر ويحس به الإنسان الذي بات يعيش خارج مصيدتنا هذه.

كان آدم يشير بسبابته شكل دائري ليوضح لسارة حالة الانتقال من وضع السكون إلى حالة التفعيل.

ـ وما مدى الذكاء الصناعي الذي يتمتع به هذا الراصد؟ هل من الممكن أن تفقد زمام السيطرة عليه؟

لذلك ما زلت أأتى في تجربته، إنني أحاول دراسة الحالات الممكنة لست في صدد إطلاق العنان لذلك صناعي لا فكرة لدي عن مدى نفوذه.

عاد آدم مرة أخرى للأوراق البحثية المنتشرة على كامل سطح المكتب المحاط بمراجع فيزيائية مختلفة، لقد كان يفكر أن اختراعاً كهذا لن يغير حياته وحياة سارة فحسب بل سيغير مفاهيم كثيرة في هذا العالم.

جلست سارة هذه المرة على الدرجة السفلى بعيداً قليلاً عن آدم:

ـ أين تقع إذن كل هذه الأكوان المتوازية؟ هل هي في الفضاء الخارجي؟ في مجرة أخرى مثلاً؟

ـ ستدهشك الإجابة وقد أجاب عن هذا السؤال أحد الفيزيائيين الحائزين على جائزة نوبل وهو ستيف واينبرغ:

"إن الأمر يشبه ضبط إبرة الراديو على محطة ما داخل غرفتك، أنت تعلم أن الغرفة تعج بالإشارات التابعة لعدة محطات من الراديو لكن الراديو الخاص بك ينغم على محطة واحدة فقط منفصلة عن كل المحطات الأخرى".

إن ذلك لا يعني أن المحطات الأخرى غير موجودة، وبشكل مشابه إن الأكوان الموازية موجودة كلها لكنها فقدت التلاحم فيما بينها.

ـ أيمكن أن يكون ذلك كله حقيقياً دون أن نشعر به؟

ـ إن الأرض تدور وهذه حقيقة، لكنك لا تشعرين بدورانها . . . أليس كذلك؟

ـ ما الارتباط بين كل ما قد قلته وبين الأوتار الفائقة التي أعلم أن والدي كان يعمل عليها في أيامه الأخيرة.

إن كل ما قد ذكرته لك مرتبط بشكل وثيق بالأوتار الفائقة، فإن كل الجسيمات تحت الذرية كالإلكترونات والبروتونات والبوزيترونات وغيرها ليست أكثر من اهتزازات متباعدة لوتر قد يهتز بطريقة ما مما يؤدي لتغير الجسيم دون الذري، بالمختصر يمكنك القول أن الوتر الفائق هو المكون الأساسي لكل شيء.

وإن الأوتار الفائقة هي التي تنبأت رياضياً بالأكوان المتوازية، ويمكن لها أن تسمح بتوحيد نظرية الكم والنسبية.

ـأعجبتني تلك الفكرة... أنا مكونون من أوتار كأننا قطعة موسيقية استثنائية.

ـنعم، لكن يمكن لها أن تعزف مرة أخرى... إننا تمامًا كسيمفونية حقيقية في قلب الواقع، على الرغم من أن وجودنا قد يبدو سحريًا وخياليًا للوهلة الأولى لكن هذا ما نحن عليه.

ـهل هذه عقيدة نطمع من خلالها بالخلود أم فلسفة ما!

ـإنها الفيزياء... الفيزياء فحسب، يمكن للفيزياء أن تكون شاعرية وتلامس أعماقنا بطريقة غريبة.

لأمت سارة قرطها الموسيقي قائلة:

ـهل يمكننا القول إذن أن أصل الإنسان موسيقى؟

جلس آدم جانبها على الدرج الحجري والتفت برأسه تجاهها:

ـوبذلك تكونين أنت الموسيقى التي تُرى.

تذكرت سارة تلك العبارة الأخيرة التي نطقت بها والدتها قبل موتها، لكن آدم نقر كنفها بكفه فقاطع أفكارها قائلاً: بالمناسبة ربما في كون مواز أنت زوجتي وتحاولين إرضائي بطريقة ما.

ابتسمت سارة إلا أن عقلها كان ما يزال مشدوهاً بكل ما يحيط بهما.

على بعد عدة درجات نحو الأعلى كانت لوسي تشعر بالتخمة بعد التهامها وجبتها فبدأت أجفانها بالانغلاق واستعد جسدها لتغط في نوم عميق.

إنها على درجة عالية من البساطة بحيث يمكنها أن تشعر بأقدامها وهي تلامس الأرض دون أن تدري شيئاً عن الجاذبية الأرضية، ستحسب النتيجة دومًا دون أن تفهم السبب.

لا فكرة للوسي عن القوانين الفيزيائية لكنها ستخضع لها دومًا، إنها لا تملك الكثير من الأحجيات لتفكر مجملها لذلك سرعان ما يمكنها لها أن تغلق جفניה بسلام.

لله اللحن الثامن لله

أشياء لا تعرفها السناجب عن البشر ويتجاهلها البشر أنفسهم

بعينيه السوداوين اللامعتين كان السنجاب البني الصغير يتابع حركة غير مألوفة في غابته الهادئة محاولاً التنقل بجذر من شجرة لأخرى كي لا يثير الانتباه.

كان يرى بوضوح كائنات لم يعتد رؤيتها فيما مضى، إنهم لا يمشون على أربع قوائم ولا يمتلكون ذيلًا أو مخالب أو أنياب بارزة، وعلى الرغم من ذلك اجتاحت السناجب رغبة ملحة بالحذر.

إنه يثق بتلك الأحاسيس التي تنبأه دون خبرات سابقة لأنها كانت دومًا السبب في نجاته دون أن يعلم ذلك حتى.

كان السنجاب مستغربًا من عدم وجود فرو يغطي تلك الكائنات، لكنه لاحظ أنهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض ويحركون أفواههم مصدرين أصوات مختلفة وغريبة.

إن السنجاب البني الصغير لا يعلم أن ما يقوم به هؤلاء يدعى تواصلًا لفظيًا، لكنه وبطريقة ما كان محقًا في أن هذا التواصل ولمس الأيدي لا يثبت إلا الدفء في قلوبهم، وهو نوع من الدفء مختلف تمامًا عما يشعر به هو في حالات تقلب الجو.

تحركت آذان السنجاب لتلتقط المزيد من الأصوات، كصوت تكسر الأوراق الصفراء تحت أقدامهم وقطرات المطر الخفيفة وهي تتساقط على وجناتهم وجباههم، وخفقات أجنحة الطيور التي كانت تصدر فجأة فتجعلهم يتجمدون في أرضهم مقتربين أكثر من بعضهم، في حين أنهم كانوا يلوحون بأيديهم عندما يسمعون أزيزًا عابرًا لأجنحة الحشرات.

شعر السنجاب بأن الطريقة التي يقوم من خلالها بإبعاد الحشرات أسهل وأكثر كفاءة، فحركة واحدة من ذيله الكبير

مقارنة بجسده كانت كهيئة بطرد تلك الكائنات المزعجة بعيداً عنه، كان يفكر بذلك وهو يتشبث بمخالبه الصغيرة بغصن عالٍ لكنه كاد أن يسقط عندما سمع صوتاً جعله يرغب بأن يعود أدراجه وذلك عندما انزلق أحدهم على منحدر طيني، وقد توقف ذلك الصوت عندما اقترب الآخرون منه وساعدوه على الالتصاف من جديد .

لاحظ السنجاب أن هنالك حالة من الألفة بين أفراد هذه الجماعة وقد ظن في قرارة نفسه أنهم يعرفون بعضهم منذ أمد بعيد .

وعلى الرغم من أن هؤلاء لم يعرفوا بعضهم منذ فترة طويلة إلا أن هنالك خاصية تميز الجنس البشري، هي أنهم يصبحون أكثر قرباً بشكل ملحوظ عندما يواجهون مخاطر وآلام واحدة .

إنها أشياء لا تعرفها السناجب عن البشر، ويتجاهلها البشر أنفسهم .

لكن كل ما يعرفه ذلك السنجاب الصغير أن لعبه بدأ يسيل عندما رآهم يلتقطون ثماراً من البلوط والجوز والفطر الأبيض، وقد كوّموا تلك الثمار تحت جرف صخري وجلسوا بشكل حلقة دائرية من حولها .

إذن هم يشاركونه في نوعية غذائه، أثارت هذه الفكرة فضوله ودفعته على الاقتراب، ربما بإمكانه أن يغتني ثمة بلوط من دون أن يشعروا بوجوده .

كان يراقبهم من خلف جذوع الأشجار، ويقفز مستغلاً ذلك الجو الضبابي الذي يملأ المكان فيتماهى مع كل شيء من حوله .

لقد أصبح قريباً جداً منهم، إنهم يجتمعون في حلقة ويضعون الطعام اللذيذ في المنتصف، ماذا إن اقترب قليلاً ؟ لاحظ حلیم وجود ذلك الكائن الصغير فرمى له ثمة بلوط، إلا أن الضوضاء التي أصدرتها تلك الحبة جعلت السنجاب يتعد عن الثمرة البنية المحمرة الشهيية، لكنه سرعان ما عاد من جديد إنما من جهة أخرى .

ترى هل يمكن للمناورة التي قام بها أن تسمح له بالوصول إلى صيده الثمين ؟

اقترب السنجاب هذه المرة من ناي التي أمسكت ثمة فطر ومدّت نفسها بهدوء باتجاهه كي لا تثير في قلبه الذعر،

تسمر السنجاب قليلاً لكن خلال لحظات حمل ثمرة الفطر التي لا تقل كثيراً عن حجمه ولاذ بالفرار.

ساعد بحر ناي في اتخاذ وضعية جلوسها السابقة قبل قدوم السنجاب وقام بسحبها من كف يدها، ثم عاد لشرح للمجموعة خطته من جديد .

كان يُمسك بغصن يرسم بواسطته على التراب خطة الوصول إلى وجهتهم القادمة .

لقد كان بحر الشخص الوحيد القادر على إخراجهم من هذا المكان، لأنه يتعامل مع كل شجرة من الأشجار ككيان مستقل . إن لديه ذاكرة قادرة على تمييز كل تجويف وصخرة كحالة خاصة غير قابلة للتكرار ليس لأن الرسم أوقعه بلعنة الغرق الدائم في التفاصيل فحسب، بل لأنه تربى في مكان تحيط به البراري من كل الاتجاهات أيضاً .

فعلى هضبة خضراء منعزلة قليلاً في آخر طريق عشبي طويل ترامت على أطرافه أشجار بالغة في القدم كان يتربع الفندق الصغير الذي نشأ فيه بحر، وقد كان مكوناً من ثلاثة طوابق، حيث حولت والدته الطابق السفلي إلى مطعم فيما كان الطابق الأول يخص عائلتها فقط أما الطابقين الثاني والثالث فكانا خاصين بالنزلاء .

كان بحر يفضل الصعود إلى الأعلى ليجلس ساعات طويلة في تلك العلية الصغيرة التي تطل نافذتها على بحيرة مترامية الأطراف، إنه يفضل الأماكن المرتفعة التي تمكنه من رؤية أبعاد أخرى .

كان يجلس لساعات طويلة على حافة النافذة الممتدة على طول الحائط والمطلّة على أشجار الصنوبر التي تظهر من خلفها الزرقة اللامعة للبحيرة، أما أسفل النافذة فيتوضع درج خشبي خارجي يستخدمه بحر للوصول إلى العلية دون أن يمر عبر المطعم .

كان الفندق محاطاً بسور خشبي أبيض استغرقت خالة بحر عدة أسابيع لترسم عليه أزهار الكرز، وخلال تلك الأسابيع كان بحر يرافقتها حاملاً علماً من الألوان قد تفوقه طولاً فيما لوربتها فوق بعضها البعض .

إن كان بوسع بحر الحديث عن حياته فيإمكانه القول أنه نشأ في عائلة فنية، فقد كان الشاب الوحيد بين عشر نساء، أمه وخالته وثمانى شقيقات كانت كل واحدة منهن تتمتع بحس جمالي منفرد .

كما تعلمون يمكن لأي إنسان في هذا العالم القيام بأمر ما بقليل من الإصرار والعزيمة، لكن قلة فقط قادرون على جعل الأمور تبدو ساحرة، جذابة، ومريحة من المرة الأولى بطريقة لا يمكن تكرارها رغم عدم اكتمالها، فالفن لا يعني اكتمال الأشياء إنما سحرها بوجودها الحالي بحيث يمكنك تشرب الجمال من خلالها، إنه أمر يتعلق بالشعور الأصيل الذي قد تمنحك إياه من المرة الأولى.

وعلى الرغم من أن الفن بأشكاله يُدرّس حاليًا في جميع أنحاء العالم إلا أنه لا يمكن للمنهج الأكاديمي أن يمنحك حسًا فنيًا أو ذوقًا مرهفًا، فالكليات الفنية ستعلمك كيف تعيد اكتشافه فحسب.

ما قد جعل بحر فنانًا حقيقيًا هو كل ما اكتسبه فيما مضى، لقد نشأ على فكرة أنه لا يمكن لطبق منحه شعورًا بالشبع ما لم يكن جميلًا، هذا ما قد تعلمه من والدته التي كانت تدير المطعم الذي امتدت شعبيته لمسافات كبيرة، وذلك لأنها كانت تهتم بالتفاصيل بقدر اهتمامها بالنكهات.

كانت تحيك قطعًا من الكروشييه وتضعها أسفل أطباق فنانجين الشاي، تلك القطع الملونة بألوان هادئة من الأصفر الليموني والأزرق السماوي والوردي البارد كانت وحدها تقود بحر للإحساس بالنكهة الحلوة للشاي الذي يلتصع بلونه الأحمر الممتزج باللون الأشقر عندما تذوّب فيه قليلًا من العسل بملعقة خشبية.

أما حالة بحر فكانت تُجيد ترتيب الأواني بعد غسلها وتجفيفها في خزانة عرض ذات واجهة زجاجية وخشب مطلي باللون الفيروزى، في حين كان يتوسط الأدراج السفلى رسم دقيقى لورود جورية بتدرجات غامقة وفاتحة، ولا داعي للقول من الذي قد رسمها.

كان بحر في بداية النهار يساعد في وضع علب السكر التي تأخذ شكل (Cup cake) على الطاولات بحيث ينتبه جيدًا إلى التناسق بين لون العلب ولون غطاء الطاولة، أما في الظهر وبعد عودته من المدرسة يساعد في وضع الطماطم الكرزية على البيتزا التي كانت أخته تحبزها بشكل قلب، ينتظر أمام الفرن مراقبًا الجبنة وهي تذوب ليتأكد أنها بدأت تغمر حبات الطماطم.

وبعد انتهائه من وظائفه كان يهتم بوضع شرائح الليمون على لفائف ورق العنب المحشو بعد أن يرتبه على طبقة

من حبات الرمان الحمراء اللامعة .

وبعد انقضاء فترة العصر يساعد أخواته في فرش الأراجيح المعلقة بإحدى الأشجار الباسقة في ساحة المطعم الخلفية والتي كان يمكن للزبائن الوصول إليها بعد تسلق سلم خاص فقط، والانتكاء بكل راحة على الوسائد الطرية، وقد كان يجهز الحبال الضوئية ليصلها بالتيار الكهربائي مساء بحيث يمكن لها أن تلتصع من مسافة بعيدة فيخيل للإنسان أنه معلق بحبال من الضوء .

أما عند الغروب فيزين الحلوى بالكريمة الملونة حيث كانت تبدو كأزهار حقيقية، ويرش الكاكاو مجذر فوق التيراميسو دون أن يتككل، ويعرض وجه هريسة القشطة للقليل من النار إلى أن تكتسب اللون الوردي المناسب دون أن تبدو غير ناضجة أو ناضجة أكثر من اللزوم، ويثبت قطع الفراولة على عيدان خشبية غامراً إياها بموس الشوكولا الداكنة والبيضاء ثم يربط قمة كل عود بأنشطة رفيعة من الساتان الملون قبل وضعها في فارة زجاجية . في المساء يجهز الطاولات الخارجية أسفل دالية العنب التي يعلق بها شموعاً كريستالية في المناسبات الخاصة بحيث تتأرجح بلونها الدافئ فوق الأشخاص المجتمعين حول عشاء فاخر .

إن تلك الدالية كانت شاهدة على زواج كل أخواته، جميعهن تزوجن بثوب الزفاف الخاص بوالدته نفسه للحفاظ على الحظ السعيد الذي جمع والدته بوالده الذي توفي قبل ولادته بثلاثة أشهر، مع تغيير تفاصيل صغيرة فيه فحسب كطرحه الزفاف التي كانت أطول دوماً لتزيد الفترة التي قد تجمع العروس بعريسها .

في الليالي الشتوية كانت خالته تعزف على العود داخل المطعم بينما يتساعد مع أخواته بصناعة تفاصيل حميمة جديدة للمكان .

لقد تعلم منهن كيف يمكن أن يصنع غيوم ماطرة، بقليل من (الديكرون) والحبال الضوئية الملونة التي تميل بتدرجات من الأصفر حتى الأزرق، وبعدة دمعات كريستالية متدلية ستبدو لك الغيمة وكأنها تمطر ضوءاً فوق الطاولات الخشبية .

لقد تعلم أيضاً كيفية صنع لاقطة الأحلام بقليل من الريش والحزب الملون وأجراس ترن كلما هبت نسمة هواء لطيفة

عند فتح باب المطعم. كما كان يحيك أغطية جديدة للطاولات، ويصل البقايا الصوفية لصنع بساط دافئ يضعه أمام المدفأة، ويطوع عجينة السيراميك لتزيين الفناجين والملاعق أو لصنع ساعة محاطة بقطع من حلوى السيراميك فتبدو حقيقية للغاية.

قد تبدو هذه الأشياء للآخرين وكأنها تفاصيل نسائية بحثة، أشياء لا يجب أن يقوم بها الرجال.

لكنها لم تكن بالنسبة له سوى جمال بحت كان يتشربه منذ نعومة أظافره إلى أن أصبح مسؤولاً عن ميلاد فن مستقل، وقد كانت حالته شاهدة على ذلك عندما بدأت ترى مع مرور الوقت أن أصابع ابن أختها تمرد عن الخطة التي قد لقنته إياها لتحسين الفندق.

كانت تطلب من بحر رسم لوحات بأبعاد محددة يمكن بها تزيين جدران الغرف الصغيرة لتصبح أكثر رحابة وحيوية، كانت تعطيه تعليمات واضحة قبل ذهابها للنوم إلا أنها كانت تستيقظ لترى أنه استخدم جداراً كاملاً لرسم تفاصيل بوهيمية شرقية... مانديلا هنا وفيلة زرقاء هناك، وقمر بأبعاد كبيرة مغطس بتدرجات من الأسود والكحلي وصولاً للأزرق الفاتح انتهاءً بالأبيض على سقف الغرفة بحيث يمكن لك أن تستلقي تحت السماء الليلية وأنت دافئ ومسترخٍ في فراشك.

بعد ذلك لم يعد لتلك الغرف أرقام، بل أصبحوا يطلقون على كل غرفة باسم اللوحة التي تحملها.

وبذلك يمكنك استئجار غرفة البحيرة الضبابية أو القمر الأزرق وإن كنت من محبي القلط يمكنك قضاء عدة ليالٍ في غرفة تطل من جدرانها قلط بعيون فضولية تحتبئ خلف أغصان مزهرة.

أما إن كنت جائعاً فاستئجارك لغرفة الحلوى سيزيد من الأمر سوءاً، فمخفوق الكريمة المنسكب من القطع الشهية على الجدران سيوقظ شهيتك كلما هممت بالنوم.

لكن لا تقلق هنالك غرف كثيرة بانتظارك وستجد الغرفة المناسبة لك حتماً.

غرفة الملاك الحائر، غرفة الغيوم، غرفة اللوتس، غرفة بحيرة البجع.

لقد استطاع بحر أن يحول تلك الغرفة الصغيرة لتصبح وكأنها ممتدة على مساحة واسعة ليس على هذا العالم فحسب بل على عالم لطيف آخر .

لقد كان بحر مقتنعاً أن الفن يصبح فناً عندما تمتلك الخيار الأسهل بعدم ممارسته لكنك تختار ممارسته لأنه يمنحك لذة تفوق تعب تحقيقه، بالنسبة له كان ذلك بمثابة قانون شخصي حتى لو كان من الممكن لذلك التعب أن يؤدي بحياته .

كانت زين شبه متأكدة أنها صادفت بحر في مكان ما، إلا أن لحية بحر وشعره القصير والمقصود بعناية وعينه الزرقاء الوحيدة أثارت قليلاً من اللبس لديها .

أما بحر فمن المحال أن ينسى وجهها كان قد رآه، كل ما كان مختلفاً في زين أنها لم تكن بالحوية التي هي عليها الآن وأنها وصلت ذلك اليوم إلى الفندق وهي حليقة الرأس ذابلة الملامح .

لقد صدف أن التقيا في الليلة التي تسبق رأس السنة، وقد حصل في ذلك اليوم أمر بالغ في الأهمية لكل من بحر وزين معاً .

إلا أن الأمور بالغة الأهمية لا يتنبأ بها السناجب أو حتى البشر .

١١١ اللحن التاسع ١١١

لمخاوفك قدرة هائلة في التحول إلى حقيقة

لقد كان الأصدقاء يحاولون قتل الوقت بالأحاديث، يسألون بعضهم بشأن أمور مختلفة كي يتعرفوا على بعضهم أكثر أو ربما كي يعرفوا أنفسهم أكثر، فالبوح بمكونات القلب طريقة ليكتشف الإنسان بها ذاته، كما أن الحديث في هذه الغابة الضبابية المورقة يخفف من وحشتها ويجعل الطريق أكثر سلاسة.

إنهم ككل البشر الذين يمكن أن يقسموا إلى قسمين، قسمٌ قد يحتفظ بشؤونه الخاصة في غرفة عميقة داخل قلبه، وقسمٌ قد يدلي بأشد أسرارهِ خصوصية كأنه كان ينتظر أن يعترف بها بفارغ الصبر كي تخف الحمولة عن عاتقه. بقدر ما قد يكون الحديث مع الغرباء صعبًا بقدر ما يمكن له أن يكون سهلًا، لأنك غالبًا لن تخشى أن يحكموا عليك، حتى وإن صدف ذلك فلن تكترث كثيرًا لأنك غالبًا لن تلتقي بهم خلال سنواتك القادمة، ومن أجل هذا السبب قد تشعر براحة مفرطة عندما تحدث شخصًا ما إلكترونياً ويمكن أن تُسرَّ له بأشياء لم تدر أنها كانت تشغلك حتى اللحظة التي استطاع أحدهم إخراجها من داخلك.

ربما نورسين تحديدًا دونًا عن غيرها ستبقى كثيرًا مع تلك الفكرة، لكنها بذات الوقت لن تعود لتكرارها مرة أخرى، فهي على يقين اليوم أنه يمكن للغرباء أن يكونوا بمثابة خطر محقق قد يداهمك في أي لحظة، والأدهى من ذلك أنه من الممكن ألا يكونوا غرباء، ففي الفضاء الإلكتروني قد تكون في كثير من الأحيان أعمى تمامًا بحيث لا يمكنك أن تميز بين غريب جدًا وقريب جدًا.

لكننا لسنا في الفضاء الإلكتروني الآن، بل نحن في الغابة حيث يمكن لك أن ترى من مسافة بعيدة هالة من البخار تندفع من أفواه أصدقائنا، يمكن لهذه الهالة أن تشعرك برعشة في جسدك لا سيما عند سماعك صوت أنفاسهم اللاهثة، إنهم عطشى قليلًا ومتوترون أيضًا لذلك لا بد لك من أن تسمع صوت ازدرادهم لريقهم إن أنصت أكثر.

كما أن الأرض ندية بحيث يمكن للطين أن يكون زلقًا بشكل مضاعف، لذلك عليهم أن يمشوا بحذر تجنبًا لأي

انزلاق قد يزيد من الأمور سوءاً وهذا ما لم يحسب وسام حسابه فاستدار بحماسة بحيث أصبح وجهه مقابلاً لأصدقائه وظهره للطريق متابعاً تلك اللعبة التي بدؤوا بها ولم يكد ينهي عبارته (ما أكثر ما قد يخيفكم في هذه الحياة؟) حتى انزلق وكاد أن يقع إلا أن حليم مد يده الوحيدة وأمسك بذراعه فتم تلافي الكثير من الضرر وأجابه بعد ذلك بابتسامة جانبية: (إنني أخاف أن تقع مرة ثانية يا وسام).

جميعنا قد نتهرب بطريقة أو بأخرى من هذا السؤال، وذلك إما لأننا على معرفة عميقة بأشد مخاوفنا سوءاً أو لأننا لم ندركها بعد .

إن أكثر المخاوف التي تراود حليم هو أن يبقى وحيداً إلى الأبد وألا يجد يوماً من يمسك بيده كما فعل منذ قليل مع وسام، وربما كان ذلك السبب الأساسي الذي دفعه للتقاطه، وبذلك يكون لدى الإنسان اندفاعاً قوياً لإتخاذ الآخرين فقط لاقتناعه بأن هنالك من سينقذه بالمقابل من أعظم مخاوفه .

اضمحلّت تلك الابتسامة الجانبية لحليم وأخذ وجهه تعبيراً جاداً، لكن من يدقق على جبهته سيرى ارتعاشة قلقة رسمت خطوطاً دقيقة بين حاجبيه . . . وقد أجاب بصدق إنما بصوت خافت مقارنة بعبارته السابقة:
_أخاف أن أبقى وحيداً .

أبطاً بحر خطاه قليلاً وهو ينظر للأفق القريب ثم قال:

_إن المنظومة الأخلاقية في صلبها قائمة على مخاوف الإنسان الشخصية .

أدار رأسه نحو اليمين موجّها حديثه إلى ناي وحليم ثم أكمل:

لا بد أن هنالك حكيم ما في زمن من الأزمنة قام بابتداع طريقة لجعل الحياة مكاناً أفضل .

إن الشر سيجذب شراً والخير سيجذب خيراً ومهما كان لهذه القاعدة من استثناءات إلا أننا سنتجاهلها كأنها أمر شاذ، فقط لأننا نرغب بمزيد من الاطمئنان والحماية .

لا تقتل كي لا يقتلك أحد ما، لا تسرق كي لا يسرقك شخص ما وهكذا . . .

إلا أن ذلك ليس باتفاق يمكنك أن تبرمه مع جهة محددة كما من الممكن الإخلال به في أي لحظة، وعلى الرغم من أنه قد يبدو هشاً في الواقع إلا أنه قوي بشكل غير متوقع.

إننا لا نقوم بذلك من أجل الآخرين فحسب، بل لأنه وفي أعماقنا لدينا إيمان أن هنالك أحد ما في هذا العالم خاضع لذات منظومتنا الأخلاقية، ولهذا الأمر تحديداً قد يقوم بإتخاذنا كرامةً لذلك الإيمان فقط.

لم يجد أي من الآخرين ارتباطاً وثيقاً بين ما أجابه حليم وبين ما قد عقب عليه بحر، ربما لأنهم لم ينتبهوا مثله أن حليم كان أول المندفعين لإنقاذ وسام من الوقوع بمساعدة ذراعه الوحيدة.

حرّكت نسمة قوية من الهواء شعر ناي الأحمر فقالت وقد أغمضت عينيهما قليلاً تجنباً لما قد يسببه الهواء البارد لها من دموع:

إن تصويرك للمنظومة الأخلاقية على أنها وهم قد يكون مبرراً لأسوأ الأفعال على سطح هذه الأرض.

رفع بحر غصناً كاد أن يرتطم برأسه ونجا منه أصدقاؤه لأنهم أقل طولاً:

وقد يكون رادعاً شديداً القوة، بحيث لا يضاهيه أي رادع آخر.

(إذن أنت تقول أن السبب الوحيد الذي يمنعني من قتلكم جميعاً في هذه الغابة هو منظومة وهمية!) أتى صوت وسام من الخلف مرتفعاً قليلاً حيث كان قد أبطأ الخطى في وقت سابق، فاستدار بحر قائلاً له:

بكل تأكيد، لكن للوهم سطوة رهيبية إذا ما اقتنعت به جماعة كبيرة من الأشخاص.

كما ما من جدوى أو فائدة قد تكتسبها من قيامك بقتلنا لذلك ستفضل الإذعان لتلك المنظومة، فهناك قيود نفسية وُضعت داخلك منذ الصغر بحيث ليس بإمكانك الإفلات منها بسهولة، وهذه القيود جيدة فهي التي تسمح للإنسان بأن يطلق على ذاته إنساناً متغنياً بهذه الصفة المميزة.

أما زين فاقتربت من وسام وناي بحيث بدوا لوهلة أنهم على استقامة واحدة على الرغم من أن أفكارهم لم تكن كذلك، فقد عادت زين للتعقيب على سؤال وسام الأساسي عن الخوف قائلة:

لكن على الإنسان أن يواجه مخاوفه وإلا استعبده إلى الأبد، بل عليه أن يندمج بها لأنها بطريقة ما هي جزء منه.

أخفضت صوتها قليلاً وأطرقت رأسها بحيث وقع بصرها عند تلاقي قدميها:

في الماضي خشيت ما قد يحكم به الآخرون عليّ فحاولت في فترة ما أن أشبههم تماماً، لكنني لاحقاً تدرت وأظهرت لهم عدم اكتراثي لأمرهم... إنما في الحقيقة كان هنالك شيء داخلي يكثر حقاً بحيث كنت مشغولة بإظهار ازدرائي وتصنع اللامبالاة.

سألها وسام: تقولين أن ذلك في الماضي، هل هذا يعني أنك تغلبت على مخاوفك؟

هزت زين رأسها ببطء ثلاث مرات: نعم.

وعند المرة الثالثة التقت إليه: لقد أصبحت لا أكثر بإظهار أي شيء، إنني أرغب بالحياة فحسب.

ولا يصل الإنسان لهذه القناعة إلا عندما يكون في مواجهة حتمية مع الموت، عندها فقط يستطيع تحديد ما يرغب به عندما يصبح كلا الخيارين متاحين أمامه.

(هل واجهت الموت إذن؟) سألها وسام من جديد.

هزت زين رأسها مرة أخرى نحو الأسفل وبدأ عليها أنها لا ترغب بمشاركة تجربتها ليس خوفاً من مرارتها إنما لأنها أصبحت خيرة بتذوق الحياة.

(لقد واجهته أيضاً) قال وسام، وقد كان يقصد ذلك اليوم الذي التقى فيه بناي، والتي فهمت إشارته لذلك فأضافت كي تقطع أفكاره دون أن تنظر للخلف:

(كلنا واجهنا ذلك عندما كنا في عرض البحر).

اقترب وسام منها وهو ينظر إليها بشكل جانبي:

(أو ربما في أماكن أخرى).

تساءل وسام بينه وبين نفسه إن كان يشكل مصدر خوف بالنسبة لناي. من الصعب على المرء أن يحدد مخاوف إنسان آخر إن لم يبح هو ذاته بذلك، إلا أنه يستطيع أن يحدد مخاوفه الشخصية وبالطبع لن يباح بها أبدًا، ويمكنكم القول أنه أسرع وطرح ذلك السؤال كضربة استباقية كي ينال وقتًا أكثر لاختلاق إجابة ما فيما لو أعاد أحدهم السؤال إليه من جديد .

حسنًا عليه أن يسأل ناي: ما الذي يخيفك يا ناي؟

ارتعش أنف ناي قليلًا ورفعت خصلة شعرها خلف أذنها بحيث ظهر عنقها واضحًا بالنسبة إليه:
_لا شيء... أظني واجهت أكثر مخاوفي سوءًا.

فكر وسام بأن إظهارها لعنقتها ما هي إلا إشارة بأنها لا تحشاه حقًا لكن ارتعاشة أنفها جعلت الأمور تلتبس عليه قليلًا خاصة بعد أن لامست أرنبتة بحركة سريعة.

هل تكذب أم أنها صادقة حقًا!، وعلى الرغم من أنه كان يحاول أن يبدو لطيفًا معها إلا أن المحاولات المتكلفة قد تأتي بنتائج سلبية حيث قال: ماذا عن الحيوانات المفترسة التي من المحتمل أنها تترصد بنا مستعدة للانقضاض علينا في أي لحظة؟

صدر صوت من الصف الأخير حيث كانت أيل تتوارى عن الأنظار:

_لماذا تبدو خيالاتك دموية دومًا!

إن أشد الأمور إثارة للخوف لا تتعلق بالدماء أو الأتياب الحادة، يمكن للبشر أن يكونوا مخيفين دون أن يمتلكوا ذلك كله.

حاول وسام تغطية مداخلته غير الموقفة وقال: ما الذي يخيفك أنت يا أيل؟

تنهدت أيل تنهيدة قصيرة: ما يخيفني لم يعد موجودًا في هذا العالم.

أضاف وسام: لكن الخوف لا يرتبط دومًا بما هو موجود، قد يغيب مصدر الخوف ويستمر في قدرته على بث

الرعب في قلوبنا .

تنحنحت أيل كأن شيئاً علق في حنجرتها بشكل مفاجئ قائلة: لا أظن ذلك .

كانت أيل تكذب فهي مقتنعة بما قاله وسام، فعلى الرغم من موت زوجها إلا أنها ما زالت تحمل كل ما غرسه من خوف داخلها .

أما سومر فكان لا يرغب بأن يصل السؤال إليه، فقد كانت لديه اعتقادات خاصة حول المخاوف .

إنه ليس على درجة من السذاجة بحيث قد يتصور أن إدلاؤه بمخاوفه لشخص ما قد يحولها إلى حقيقة، بل هو يعتقد أن التفكير المتواصل بها سيجعلها تستحوذ على دماغه فتتحول إلى حقيقة .

إن آخر ما قد يفكر به هو إخبارهم بأنه قد قتل طفلة ما، فلن يغفروا له حتى لو لم يقولوا ذلك، إنه ليس جاهز هذه اللحظة للاعتراف فهو يرغب بالخروج من هذا المكان الذي تلفه الأشجار من كل الاتجاهات وهو بحسب خبراته السابقة لا يتعامل جيداً مع هذه الأماكن، إنها تثير في قلبه شعوراً غير مريح على الرغم من أنه قد تربى في قرية مشهورة بخضرتها المميزة .

قد يتآمرون عليه، قد يقيدونه، وقد يتركونه يموت هنا وحيداً فقط لأنه قتل شخصاً ما عن طريق الخطأ، هذا ما فكر به .

وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك المرة الأولى التي ساهم فيها بموت إنسان ما، لكن عليه ألا يفكر في مخاوفه تلك وألا يسمح بأن تستحوذ عليه من جديد .

ومع ذلك فإن عقله كان يعانده فيذهب إلى تلك الذكرى البعيدة التي حصلت قبل عدة سنوات من اليوم، حيث كان يحضر نفسه للاحتفال مع ليلي بذكرى حبهما معاً .

لقد قضى وقتاً طويلاً في التحضير لتلك المناسبة الاستثنائية، إنه يحب ليلي منذ سنوات طويلة . . . منذ المرحلة الابتدائية عندما كان ينتظرها بالقرب من مدرستها ويرافقها إلى المنزل، وهذه الذكرى تعود لليوم الذي اعترف لها

بحبه، لذلك كانت ذكرى يجدر الاحتفال بها بشكل لائق .

كانا قد اتفقا أن تعد ليلي الطعام في مخبئتهما السري، أن يجلسا معًا حول مائدة الطعام بحيث تحيط بهما الشموع من كل جانب وأن يقدم لها هديته التي استغرق وقتًا طويلًا في صنعها .

لقد أعد من أجلها صندوقًا خشبيًا مُنجدًا بلوحة مخملية لطاووس ذو ألوان زاهية، إن هذا الصندوق الكبير مناسب كي تحتفظ فيه بالثياب التي تحيكها استعدادًا ليوم زفافهما .

إنه يعلم أن الموعد ليس بقريب، لكن ذلك ليس بمشكلة فليلي ليست سريعة في الحياة .

لقد عقد سومر العزم على أن يتناولوا الطعام في البداية ثم يذهبا للجلوس بقرب النهر حيث يمكن أن يتوسدا العشب ويحكما معًا بما يمكن أن يضعاه في صندوقهما الخشبي .

فكر بالمفرش المطرز والوسائد التي قد يحلو ليلي أن تضعها على سريرهما الخاص .

فكر بالأثاث الطويلة والرقيقة، وبكل تلك الأقمشة التي لا يعلم تسميتها لكنه يعلم أن ليلي تجعل منها أجمل .

يمكن لهذا الصندوق أن يتسع للكثير من الأشياء الجميلة، يمكن أن يتسع لحلمهما معًا ولذلك لم يكن خفيًا فقام بوضعه على عجلات بغية الوصول إلى البيت المهجور حيث تنتظره ليلي .

كانت تعلق وجهه ابتسامة وهو يفكر طيلة الطريق بسعادتها، وبوجهها الذي سيتألق لحظة رؤيتها الصندوق وبصوتها وبعناقها .

كان باب البيت المهجور يصدر أزيزًا عاليًا بسبب مفصلات الصدئة ولذلك حاول سومر أن يفتحه بهدوء شديد كي يدخل الصندوق بأقل جلبة ممكنة قبل أن يكشف ليلي عن مفاجئته .

دفع سومر العجلات التي تحمل الصندوق عبر الباب الذي افتتح على غرفة كبيرة خافتة الإضاءة حيث كانت تتألق فيها شموع كثيرة منعكسة بنارها الدافئة على أقمشة من الشيفون كانت ليلي قد عقدتها على مساند الكراسي الخشبية .

لكن العجلات علقت بشيء ما ولم تتقدم للأمام، فقام سومر بسحبها نحو الخلف كي يغير من مسارها قليلاً وأثناء ذلك رأى لوناً أحمر رسمته العجلات أمام عتبة المنزل الخارجية . . . خطين متوازيين من اللون الأحمر، فما كان منه إلا أن ترك الصندوق المحمول على العجلات خارجاً ونادى على ليلي متقدماً نحو الداخل .

شعر بلمس لرج تحت قدميه، فأنحنى ولامس ذلك السائل بطرف سبابته ومستعيناً بالنور الخارجي تأكد أن إصبعه ملطخ بالدم .

سمع صوتاً من قاع الغرفة يقول له بصوت متردد: (سومر . . . أنا هنا)

لَوَّح وسام بيده أمام وجه سومر الذي بدا أنه شارد الذهن تماماً، فكرر سؤاله للمرة الثانية: ما الذي يخيفك؟
حدق سومر بنظرة جامدة وعينين مفتوحتين بشكل مبالغ به ثم ابتسم ابتسامة غير صادقة ليغسل ملامحه السابقة والذكرى التي مرت أمامه قائلاً لوسام: (العفاريت إنها العفاريت حتماً . . . لقد كانت تظهر لي في كل الأماكن المهجورة التي حللتُ بها) .

لم تكن تلك دعاية، فسومر يعلم بكل تأكيد أننا لم نعد صغاراً . . . فالعفاريت والجان والساحرات الشريرات كانت ترعبنا في فترات سابقة، وإن تلك الكائنات الخرافية التي تحولت بطريقة ما إلى مخاوف حقيقية ستكشف لنا عن نفسها مع مرور الوقت .

لله اللحن العاشر لله

غرفة لا تخص المرء وحده

ما زال السنجاب يتابع الأصدقاء وقد كان بإمكانه رؤية طريق الخروج من خلال نظرة سريعة بين الأغصان العالية إلا أنه لن يخطر بباله قط أن هذا ما يرغبون به حقاً، فمجرد التفكير بالانتقال بعيداً إلى ذلك المكان الذي لا أشجار فيه . . . يخيفه .

كيف بإمكان هؤلاء الابتعاد عن جنة الثمار اللذيذة والأوراق الخضراء ولحاء الشجر!

سقطت حبة البندق من يد سنجابنا، وقطعت مسافة طويلة لتصل للأسفل، لكنها ارتطمت ببركة صغيرة من الماء بالقرب من نورسين التي انتهت إلى الرذاذ المتطاير ثم رأت حبة البندق تطفو على سطح الماء .

فعادت الذكريات بها إلى منزل عائلتها عندما كانت تجلس أمام ماكينة الخياطة لتحيك ثوباً لمريم في غرفتها القديمة التي قضت فيها طفولتها ومراهقتها قبل أن تزوج، وقد عادت لتقيم فيها بعد انفصالها .

كانت تحرك قدمها بسرعة كبيرة على الرغم من أن ذلك الثوب لم يكن عملاً مستعجلاً بل كان مجرد عمل سريع لتشتت تركيزها، أما أصابعها فكانت تنجو بأعجوبة من الإبرة التي تعلو وتنخفض بسرعة غير متوقعة، لا سيما حينما كانت تسترق النظر خارج الغرفة عبر بابها المفتوح حيث كان يهب النسيم فيرمي ثمرات ناضجة في ماء النافورة المضلعة التي تتوسط ساحة المنزل الداخلية المكشوفة بأكملها من مكان جلوسها .

إنها تولي اهتماماً خاصاً لتلك الأشياء التي تغرق ثم تطفو.

وبالرغم من كل ذلك الضجيج كانت مريم نائمة بوداعة في سرير ذي سور عالٍ مدهون بلون أبيض ومغطى بقماش غربي رقيق، يظهر من خلفه كفاها الصغيران المستسلمان بهدوء على جانبي رأسها .

بعد أن أنهت نورسين الدرزة الأخيرة، قطعت الخيط بأسنانها عوضاً عن استخدامها المقص ثم مددت الثوب

على حافة السرير وهي تتأمل ابنها متسائلة عن المرة الأخيرة التي استسلمت فيها كمرمٍ لشيء ما تجهله تمامًا .
في ذلك اليوم كان قد انقضى على انفصالها وقت لا بأس به توقفت عن حسابه منذ فترة طويلة وإن ذلك يعد
مؤشراً إيجابياً نوعاً ما .

يمكننا القول أنها قد مرت تقريباً بمعظم المراحل التي تلي أي انفصال بدءاً من تلك المرحلة التي يصعب فيها على
المرء تصديق أنه انفصل عن شخص اعتقد أنه سيبقى معه طيلة حياته، وانتهاءً باللامبالاة... ذلك بالطبع إن
كان الإنسان ذكياً بما فيه الكفاية .

المرحلة الأولى هي الأكثر صعوبة وألمها كله ينحصر في دقائق ما بعد الاستيقاظ عندما يبدأ المرء بتذكر كل ما
حصل له دفعة واحدة، ويمكن اعتبار الإدمان سبباً رئيسياً في ذلك الألم كله .

فالعقاقير ليست أشدّ المخدرات خطورة بل يجب تصنيف إدماننا على البشر في المرتبة الأولى قبل الأفيون
والهيروئين والكوكايين، ومن خلال ذلك فقط يمكننا أن نفهم سبب تعلق الإنسان بشخص يجعل حياته أكثر سوءاً .
في المرحلة التالية يبدأ الإنسان بمقارنة حياته بحياة شريكه الذي انفصل عنه، وكلما بدا شريك حياته السابق أكثر
سعادة كلما حل لديه شعور عارم بالغضب عوضاً عن الألم النقي السابق .

لقد كانت نورسين تفقد صفحة والد ابنها كل يوم، فتراه مع زوجته الجديدة في صور كثيرة وأماكن متعددة، وإن
الذي كان يجعلها أكثر سخطاً هو إذعان زوجها لأمر ما كانت هي لتتجراً أن تناقشه بها .

قد يكون من الصعب في تلك الفترة أن تفهم أن معظم الرجال يصبحون أكثر سلاسة في العلاقة الثانية، فحتى لو
كان المجتمع متساهلاً مع الذكور أكثر إلا أنهم لن يفلتوا بسهولة بطلاق آخر .

إن الرجل يصبح على دراية تامة أن الطلاق الثاني سيكون بمثابة إثبات أنه كان المذنب الحقيقي منذ البداية،
وبذلك يكون التساهل والإذعان حله الوحيد للهروب من تلك التهمة، وإن هذا الأمر وحده قد يجعل شريكه
السابقة تقع في فخ المرحلة الثالثة وسرعان ما ستشعر أن الذنب ذنبها وتبدأ بجلد ذاتها .

ستقع في دوامة (لو) وستدور وتدور فيها وهي تتساءل:

ماذا لو اهتممت بنفسى أكثر؟

ماذا لو أنجبت طفلاً آخر؟

ماذا لو قصدنا معاً معالجا متخصصاً محل المشاكل الزوجية؟

ماذا لو خضعت لجراحة تجميلية؟

ماذا لو لم يتعرف على تلك المرأة؟

وستنتهي تلك الأسئلة دوماً بسيناريو قد يبدو أفضل من الواقع ولذلك لا يمكن تصنيف تلك الحالة إلا أنها مرحلة انتكاسٍ يوهم الإنسان من خلالها أنه كان من السهل جداً تغيير الأمر بافتراض بسيط يغير مجرى الأحداث، وفي بعض الأحيان قد يسعى فعلياً لذلك محاولاً مد حبل ود من جديد إلا أنه غالباً سينتهي به المطاف في المرحلة الأولى.

في حالة من اللاوعي كانت نورسين تنقر خشب السرير برؤوس أصابعها عندما اهتز هاتفها بإشعار إلكتروني، وعلى الرغم من ذلك لم تستيقظ مريم بل حركت رأسها للجهة الأخرى فحسب.

لقد كانت تعلم مصدر ذلك الإشعار، فجهازها المحمول لا يحمل إشعارات إلا من شخص واحد، وقد كانت شبه متأكدة أن تلك الرسالة ما هي إلا لتأكيد مواعدها الأول معه.

وبذلك يمكن فهم حركة قدمها السريعة وقررها على الخشب برؤوس أصابعها. لقد كانت قلقة بحيث لم تنتبه أن ذلك الضجيج قد يوقظ ابنها من النوم.

في ذلك الوقت كانت نورسين قد قفزت بسرعة على مرحلة التعافي الذاتي دون أن تعطي المرحلة الرابعة حقها مقتحمة بذلك المرحلة الخامسة من مراحل الانفصال لتبدأ من جديد مع شخص آخر.

كانت قد تعرفت إليه في اليوم الذي تجرأت فيه على إخراج إحدى قصصها التي كانت قد كتبتها سابقاً إلى النور

في إحدى المنتديات الأدبية الإلكترونية.

كان تعليقه مهذباً، ويحمل إطرأً لطيفاً وقد منحها شعوراً غير عادي بأنه أصبح جزءاً من تلك القصة وأنه تمكن من رؤية ما لم يتمكن أحد من رؤيته.

تكرر الأمر عند نشرها لقصة ثانية وثالثة ورابعة فدفعها فضولها ذلك الحين لمعرفة المزيد عنه وتفقدت صفحته بحذر.

لقد كان يبدو شخصاً حقيقياً، يستخدم صورة شخصية واحدة كان قد وضعها منذ عام، لا يظهر عليها أي تعليق مما أعطى انطباعاً لدى نورسين أنه شخص لا يهتم بمعرفة آراء الآخرين حول مظهره.

إن أسنانه اللامعة تؤكد على اهتمامه بنظافته الشخصية، وبزته الرسمية توحى بأنه شخصية تميل للتألق في العديد من المناسبات، كما أن غياب ربطة العنق جعلها تشعر أنه شخص لا يضيق الخناق كثيراً على نفسه وأكد على ذلك الزر الأول من قميصه.

وعلى الرغم من الخصلة البيضاء التي تغزو مقدمة رأسه إلا أنه يبدو شاباً، وهذا ما جعلها تتساءل عن سبب إخفائه يوم ميلاده.

لا يوجد الكثير من الصور في صفحة الرجل ذي الخصلة البيضاء، إلا أنه هنالك الكثير من الكلمات.

بعضها اقتباسات وبعضها تم تذييلها باسمه الشخصي، إلا أن جميع ما كُتب كان يميل إلى البحث في جوهر شعور الإنسان، كانت كلماته سلسلة دوماً بحيث يمكن أن تصف الحالة الشعورية لأي شخص في هذا العالم بدقة متناهية.

لم يكن يتابع الكثير من الصفحات الشخصية إلا أن بعضها تعود لفتيات جميلات، كانت نورسين تقضم باطن فمها عند تصفح صورهن الشخصية وحالاتهن الاجتماعية، وقد كان فضولها يدفعها للاستغراق في البحث طويلاً بحيث لم تكن قادرة على تحديد نقطة البداية.

لقد تغيرت الكثير من الأشياء لحظة اقتحام الرجل ذي الخصلة البيضاء حياتها عندما أرسل لها طلب صداقة.

أصبحت نهايات قصصها تميل إلى التفاؤل، وباتت قادرة على رؤية الجمال في أكثر الأمور اعتيادية.

لكن الأهم من ذلك كله كان شعورها تجاه نفسها، لقد بدأ شعورها بأنها غير كافية وغير مرغوبة بالتلاشي تدريجيًا.

أصبحت تحب نفسها أكثر منذ اللحظة التي أكد لها الرجل ذو الخصلة البيضاء أنها غير مذنبه وأنها قد فعلت كل ما بإمكانها فعله لإيقاظ زوجها السابق.

وعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون مقتنعًا في أعماقه بصحة أمر ما، إلا أن وجود شخص يشد على يده سيحوّله بغمضة عين من الشك إلى اليقين.

لقد تغير مظهرها أيضًا، فقدت الكثير من الوزن الذي عجزت عن فقدانه سابقًا، باتت بشرتها أكثر إشراقًا وأصبح لديها سبب لتستيقظ من أجله كل يوم بسعادة دون أن تشعر بإجهاد ما بعد الاستيقاظ ودون أن تحمل في جوفها ذلك الفراغ الأسود طيلة النهار.

التقطت نورسين هاتفها المحمول وتفتت الإشعار فما كان إلا منشورًا قام هو للتو بنشره:

يقال أن الحب يجعل النساء أجمل، فإن أردت أن تكشف عن مكونات قلب إحداهن عليك بتأملها، فالحب يسيل دومًا على الوجه لينفجر ورديًا بين الشفتين ويملأ الخطوط الدقيقة حول العينين.

هو يجعل خصل الشعر متناغمة كأنها سُرّحت بأصابع حبيب ربما لم يلمس منها شعرة واحدة.

تنظر إلى العاشقة فتشعر أنها غريبة عن ملاحظها دون أن يتغير فيها شيء تستطيع تحديده...

هو الضوء الذي لا يمكن إلا أن ينسكب من الداخل إلى الخارج، وهذا الضوء من دون أي قصد قد يجذب رجالًا أكثر منهم لم ينتبهوا للمرأة إلا بعد أن أثارها رجل آخر.

ابتسمت عندما قرأت تلك الكلمات، وشعرت بالرضا لأن هنالك شخص واحد في هذا العالم يهتم لأمرها ثم وضعت الجهاز المحمول تحت الوسادة واتجهت للباب الآخر للغرفة.

إن منزل عائلتها من البيوت القديمة حيث يمكن للغرفة الواحدة أن يكون لها أكثر من باب إضافة لنوافذ بدعومات خشبية مربعة تطل على ساحة واسعة تفوق مساحتها في كثير من الأحيان مساحة المنزل .

كان الباب الآخر يفضي إلى غرفة المؤونة حيث كانت تخبئ في أحد الأركان الأشياء التي لا ترغب بأن يصل إليها أحد سواها .

أخرجت منها كيساً ورقياً يحوي داخله شيئاً رقيقاً ثم انسحبت عائدة إلى غرفتها، حيث أفرغت محتوى الكيس في حقيبة السفر التي بدأت بإعدادها منذ الليلة السابقة .

قامت بفرك راحتي يديها بعد أن وضعت المزيد من الأغراض في الحقيبة، ثم وقفت بالقرب من سرير مريم التي بدأت بالتحرك رافعةً يديها لتمسك بالنجوم المتدلية من الأعلى أو ربما لتمسك بوجه والدتها .

إن الصغار في مراحلهم المبكرة يعاملون والديهم على أنهم نجوم فعلاً، لكن ماذا لو عرفت مريم أن والدتها ستبتعد عنها الليلة ولعدة أيام .

حملت نورسين مريم بعد أن قبلت وجنتيها ووضعتهما بالقرب من ألعابها والتفتت جهازها المحمول من جديد، وأثناء انشغالها به زحفت مريم باتجاه الحقيبة وبدأت بإخراج محتوياتها حتى وصلت إلى تلك القطعة التي أخفتها والدتها .

أمسكت بكفيها الصغيرين ثوباً أبيض اللون بأكمام عريضة من الشيفون المرصع بأحجار لامعة والتي أغراها بريقها لتقربها من فمها، فبطريقة غريبة يتعرف الأطفال عما حولهم عبر أفواههم .

لكنها لن تكشف من مذاقها أن تلك الأحجار ستألق على جسد والدتها عندما تلتصع الأضواء من حولها وهي تجلس أمام الرجل الذي تحبه .

مازالت صغيرة جداً على تذوق الأفكار أو الكلمات، لكن بإمكانها أن تعرف من رمي والدتها ذلك الشيء المستطيل الذي تحمله كثيراً بين يديها أنها ما زالت تحوز على الاهتمام الأكبر . لا سيما عندما رفعها نحو الأعلى ودارت بها عدة دورات بعد أن أعادت الأغراض لحقيبة السفر من جديد .

يمكن لمريم أيضاً أن ترى بعينيها ذات الأهداب الطويلة الغرفة وهي تدور من حولها وقد تشعر بلعابها يسيل على كف والدتها التي تنفوه بأصوات أكثر تعقيداً من الأصوات التي تصدرها هي كما ستشعر بلمس سبابة والدتها وهي تداعب أنفها الصغير.

لكن سيصعب عليها أن تفهم أن تلك الحركات التي تقوم بها والدتها على سجادة ذات ألوان زاهية هي حالة تضرع من أجل الغفران، وعلى الرغم من أنها لن تتمكن من فهم دموع والدتها إلا أنها ستشاركها البكاء كحالة من الالتحام الشعوري لأن الطفل في تلك المرحلة لا يدرك بعد استقلاله ككيان خاص.

حتى نورسين نفسها لن تتمكن من فهم ماهية الشعور الذي اتابها، لكن لوهلة ظنت أنها وقعت ضحية ذلك الإحساس الجميل الذي نستدعي أفكاراً بائسة من أجل تخريبه.

إنها تعيش حالة من التناقض ذلك لاعتقادها بأنه على الأمهات أن يضحين دوماً بسعادتهن من أجل أطفالهن. ولذلك لن تشعر بالرضا التام إلا إن كانت تعاني من بؤس ما وذلك لا يتطابق مع الحماسة والسعادة التي غمرتها في وقت سابق حيث كانت كل الظروف مواتية ليتحول اللقاء الإلكتروني مع صاحب الخصلة البيضاء إلى لقاء حقيقي.

فإن أخاها غائب عن المنزل لأداء خدمة العلم ولذلك كانت هي المرشحة الوحيدة للسفر لإقلاق الجدة كي تقضي العيد معهم، والتي كانت تقطن في ذات المحافظة التي يقطن فيها صاحب الخصلة البيضاء.

من الغريب كيف يمكن لأجهزتنا المحمولة أن تغير مصائرنا، وكيف يمكن لها أن تكشفنا بعينها الوحيدة التي تحرق بقلوبنا على الرغم من عدم قدرتها على الرؤية فتكشف بكل سهولة المنازل التي نرغب في أن نقطنها، ذوقنا في الملابس، الكتب التي نقرأها والأفلام التي نرغب بمتابعتها.

الأمر يشبه أن تستقبل شخصاً في غرفتك، أن تجلسه على أريكته وتسمح له باستخدام مناديلك وكوبك والاستماع لأغنيته المفضلة.

وعلى الرغم من أن هنالك الكثير من الخداع والكذب في تلك الغرف الزرقاء إلا أنه على جانب آخر هنالك

الكثير من الصدق، وفي أحيان كثيرة قد تكون تلك الغرفة هي السبيل الوحيد لمعرفة شخص ما .

قد تكون الطريق السحري الذي يمكنك من خلاله معرفة قلبه، لا سيما أنها مبنية على أكثر ما قد يشغل الإنسان ويحيره ويؤرقه، الأفكار والمشاعر .

ما الذي تفكر به ؟ ما هي مشاعرك الآن ؟

هل أنت غاضب أم حزين، أم أن ما تراه يجعل إحساسك يتدفق لدرجة تود بمعاقته .

وما من داع للقول كم أن الإنسان تواقٌ دائماً لأن يُكتشف، أن يكون محور الاهتمام ولو لشخص واحد على سطح هذا الكوكب .

إن لذلك غواية خاصة بحيث تجعلنا نكشف أنفسنا في بعض الأحيان أكثر مما هو مطلوب، وإن لذلك خطورة لم تتمكن نورسين من إدراكها في وقت مبكر فكل ما كان يشغلها ذلك الحين الطاولة التي قد تجمعها مع الرجل الذي تنوق اللقاء، تسريحة شعرها ومساحيق تجميلها وثوبها الأبيض والكلمات التي تخيلت أنها ستقولها له .

كانت تخشى أن يخونها التعبير وألا تستطيع أن تبدو بذات الجمال والصدق التي يمكن لها أن تبدو بهما من خلف الشاشة .

إنها حالة من القلق التي تنتاب المرء بالأشبه ذاته الافتراضية أو ألا يحاكي توقعات الطرف الآخر وذلك سيكون مخيباً لكلا الطرفين على حدّ سواء .

إن ذلك كله شتت انتباه نورسين التي كان من المفترض بها أن تقلق بشأن شيء آخر .

شيء على الرغم من أنه كان غاية في الوضوح إلا أنها غفلت عنه كلياً، فما حصل في ذلك اليوم عند لقاءها صاحب الخصلة البيضاء كان مخالفاً لكل توقعاتها .

لله اللحن الحادي عشر لله

لن تكمل إلا إن كنت ناقصاً

كانت زين تنفس ببطء شديد، تأخذ شهيقاً عميقاً وتزفر بعد ذلك نفساً طويلاً وعلى الرغم من برودة الجو من حولها إلا أن الهواء على درجة عالية من النقاوة بحيث لم تستطع أن تفوت فرصة الاستمتاع به.

يمكننا القول أنها الوحيدة من بين أصدقائها التي تستمتع بالحظة الراهنة مهما كانت تبدو مخوفة بالمخاطر.

وإن هذا الأمر ليس بجديد عليها فقد سبق أن تعلمته من غواتاما قبل وقت طويل خلال رحلة خاضتها لتتمكن من الخروج من شرفقتها.

بدأت تلك الرحلة في الليلة الأخيرة قبل رأس السنة حيث كان كل شيء يبدو مثاليًا وكأنه أُعدّ من أجل بداية جديدة.

الأطفال يشنون كبطاريق متمايلة، مثقلين بطبقات من القطن والفرو والمعاطف المطرية، ممسكين بعكازات من السكر الأحمر بين أصابعهم الدبقة، وعلى ما يبدو إن هذه العكازات هي التي تعينهم على المشي وتمنعهم من التذمر لحملهم كل هذه الطبقات على أكافهم الصغيرة.

ذاتهم هؤلاء الأطفال يطوفون بعواماتٍ مقلية وحلوى الجوز وكحك السمسّم لينسوا تعب الأيام الرمضانية، مثلهم مثل الأشجار التي تحمل في موسم أجراساً وكراتاً ملونة، وفي موسمٍ آخر فوانيس وخرافاً مضيئة.

كانت زين تجلس على كرسي وثني جذعها على ركبتها سائدةً ذقنها المتعب براحة يدها في صالة الاستقبال، متأملة كل ما حولها لا سيما ذلك الطفل الذي يلعب بطائرة مزودة بجهاز تحكم عن بعد.

كانت الطائرة تُحلّق حول ثُريّات بشكل غيمات من الديكرون مزينة بدمعات كريستالية مضيئة فوق كل طاولة من الطاولات الخشبية داخل المطعم.

يغير الطفل اتجاه جهاز التحكم فتتجه الطائرة نحو منصة قائمة في صدر المكان، يتوسطها كرسي سُنْدَ عليه عودٌ خشبي. فكرت زين أن هذه المنصة ستصيح بالموسيقى غداً لكنها لن تكون هنا لتري الأجواء الاحتفالية.

تحوم الطائرة فوق شجرة الميلاد المنتصبة في إحدى زوايا المطعم لكنها تتخذ اتجاهًا غير موفق هذه المرة فتصطدم بطبق أحد زبائن المطعم، تدارك سيدة ترتدي مَزْرًا الوضع وتمنح قطعة من الحلوى للفتى ماسحةً بيدها على رأسه وتأخذ منه جهاز التحكم، إنها مقايضة لطيفة نوعًا ما مقارنة بالأذى الذي كان من الممكن لهذا الطفل أن يحدثه.

لو لم تأخذ تلك السيدة طائرة الطفل لكانت ستستمر بالطيران في أرجاء المكان، ولو كانت هذه الطائرة مجهزة بكاميرا لأرّتنا المزيد.

كوجه عاملة الاستقبال الذي أشرق عندما وجدت مفتاح الغرفة الأخيرة الشاغرة في الفندق، ولسمعنا رنة المفتاح وهو يصطدم بحمالة المفاتيح بينما خاطبت العاملة زين:

(إنها غرفة اللوتس، الغرفة الأخيرة المتاحة لكنها ستروقك . . . الطابق الثاني، أول غرفة في بداية الممر).

ولرأينا زين تبتسم ابتسامة متعبة هامسةً (شكرًا).

ولربما استغربنا من محاولة عاملة الاستقبال لأن تكون على درجة عالية من اللطف والود وهي تميل بجذعها قليلًا على الحاجز لفصل بينها وبين زين لتسألها إن كانت تحتاج مساعدة لحمل الحقائب أو لوجبة ساخنة.

ومسقط خلفي يمكننا أن نرى حقيبة زين الصغيرة وغير المنتفخة والتي ارتفعت قليلًا أثناء رفع زين كفيها لتُثبت أن حقيبتها خفيفة ولا تستدعي المساعدة.

تذكر عاملة الاستقبال رقمًا ثلاثيًا يمكن لزين الاتصال به لتوصي على وجبة الديك الرومي، رقم غاب عن سمع زين لأنها لم تكن تنوي طلب أي طعام بالرغم من أنها لم تأكل شيئاً منذ البارحة.

بمسقط علوي تظهر زين وهي تصعد على الدرج الخشبي الملتوي الحلزوني والذي يُضاء تلقائيًا عند صعودها على كل درجة فيلتمع رأسها الحليق تحت الأضواء وتبدو هالاتها السوداء مائلة للزرقة تحت ذلك الضوء الأبيض.

كانت زين قد اعتادت على معاملة البشر الاستثنائية لها هذه الفترة، لقد كانوا يمدون لها يد المساعدة ليس من باب المعرفة أو المحبة وإنما من باب الشفقة وكان ذلك يثير استياء زين، إن تلك الشفقة كانت تجعلها ترفض أي يد ممدودة حتى لو كانت بأمس الحاجة إليها.

لم تكن تحمل الكثير من الأغراض معها فهذا المكان سيكون محطة ليلة واحدة فقط والمكان الذي ستجبه إليه لم يكن يحتاج أن تنقل كاهلها بحمل أغراض كثيرة للوصول إليه.

لقد كانت تعتقد أن الإنسان القديم نجح في ترحاله ونجا من الحيوانات المفترسة فقط عندما كان رشيقاً خفيفاً، ولو أصر على حمل (كراكيبه) الكثيرة لهلك لا محالة، وما زال الأمر يبدو بنظرها صحيحاً حتى لو توقف الإنسان عن الترحال.

عندما أدارت المفتاح الكهربائي أدركت لماذا دُعيت هذه الغرفة بغرفة اللوتس، فقد كانت تطفو عدة أزهار من اللوتس على مياه صافية مرسومة بطريقة احترافية.

كانت إحدى الزهرات في الخلفية منقوصة، لم تدري زين إن كانت منقوصة عن عمد لكنها وبطريقة غريبة شعرت أنها تشبهها تماماً، فبدت لها كزغوة حلبيبة بيضاء تحاول ببتلات ناقصة أن تطفو على سطح الماء الزرقاء الصافية.

كانت زين تقف أمام الجدار وهي تضم قبضتها إلى صدرها، وسرعان ما انسلت أصابعها من بين أزرار معطفها نحو الجهة اليسرى.

مهما تقدم بها الوقت لن تظن أنها ستعتاد على ذلك، لكن لا بد لها من المحاولة.

خلعت ثيابها واتجهت صوب المرأة التي أظهرت جسدها بالكامل. مررت سبابتها على عنقها ثم لامست ذلك الجرح.

إنه بالطبع لم يعد مؤلماً بعد كل هذه الفترة الطويلة من الاستئصال والعلاج الكيميائي والإشعاعي.

لكن بمجرد لمسه كان لعبها يتجمع في فمها، ويرسم عقدة ألم بين حاجبيها ويجعل أسنانها تصطدم ببعضها بقوة. تحاول تجاوز ذلك الشعور وتتابع تلمس جلدها. لا يوجد أي تنوء أو نسيج شحمي بل مجرد قطب جراحية أفقية مائلة قليلاً.

كانت تعلم طيلة حياتها أنها شخص لا يميل إلى التميز مظهرًا، فلم ترتدي عقدًا أو ثوبًا ولم تضع مساحيق تجميل ولم تزين شعرها بشكل مبالغ به.

لكنها خلال تلك الفترة الماضية تمنّت لو أنها فعلت كل ذلك، تمنّت لو ارتدت ثوبًا يكشف عن عنقها الذي يمكن لها أن تزينه بعقد يتدلى حتى صدرها دون أن تشعر أن هنالك جزءًا ناقصًا منها.

وحتى الطفل الذي لم تفكر يومًا بأن تنجبه شعرت برغبة بإنجابه وإرضاعه.

تساءلت كيف من الممكن أن يكون ملمس أنفاسه ويديه الصغيرتين وهو متشبث بصدرها، لن يكون بوسعها التأكد من مدى صحة أقوال النساء حول ذلك الدفق العميق من العواطف الذي يسيل من قلبها كالحليب المنساب عبر فمه الصغير.

لم تعتقد لوهلة أنه قد تملكها الحسرة لعدم قدرتها على تجربة الألم الذي يلي ظهور أسنان طفلها عند شعوره بالشبع، وامتلاكه القدرة لإحداث ردة فعل مؤلمة لأحدهم ليلفت الانتباه لوجوده في هذا العالم.

كانت قد اتخذت منذ زمن بعيد قرارًا بعدم إنجاب طفل، ليس من باب كره الحياة إنما اختصارًا للقليل من الألم إلا أن الذي حصل لاحقًا جعلها غير متأكدة من قرارها.

إننا نفكر بشكل كبير حول كل ما قد فقدناه حتى لو لم نكن مبالين إلى تقديره أو استخدامه .

قد تكون زين اتخذت قراراً بعدم الإنجاب اندفاعاً من غرور بأنها تملك القرار إزاء ذلك .

إن القرار في هذه الحالة قد يبدو على درجة عالية من البساطة كارتداء ثوب يكشف مفاتها أو عدم ارتدائه
إرضاع طفل قد تنجبه أو عدم إرضاعه .

لكن اتابها شعور مزعج من امتلاك جسدها القدرة على تحطيم ذاته، كيف يمكن لهذا الجسد أن يفنى بدءاً من مصدر وجوده!

كيف يمكن لخلل بسيط في الحمض النووي أن يحوله من شعلة للحياة تحمل كل تفاصيلنا إلى سبب انطفائنا وموتنا .
إن الألم الأكبر لا يكون جسدياً بقدر ما يكون نفسياً، وكأنه تم خذلاننا من قبل الشيء الوحيد الذي آمنّا بوجوده
واعتمدنا عليه دوماً للنجاة .

سمعت زين موسيقى تتسرب إلى آذانها عبر الخشب الذي أصدر صوتاً عندما تحرك شخص ما في الأعلى مما
قطع عليها أفكارها، وتمنت في سرها لو يتوقف ذلك الضجيج فلا بد لها أن تنام جيداً لتستيقظ قبل بزوغ الفجر .
ارتدت ثياب منامتها وانسلت تحت الغطاء ثم جذبته نحو رأسها حتى غطى جزءاً من أنفها، إن الشعور بالدفع
سيحرضها على النوم حتماً .

بدأت تشعر بثقل أجفانها واسترخاء عنقها، لكنها رأت غواتاما وهو يطفو على ذلك الحائط فوق زهرة اللوتس
جالساً بطريقة المعتادة، كان وجوده في تلك الغرفة غريباً لكن منسجماً بشكل فائق .

شعرت أن الحائط يقترب منها وأنها أصبحت جزءاً من تلك اللوحة وكأنها تغفو على الماء بالقرب من معلمها الذي
كان يمسح على رأسها الحليق ويخبرها تلك القصة التي لطالما بثت في قلبها الأمل:

بعد فترة طويلة من الطوفان الكبير فكرت الملائكة بخطة ترميمية لحو بؤس الإنسان من هذا العالم، عوضاً عن محوه بشكل مخصص.

ومن أجل هذه المهمة السامية وفي إحدى بقاع الأرض تم افتتاح متجر من نوع خاص وغير متوقع.

إنه متجر لكل ما قد يبحث عنه أي إنسان.

يمكنك أن تجد في هذا المكان إكسير السعادة مترقراً داخل قوارير، إنه عذب ومخمر جيداً، وبللمحة سريعة على تاريخ الصنع ستري بوضوح أنه يعود إلى زمن بعيد جداً، إنه يعود إلى عدة أعوام قبل السقوط من الجنة.

على رف آخر ستجد مسحوقاً سحريراً براقاً معبأ في أكياس شفافة يمكن أن تنثر محتوياته في وجه أولئك الذين أمتهم وبلحظة سينسون كل عذاباتهم معك، الشرط الوحيد لعمل هذا المسحوق هو ألا تكون لديك نية لإيذائهم من جديد وبذلك يمكنك البدء وخلق فرصة أخرى عوض تلك التي لم تغتنمها معهم منذ البداية.

هنالك رفوف تحمل شموعاً بقياسات وألوان مختلفة. في البداية قد تبدو لك ككل الشموع المهيئة لتبديد الظلام وهذا صحيح مع فرق بسيط أنها تتعامل مع ظلام من نوع آخر غير ذلك الذي يمكن أن تعرف عليه بجواسنا. يمكنك إشعال شمعة واحدة في كل مرة تشعر فيها بالظلام داخلك وستترك على نحو غير مألوف، إنها شموع مضادة للسوداوية.

أسطوانات سجل عليها موسيقى لحو آثار الكلمات المؤذية من أذنيك.

عصيّ من البخور تنطلق منها حبال ضبابية تنسل بهدوء إلى بلعومك وتغسل غصبات حزن قديمة جداً بحيث أنك لم تعد تذكر أنها موجودة ثم تنتقل لتغمر دماغك جاعلة إياه أكثر صفاء.

قفازات لاستعادة اللمسات التي أحببتها دوماً، إنها تعيدك إلى لحظة الأمان التي يمكن لك أن تكررهما إلى الأبد.

قلادات سحرية تحمي القلب من أية مشاعر غير صادقة، بحيث تصعقك صعقة خفيفة عند اقترابك من إنسان قد يؤذيكَ، وتوهج لضيء وجهك وتجعل عينك تألقان لحظة مرور الشخص الصحيح.

رذاذٌ مطعمٌ بالنعناع وبكل الكلمات الجميلة التي ينبغي لك أن تقولها في الزمان المناسب وللأشخاص المناسبين. في ذلك المكان هنالك عقاير لكل شيء... لل خوف والشعور بالذنب والألم والحزن وقوة الذاكرة أو ضعفها، للشوق والكراهة والارتياح والاكئاب.

أما ثمن هذه الأشياء فيسدد بطريقة مختلفة، حيث يتعهد كل إنسان بالقيام بأمر جيد لشخص ما. وعلى الرغم من أن متجر الفردوس الأصغر كان غزير الإنتاج بحيث من الممكن أن يكفي الجميع بدون استثناء إلا أن الذي حصل أنه تم السطو عليه، لا من قبل الشياطين بل من قبل البشر أنفسهم.

بذلت الملائكة جهودها في إعادة البضائع ووضعت المكان تحت الحراسة المشددة إلا أن الأمر كان يتكرر دومًا وبشراسة أكبر ومخطط أكثر إحكامًا، وبذلك تم اتخاذ القرار من قبل الملك الأكبر الذي بات شديد الخوف من تحويل كل الأشياء الجميلة والمشاعر النبيلة والعلاجات الصحية لحالات من الإدمان والذعر والابتزاز، فبالطبع لم تهتم تلك العصابات إلا بالمال ضاربة بعرض الحائط الطريقة التي كانت تسدد من خلالها ديون كل ما يتم أخذه.

وبذلك نُقلت البضائع من جديد إلى السماء وأثناء نقلها تعرضت لمحاولة أخيرة للسرقة حيث وجهت العصابة عددًا من السهام التي بدأت بثقب الأكياس القماشية الكبيرة وتناثر بعض محتواها في أماكن متفرقة.

وبذلك تشربت الكثير من النباتات إكسير السعادة، واختلطت تربة بعض الجبال برماد البخور السحري، وارتمت الأسطوانات والقلائد والشموع هنا وهناك.

ولما لم يكن بالإمكان جمعها من كل أنحاء هذا العالم الواسع، تم إلقاء مسحوق النسيان على جميع البشر بحيث نسوا تمامًا كل شيء له علاقة بذلك المتجر السحري ومحتوياته، بما في ذلك كتاب الوصفات السرية لتحضير تلك

المنتجات الذي بقي مدفوناً لفترة طويلة في ظروف سمحت لمعظم صفحاته بالتلف والتآكل قبل أن يجده شخص ما .

توقف صوت المعلم وابتعد، أما زين فشعرت بقليل من البرودة فتكورت على نفسها كجنتين يكاد أن يخلق ثم غطت في نوم عميق .

يمكن لتلك لطائرة المزودة بكاميرا أن تصعد قليلاً نحو العلية لتأخذ لقطة من النافذة الزجاجية الواسعة، حيث ينتصب مرسوم بحر .

كان بحر يمشي حافيًا على أرضية مرسمه الخشبية ثم يدور على قدم واحدة وهو يستمع لأندريا بوتشيلي، إذن فهذا هو سبب الصوت الذي سمعته زين منذ قليل .

إنه يحتفل قبل دخول السنة الجديدة على طريقته بعيدًا عن التجمهرات والضوضاء، يحتفل مع شخصين فقط .

في الواقع هما ليسا شخصين من لحم ودم، بل من قماش وألوان زيتية، بل ولم يكتملا بعد .

لكنهما رافقاه لعدة أسابيع في هذا المكان الهادئ ذي النوافذ الكبيرة التي تطلُّ على أشجار الصنوبر .

وقد عجل بحر برسم أعينهما في الأيام الأولى كما كان يفعل بكل لوحاته ذات الملامح البشرية، الأعين أولاً ثم الأذنين .

الأهداب المنسدلة، والجفون اللحمية، وبريق الحدقات، والتفافات الأذن، والشحمة المتوردة، والقرط اللامع .

(سيكون لكما عينين لتريا، وأذنين لتسمعا . إن العيون التي يتم تغذيتها بمناظر جميلة والأذان التي يتم إطعامها موسيقى شهية تصبح دومًا لوحات أجمل) . . . قال بحر ذلك بجروف مغممة لأنه كان يضع ريشة في فمه بينما يستخدم ريشة أخرى .

يصبح صوت بوتشيلي بينما يحدق صديقاً بحر بأعين بعضهما وربما بالنوافذ الزجاجية التي بدأت ندقات الثلج بطرقها بشكل متزامن مع الضوء المتسلل من المدينة البعيدة بغمزات صفراء وبنفسجية وزرقاء لتغويهما بالهروب إليها .

يبدأ برسم إحدى الشفتين، لا بدَّ أنها شفة أنثوية فهي مستديرة ومحمرة كثمرة ناضجة، يغمس بحر المزيد من اللون الوردي بريشته ليداعب الشفة بزخمٍ لوني .

(إنني أغذيكما جيداً على ما أظن)، يتمم بحر بصوت مسموع ويتعد قليلاً عن اللوحة، يتأملهما بدقة ثم يتعد أكثر وهو يسير بشكل معاكس، ثم يصفق بيديه صفقة حماسة ويقول (لقد حان دوري) .

إنه يعلم أنه بحاجة للابتعاد عما يقوم به لفترات قصيرة أو طويلة، إنه يحتاج تلك المسافة التي تجعله يشعر أنه خارج العمل الذي يقوم بخلقه للتو .

سترافقه كاميرتنا السرية أثناء هبوطه ثلاثة طوابق نحو الأسفل بحيث يتجه إلى مطبخ المطعم .

في الأوقات الاعتيادية لا تبقى والدته وأخواته وخالته إلى ذلك الوقت المتأخر داخل المطبخ إلا أنهن منشغلات بالتجهيز لحفلة الغد .

إنهن مشغولات في تبيل الديك الرومي بالريحان والقرنفل وإكيليل الجبل، وما أن الساعة اقتربت من الواحدة لا بدَّ أن حشوة فطيرة التفاح باتت جاهزة وبواسطة ملعقة صغيرة وضعت والدته في فمه قليلاً منها للتأكد من أن نكهة القرفة مضبوطة جيداً . يرفع ثلاثة أصابع ويصدر همهمة طويلة فتمسح والدته يدها بمزرها الأبيض بعد تأكدها من إتمام المهمة على أكمل وجه .

تسأله حالته باهتمام عن لوحته الجديدة، فينظر لها بزاوية عينه:

_ ما زلتِ تراقبين أعمالي في غيابي .

تبتسم ابتسامة مائلة وتشبك يديها: لا بد لي من ذلك دائماً، ألسنت معلمتك!

يفك اشتباك ذراعيها ثم يمسك يدها ويجعلها تدور دورة كاملة كأنه يراقصها قائلاً: (دون أي منازع).

لماذا رسمت الوجوه في الجزء العلوي من اللوحة، ألن يصبح بذلك خلل في مسافة ابتعادهما عن الأرض عند رسم جسديهما؟

يقطع بحر شرائط العجين ثم يبدأ بوضعها واحدة تلو الأخرى على وجه فطيرة التفاح ويضيف:

ما الذي جعلك تعتقدين أنه سيكون لهما جسدين مكتملين، ربما سيطفوان في الهواء فقط.

ترفع الحالة حاجبها قليلاً:

الممم مثير للاهتمام... كشبحين مثلاً؟

يلق ببحر إصبعه الذي تلوث بصلصة فطيرة التفاح:

بل كشخصين خلقا للتو، سيطفوان من آلتين موسيقيتين... كلحنين يوشكان على الاتحاد ببعضهما

ما هما الآلتين؟

يدور طبق فطيرة التفاح غير الناضجة دورة كاملة:

لم أقرر بعد، ما الذي تقترحينه؟

نقول الحالة: أثق بقرارك، وأثق أنك قد قررت قبل أن تسألني بوقت طويل.

إذن هي إصدار مختلف للوحة خلق جديد يا آجلو، على محبي فنك هذه المرة أن يتحلوا بدرجة عالية من الجنون

ليقتنعوا أن أصل الإنسان موسيقى.

أو على درجة عالية من الذكاء.

يرن هاتف بحر برسالة نصية تحوي كلمة واحدة (الليلة).

تحاول حالته اختلاس النظر بشكل لا إرادي لكنه يضع الهاتف المحمول في جيبه من جديد، ويدس يده في الجيب

الآخر ليتأكد من وجود مفاتيح الشاحنة.

يزم شفتيه ويتغضن ذقنه قليلاً، عليه العودة إلى الأعلى من جديد لإحضار المفاتيح.

ـسذهب لمقابلتها إذن.

يقهقه بسخرية مجيئاً خالته: بكل تأكيد .

تقول إحدى أخواته: انقل تحياتنا لها .

ـلا بد أن تعرفها على عائلتك يوماً ما . تقول والدته وهي تُورجح كعب قدمها على أرضية المطبخ فتهمز دهون
خصرها كهلام لم يتم معاملته برقة .

تعود الكاميرا للصعود إلى الطابق الثاني حيث كانت زين تغط في نوم عميق، إلا أنها نهضت وجلست على حافة
السريـر محدقة للساعة الجلدية في يدها .

تنقر على زجاجها مرتين مفكرة أنه لم يتبق الكثير من الوقت لموعد انطلاقها .

تنهض وتبدأ بترتيب ثياب منامتها في الحقيبة، مغلقة السحاب جيداً وواضعة الحقيبة على كتفها لتبدأ رحلتها .

إنها لا تعلم كم قد تستغرق تلك الرحلة أو إن كان هذا هو الوقت الأمثل للقيام برحلة كهذه .

تنظر إلى النافذة فتلاحظ في تلك اللحظة توقف هطول الثلج، فينعكس وجهها على الزجاج .

ويخيل لها أنها رأت وجهها القديم المشرق، أو لنكن منصفين إن ذلك لم يكن خيالاً البتة بل حقيقة .

إنها إحدى تلك اللحظات التي تتغير فيها الوجوه بطريقة لا يمكن تفسيرها بشكل مشابه لشعورك أن وجه والدك
يبدو شاباً على غير العادة أو والدتك تميل للصبا .

هنالك ملامح تعترينا بطريقة غريبة، وقلة من يمكن لهم أن يلاحظوا ذلك، لكن صاحب هذه الملامح سيشعر
بذلك بكل تأكيد .

شيء ما داخلها تغير بعد تلك النظرة، لقد قررت أن تحمل ذلك الوجه معها من تلك النافذة أينما حلت .

حملت حقيبتها وخرجت من الغرفة، وأثناء استدارتها تهبط على الدرج اصطدمت ببحر الذي كان يصعد بسرعة فهو لم يتوقع أن يلتقي بأحد ما في هذا الوقت.

تلاقت عينا زين بعيني بحر الذي تأسف معتذراً وتابع طريقه إلى العلية بسرعة فتطاير شعره حول وجهه أثناء ذلك.

أما زين فقد وضعت مفاتيح الغرفة على طاولة الاستقبال، لتخرج من الباب الرئيسي فيصطدم الباب الزجاجي بجرس لاقطة الأحلام التي تصدر رنيناً طويلاً يستمر حتى هبوط بحر من جديد الذي كان ممسكاً بمفاتيح الشاحنة، وسرعان ما يصدر الجرس رنيناً طويلاً ليعلن عن خروج شخص آخر من هذا المكان.

يمكن للكاميرا التي تخلق معنا في كل مكان أن تساعدنا للحصول على تفاصيل أكثر دقة في الخارج فترينا خطوات بحر على طبقة الثلج الرقيقة وهو يفتح الباب الخلفي للشاحنة التي يستخدمها دائماً في نقل المواد الغذائية إلى المطعم، لكن هذه المرة لم تكن الشاحنة تحمل أية أطعمة بل كانت تحتوي شيئاً آخر مغلفاً ببطانية سمكية.

يوجه بحر كشافاً لتفقد ما يحتفي تحت الأغطية مطلقاً تنهيدة راحة لحظة رؤيته المكعبات الفسيفسائية اللامعة، يلامس طرفها مجذر كأنه يلامس كنزاً ثميناً، ونرى تحديداً ذلك الجزء الذي فيه نسر أسدي محلق بأجنحة واسعة.

ليس بإمكانه التأخر أكثر، ولذلك يغلق الباب بهدوء ثم يتلفت من حوله جيداً ليتأكد أن ما من أحد يراقبه. يدير مفاتيح الشاحنة منطلقاً بها وأثناء سيره على بداية الطريق العام ينتبه إلى أنه قد نسي إطفاء أضواء الشاحنة عندما خيل له أنه قد رأى شبحين ولذلك نسمع صوت الحرك يعن بقوة أثناء انطلاق المركبة بسرعة أكبر مماًلاً أن ما قد رآه مجرد وهم.

لقد كان مخطئاً فأحد الجسدين الغارقين في الظلام هو جسد زين التي أغلقت عينيها عندما التمع ضوء الشاحنة في وجهها، لقد كانت تقف بالقرب من شخص ما كان يشدُّ على يدها بقوة.

أما يدها الأخرى فتقبض على خارطة المكان الذي ستذهب إليه، وقد بدا على الوجه الخلفي للخارطة علامات حمراء واضحة.

لم تستطع الكاميرا الطائرة أن تأخذ الكثير من التفاصيل لذلك الشخص الذي كان يغطي رأسه بقبعة واسعة متدلية مغطية عينيه وجزءاً من أنفه.

لكن بنظرة من مسقط علوي يبدو ذلك الشخص ضئيلاً جداً، كما تبدو زين من تلك المسافة، محاطين بطبقة رقيقة من الثلج الذي عاد للهطول من جديد ليغطي العشب الأخضر وقمم الأشجار الباسقة.

وخلال دقائق قليلة يزداد حجم ندفات الثلج التي أصبحت مساوية لحجم حبات الكرز وسرعان ما تهب ريح قوية تدفعها بعيداً وبشكل لولبي وصولاً إلى زجاج نافذة مطبخ الفندق الذي بقيت فيه خالة بحر وحيدة حيث كانت تنتظر نضوج فطيرة التفاح.

وبنظرة داخل المطبخ نرى الحالة وهي تقوم بتنظيف كل الأواني المستخة وترتب كل ما ينبغي لها ترتيبه، منتظرة أن تنضج الفطيرة داخل الفرن، وكى لا يمر الوقت ببطء ترفع صوت التلفاز الصغير المتوضع في أحد أركان المطبخ، تغلب القنوات واحدة تلو الأخرى بواسطة جهاز التحكم وهي تتأب عليها تجد شيئاً مثيراً للاهتمام.

من خلف زجاج الفرن كانت العجينة الطرية تنتفخ بهدوء بحيث تقترب أكثر فأكثر من حواف القالب المعدني متحولة من اللون الأبيض إلى اللون الوردي وقد انعكس على وجهها ضوء الفرن الأصفر الذي التمتعت قطع التفاح المكرومل تحته بوضوح بين المربعات المتقاطعة وانبعثت منها رائحة القرفة لثماً الجو في المطبخ معلنة عن تمام النضج قبل انطلاق صوت المؤقت الزمني.

تحترق يد الحالة وهي تخرج الفطيرة من الفرن ذلك لأنه أثناء قيامها بذلك يصل إلى سمعها خبرٌ من التلفاز شت انتباهها، حيث أعلن مذيع إحدى القنوات الإخبارية اختفاء لوحة فسيفسائية أثرية مشيراً إلى أن اللوحة هي

لوحة أورفيوس وهو موسيقي وكاتب إغريقي يظهر فيها وهو يعزف على قيثارة وتحيط به مجموعة من الحيوانات من بينها طاووس، نمر، أفعى، حصان ونسر أسدي.

تضع الخالة إصبعها المحترق في فمها وتضغط عليه بأسنانها .

شيءٌ ما غير جلدها قد ألمها . . . لا بد أن خبراً كهذا كان ليزعج بحر كثيراً .

تضع يدها الأخرى السليمة على خصرها متسائلة وهي تتأمل فطيرة التفاح الساخنة:

كيف يمكن لأحد أن يسرق حضارة بلاده وفنونها !

في مكان وزمان بعيدين عن تلك اللحظة نعود إلى تلك الغابة التي كان يعبرها الأصدقاء حيث نرى السنجاب وهو

يحرك ذيله ببطء وكأنه يلوح لتلك الكائنات التي رافقته فترة من الزمن .

لا بد أنهم وجدوا طريق خروجهم وهو وجد حبة البندق الضائعة من جديد .

سيمسكها بقوة من الآن فصاعداً ولن يسمح لها بالسقوط أبداً .

لهله اللحن الثاني عشر لهله

الغارقون في الشوكولاته

في إحدى المنتزهات العامة تركن عربة حلوى صفراء اللون وقد اصطفت عليها عبوات زجاجية بداخلها قطع مختلفة الأحجام والأشكال من البسكويت المغلف بعجينة السكر، أما في الوسط فيتوضع قدرٌ كبير من الشوكولا الساخنة التي يتطاير بخارها ليصل إلى طفل لا يبعد كثيراً عن العربة.

يبكي الطفل بصوت مرتفع لأنه أضاع بالون الهيليوم خاصته والذي سرعان ما تبعده نسائم الهواء الحريفية، وعلى الرغم من محاولات الأم في تهدئة ابنها إلا أن نحيبه كان يزداد كلما ارتفع البالون أكثر حتى أنه لم يهدأ رغم حصوله على كوب من الشوكولا الساخنة والتي زين وجهها بقطع من المارشملو.

يطير بالون الهيليوم البنفسجي لمسافة ليست بقريبة إلى أن تعيقه أغصان شجرة عارية ينتصب تحتها مقعد خشبي يجلس عليه كل من آدم وسارة أما لوسي فتنتصب على قوائمها بتنبه لحظة رؤيتها البالون.

تنهض سارة لتحاول التقاط البالون ثم تعود للجلوس على المقعد الخشبي بحيث يحثك كفها بكف آدم الذي يقول:

ـ كيف حال ضيوفك اليوم؟

تشد سارة شريط البالون نحو الأسفل:

ـ أظن أنهم أفضل حالاً.

ـ أعتقد أنهم في أحسن أحوالهم.

إنك تقومين بتدليلهم على أتم في وجهه في حين أنك تنسين صديقك المسكين وحيداً في المختبر بلا قوتٍ كافٍ حتى.

تضع سارة يدها على فمها وجزء من خدها:

إذن، أنت تشعر بالغيرة منهم.

ليست غيراً على وجه التحديد فأنا أعلم كم تستغرقين بعملك لدرجة قد تنسين فيها كل ما حولك.

ينقر آدم على البالون الذي يتأرجح يميني ويسرى عدة مرات متسائلاً:

كم يبلغ عددهم؟

ثمانية... أربعة شبان وأربع فتيات.

عدد مثالي... بذلك حصل كل منهم على غرفة خاصة به.

تقرب سارة البالون من لوسي التي تشممه عدة مرات بحذر:

أجل... لقد استغرقنا عدة أشهر لإتمام الإجراءات الروتينية كي أستطيع استقبالهم في منزل الضيوف

خاصتي... أعلم ما الاسم الذي يطلقونه على هذه المجموعة؟

ماذا؟

الغارقون في الشوكولاته.

إن رحلة تهيئهم الأخيرة كانت ضمن خزان من الشوكولاتا السائلة، لقد كانوا جميعاً يطوفون بين أمواج من الشوكولاتا،

وكانوا على وشك الاختناق بها حرقاً.

أحاول تخيل كم هي وحشية تلك الحرب التي هربوا منها بطريقة كهذه.

إن الحروب الداخلية لا تقل وطأة عن تلك الخارجية.

إذن، هل بدأت بالتحقيق معهم؟

تنظر سارة لآدم بزاوية عينها دون أن تدير رأسها:

هكذا إذن... تجدني محقة.

يقفه آدم رافعاً رأسه نحو الأعلى:

ـ لم أقصد ذلك حتمًا، لكنك تملكين طريقة سحرية للدخول إلى قلب الإنسان... فهل بدأتِ بالتسلل إلى قلوبهم؟

ـ لقد كنت أحاول أن أبني علاقة ألفة معهم وقد غرقت كثيرًا في تفاصيلهم، لكن من المفترض أن نبدأ اليوم مساءً.

ـ سيتحدث كل منهم عما يرغب به. ذكرياتهم، أحلامهم، مخاوفهم، ونظرياتهم عن الحياة...

ـ هل ستقومون بذلك ضمن حلقة جماعية؟ أم بشكل فردي.

ـ أفضل أن يتحدثوا أمام بعضهم البعض لا سيما أنهم قضوا فترة لا بأس بها معًا، ويمكنني من خلال المعلومات التي حصلت عليها من كل منهم على حدى أن أبني صورة تقريبية عن شخصياتهم.

ـ هل لفت أحدهم نظرك على نحو خاص بحيث يمكنك القول أنه عراب تلك المجموعة.

ـ نحن نعيش في الواقع ولسنا في مسلسل تلفزيوني يتم فيه تهميش معظم الشخصيات كي يظهر بطل خارق في الصورة الرئيسية فقط لأنه يتقاضى الأجر الأعلى.

ـ إن كل منهم بطل حياته الخاصة، بحيث لا يمكن التقليل من شأن أي جزئية قد مرّ بها...

ـ هل أدلى بعضهم بتفاصيل مهمة؟

ـ لقد تحدثت مع بعضهم بشكل خاص عدة مرات، وفي الليلة الماضية زارني إحدى الفتيات في منزلي واحتسنا كوبًا من الشاي معًا.

ـ أخبرتي أنها التقت بحبيبها السابق في رحلة هجرتهم وأنها لا ترغب بالحديث أمامه عن تفاصيل قد تتعلق به.

ـ ماذا عنه، أظن أنه سيحذو حذوها؟

ـ ربما... لا يمكنني التكهن بذلك.

ـ باعتقادي إن جمعهم في حلقة واحدة قد يؤثر على صدقهم، فالبشر يحاولون تجميل أنفسهم قدر الإمكان أمام بعضهم البعض.

ـ لا تقلق، لدي وسائل ليفتحوا قلوبهم وعقولهم لي، حتى أنني أقنعت أحدهم بالبدء بسرد قصته على الرغم من أنه كان يبدو مذعورًا ومتكلمًا على نحو خاص فلا تستهن بقدراتي.

لا سيما أنهم واقعون تحت تأثير غواية قوية.

ـ ما هي هذه الغواية؟

ـ إنها الرغبة بأن يتمكنوا من شرح أنفسهم لشخص آخر وبكل الأحوال سأشعر لحظة إخفائهم عني شيئاً ما.

ـ لكن خوفهم من النبذ قد يردعهم من الوقوع في تلك الغواية أليس كذلك؟

ـ لذلك سنبداً مع شخص سيشجعهم للإدلاء بقصصهم، ذلك لأنه قتل طفلة عن طريق الخطأ.

إن تلك الجريمة ستمنح الباقيين شعوراً بالطمأنينة بأنهم مهما فعلوا سيكونون أقل سوءاً.

ـ هل هو خطر؟

ـ بل على العكس تماماً.

إنه أقلهم خطراً إن هنالك الكثير من الجرائم أكثر شناعة من القتل غير المتعمد، لكن أصحابها لا يدركون ذلك حقاً.

ـ أشعر أنك تبحثين عن أكثر الأجزاء قتامة داخلهم؟

ـ بل إنني أبحث عن ذلك الحد الفاصل بين جبنهم وشجاعتهم، بين توحشهم وبراءتهم، بين صدقهم وكذبهم . . . إنني أبحث عن خيط التوازن الدقيق الذي قد تتجت شخصيتهم الحالية عنه.

إنني أبحث عن الإنسان داخل كل منهم

في النهاية لست هنا لأحقق معهم كما تظن، فأنا لن أحكم عليهم ولن أتهمهم ولن أسعى لتبرئتهم أيضاً .

إن ما يشغلني هو تحريرهم كي يستطيعوا التحرك في حياتهم الجديدة إنما مجمولة أخف .

ـ أثق أنك ستمكين من ذلك .

ـ بإمكانك الانضمام إلينا إن شئت .

تبتسم سارة وهي تمسح رأس لوسي التي بدت وكأنها قد اشتاقت للمنزل متابعة:

ـ لقد انشغلت في الأيام الماضية عنك، أخبرني هل تسير أمور المختبر على ما يرام؟

ـ الأمور جيدة، لكن كما تعلمين لا بدّ من التجربة للتأكد من ذلك .

ترفع لوسي رأسها إليه وكأنها تبرع بأن تكون هي الخاضعة لهذه التجربة، فحياتها ستكون أفضل فيما لو تمتعت بمفاصل أكثر ليونة إلا أن سارة تقاطع تأملها وتقول:

ـ إنني جاهزة .

ـ لكنك منذ فترة لم تكوني على هذه الدرجة من الحماسة .

ـ كنت خائفة . . . إلا أنني أثق بعقل والدي .

ـ يمكنني أنا أيضاً أن أكون أول فأر في هذه التجربة فهي تستحق ذلك . . . ويمكنك أنت الإشراف عليها .

لقد تم التغلب على أهم عشرة واجهات الفيزيائيين سابقاً وما أن هنالك حاسوب قد يرصد الترحال في الكون الموازي فالأمر ليس شديد الخطورة كما يبدو .

ـ هل يمكن التنقل بين الكونين بسلسلة إذن؟

ـ إنني أعمل على ذلك .

ـ ما رأيك أن نعود للمنزل فإن لوسي على وشك أن تغط في نوم عميق على الرغم من أن الهدف من هذه النزهة أن تنشط وتحرك عظامها قليلاً .

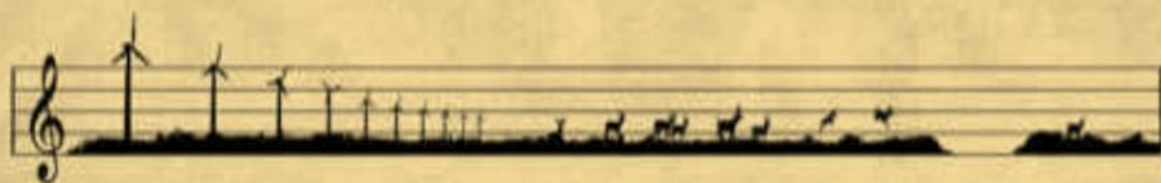
يسير آدم وسارة ولوسي معاً بينما يخلق بالون الهيليوم بالقرب من رأس سارة، وأثناء ذلك يلتقون بالطفل الذي انتحب طويلاً عند فقدانه البالون، فيترك كوب الشوكولا الساخنة والذي قد أنهى نصفه، ويركض باتجاه سارة واقفاً أمامها وشابكاً كفيه خلف ظهره وكأنه يرجوها أن تمنحه بهذيب ما قد فقده .

تنحني سارة مربة على رأس الطفل بعد أن تضع أنشودة البالون بين أصابعه الصغيرة، فيشكرها ويجري تجاه أمه .
ما أن تمر عدة دقائق حتى يترك الطفل البالون ليطير بعيداً لكن هذه المرة بملء إرادته، يراقبه طويلاً وهو يطير في السماء باتجاه غيمة قائمة ووحيدة، مبتسماً في وجه والدته المستغربة من تصرفه .

لن يخطر ببال الأم أن ما نتحب من أجله عندما يغادرنا، قد يعود في لحظة غير متوقعة وحينها قد نفقد الثقة في بقائه فنتخلى عنه من جديد طواعية !

Journey

♩ = 86



لله اللحن الثالث عشر لله

مدينة العاطلين عن الحب

سومر

منذ طفولتي وأنا أخشى ألعاب القتل، كنت أكره (لعبة الشهيد) وألعبها مرغماً بعد فشلي بإقناع أصدقائي بأي لعبة أخرى، وعند رفضهم كنت أقمص على مضض شخصية الشهيد حيث أسقط على الأرض بعد الدقائق الأولى من المعركة، وذاته العدو الذي أصابني بمسدسه الخشبي في قلبي، يفك لثامه ويتحول إلى أحد المشيعين لجمثاني!

وأنا مستلقٍ على سواعد أصدقائي في النضال كنت أفكر... لم على عدوي الذي قتلتني أن يكون أحد المشيعين! أشعر بقبضته تنخر خاصرتي كأنه لم يكفٍ بقتلي بل كان يشد على جسدي ليذكر جثتي بأنه الفاعل، هل كانت مجموعتنا الصغيرة تحتاج أفراداً إضافيين حتى لو كانوا من أعدائها!

أو... ربما لأن الأمور دائماً تتم على هذا المنوال.

على ما يبدو إن الطفولة تعلمنا قواعد الحياة بصورة أكبر مما نظن.

في كل مرة كانت شخصية الشهيد من نصيبي ربما لأنني أخفهم وزناً أو لأن أحدهم لا يجب أن يكون شهيداً، وأنا كنت على النقيض... لا أحتل فكرة أن أكون قاتلاً.

كنت أفضل لعبة الاختباء... كم أحب أن أختبئ لتجدني ليلي، مهما كنت بعيداً فقد كانت الوحيدة القادرة على إيجادني.

في إحدى المرات اختبأت لعدة ساعات في أحد منازل القرية المهجورة وعندما استسلم كل أصدقائي واعتبروا أنني قد خرجت من اللعبة عادوا منتصرين إلى منازلهم.

أما ليلي فواصلت البحث عني إلى أن وجدتني وعندما سألتها كيف عرفت محبائي! أخبرتني بأنني ذكرتُ أمامها عندما قدمت لها هديتي الأولى بأنني قد جلبتها من قبو هذا المنزل.

كانت الهدية مرآة نحاسية متوضعة داخل صندوق صغير، وقد كانت مصقولة ولامعة ولم أجد وجهًا أفضل يليق بها أكثر من وجه ليلي.

ما كنت أحبه في ليلي الطفلة أنها كانت تذكر كل كلماتي وتفاصيلي، كانت تجدني في أشد الأماكن ظلمة - حتى عندما أختبئ خلف نقسي - وهذا ما كان يميز ليلي الناضجة أيضًا.

كان ذلك المنزل المهجور حديقتنا السرية، نافذتنا المضيئة، قاعة الرقص التي رقصنا فيها للمرة الأولى، صالة التزيين التي أسرح فيها شعر ليلي وأضفره في ضفائر طويلة.

كنت أشكو لها خوفي من الأسلحة الخشبية ومن الدماء والضحايا والقتلة وكراهي لألعابهم السخيفة. لو أخبرت أحدهم بذلك لأطلق علي لقب جبان لا محالة، لكن ليلي كانت تحتفظ بأسراري دون أن تشك بشجاعتي.

لقد عانت أُمي وأم ليلي من فقدان الأواني المنزلية دومًا، ولم تعرفا أبدًا أن لديهما لصًا ولصبةً في المنزل يسرقان القوارير والأوعية كي يضعها فيها الحلوى والجوز والتين الجفف كمؤونة شتوية.

كما نشعل النار في حطب الموقد ونشوي عليه حبات التين المحشوة بالجوز. لا شيء أشهى من التين الساخن المحشو سوى قلب ليلي التي قررت أن تطلق على ذلك المكان اسم (مدينة الحب) وبذلك أصبح كل شيء خارج ذلك المنزل هو مدينة العاطلين عن الحب.

في مدينة العاطلين عن الحب كان الجميع يحبون ألعاب القتل، قد يقتل أحدهم قلبك لا لسبب إلا لأنه اعتاد ذلك منذ الصغر، وإن الأمور تصبح أشد خطورة مع مرور الوقت فقد تغدو واحدًا منهم فجأة.

كم من الصعب أن تحافظ على تقائك في مكان يحاول الجميع فيه التمر عليك وإيذاءك بدءًا من مدرستك مرورًا بحيك انتهاءً بمنزلك.

في مدينة العاطلين عن الحب كان الجميع كل صباح يصطفون في طوابير طويلة لالتهام قلوب بعضهم . . .

إلا ليلى كانت تدندن: أعطِ الحبيب قلبه دون أن تأكل نصفه .

عندما كبرتُ اضطررتُ للإبتعاد عن قلبي وعن مدينة حبي التي مفاتيحها بين يدي ليلى فقط .

أصبح الاضطهاد أكبر، التمر أكبر، الآلام أكبر، وتوقف من حولي عن حمل الشهداء الوهميين لأن اللعبة أصبحت حقيقية وبتنا نتدرب على الموت أكثر، وإن لم تتقن لعبة الاختباء ستفقد حياتك لا محالة .

استبدلنا لعبة قفز الحبل بالقفز على الألغام، وأصبحت البنادق الخشبية حقيقية وأصبح رب البندورة الذي يلطخ ثيابنا دمًا لزجًا وكأنا بالأعباء طفولتنا استحضرننا واقعًا مريرًا .

لا بدّ للعنف أن يولد عنفًا، هي طاقة سلبية متأججة في النفوس، ولا بد أن تظهر ألعاب القنابل والسيوف وقاتل الشوارع بطريقة عنيفة يومًا ما، وهذا ما قد حصل .

فالخوف الطفولي من عدو مجهول تمكن من أن يخلق عدوًا واقعيًا، ليصبح ذلك الرعب الناتج عن صدى امتلاء خزان بالماء رعبًا حقيقيًا .

إننا نصنع الحاضر بتصرفات الماضي وربما يجدر بنا الالتباه أكثر فيما يخص خيالنا وبتولاتنا الوهمية .

إن أصعب ما قد عانيته خلال أول سنتين ابتعدت فيهما عن ليلى هو فقدان رائحتها، كانت لرائحتها مفعول المهدئ وكلما كانت تدور معركة بالقرب من حقل جوز أو شتلة ياسمين كنت أتوقف لأعجب رثي وقلبي منهما .

كنت أشتاقها وازداد شوقي عندما انقطعت أخبارها عني خلال الأشهر الأخيرة بسبب انقطاع الاتصالات عن قريتنا .

إلى أن حصل ذلك الأمر بطريقة لم أكن لأتوقعها، لحظة انزلاق إصبعي على الزناد، إطلاقي النار، رؤيتي الدماء وإلقائي سلاحي بعيدًا لأطلق قدمي للريح .

دومًا كانوا يحاطبونني على أنني (صفر اثنان ثلاثة) والهدف من ذلك السرية والحماية، لكنني هذه المرة عندما سمعت اسمي الرقمي شعرت حقًا أنني مجرد رقم.

نظرت في وجه الطفلة التي لا تبدو ميتة، إنما نائمة فقط بعينين مفتوحتين قليلًا ربما ليدخل منهما الضوء إلى حلم ما لا يشبه كابوسي.

ما زال هنالك بقايا بريق في عينيها، حاولت فتحهما عليهما تستطيع أن ترى ندمي، عليهما تستطيع أن ترى وجهي المصفر، حاجبي المهتلين، وجهتي المتغضنة، فتشفق علي وتصحو.
يا صغيرتي لم يكن لدي نية لقتلك . . .

نظرتُ إلى كفي المصبوغين بالدم ووضعتهما على رأسي الحليق ليبدأ جسدي بالتأرجح للأمام والخلف بتواتر ثابت، قلبت كفيَّ أمام وجهي موزعًا نظراتي بينهما وبين وجه الطفلة.

كنت أفضل أن أفقد ذراعي لأعفى من حمل كل الأسلحة يا صغيرتي، وكنت في كل مرة أهمُّ فيها للتخلص منهما أتذكر ليلي.

لوعدتُ إليها وأنا بلا ذراعين ما كنت لأستطيع عناقها، كنت أحتفظ بذراعي لأعاق ليلي، لكن روحك كانت ثمناً لهذا العناق.

دخلتُ في نوبة ضحك هستيري تخللتها دموع انتهت بأنين حاد، فعاد جهاز الإرسال بالتشويش من جديد ليتخلله نداء آخر: (صفر اثنان ثلاثة . . . أجب)

ضغطت حينها على زر اللاسلكي وقلت بصوت حاولت ألا يبدو مرتجفًا: (لست صفر اثنان ثلاثة، أنا سومر).

كانت الريح تصفر من حول (صفر اثنان ثلاثة)، تصفر بقوة كأنها صادرة عن فاه كيان ما يجهز نفسه لابتلاعي.

كنت ألتفتُ بخوف من حولي ثم أنظر في وجه الراعية التي بدت وكأنها تحرق بمعصم يدي اليمنى المحاط برباط شعرها، حبة فراولة زادت حمرةً بدمها.

أما عيناها فمشتتان على كفي وكأنها تدينهما، وكأنها لا تصدق أنني بريء .

في تلك اللحظة لم أشعر أنها نائمة، بل كانت تحرق بي وكأنني أيقظتها من موتها، وكنت أكاد أسمع تلك الموسيقى التي تدور من العلب الموسيقية في غرف نوم الأطفال .

لم أكن أعلم موقعي على وجه التحديد لكنني هربتُ كمن يحاول الابتعاد عن خطر ما، عن مجرم ما . . . عن (صفر اثنان ثلاثة) وعن الجثة التي أيقظها من موتها، لكن الخوف كان يلتصق بي أكثر .

ساعات من الجري في أراضٍ مجهولة، بين الأشجار المتشابكة والبيوت الحجرية المهدامة المهجورة التي بُنيت لتكون مأوى لحراس الحقول ليلاً، والتي لم يبقَ منها إلا صفاً أو صفيين من الحجارة المتآكلة .

وتحت الغيوم الملبدة وزخات المطر الخفيفة تذكرت أنني تركتُ سترتي وسادة للرعاية، وتمنيتُ وأنا أحاول ألا أنظر للخلف لو أنني التقطت جهاز اللاسلكي، فأنا بحاجة إلى طعام ومأوى .

إن الخوف أنساني حاجاتي الأساسية لدرجة توقف فيها عقلي عن التخطيط السليم، وكان لا بد أن أجد مكاناً ألوذ إليه ريثما أتمكن من الاتصال بشخص ما أعرفه .

ومع الوقت أخذت قواي تخور وأصبحت خطواتي أبطأ، كما أن المطر بدأ يهطل بغزارة فحاولت الاحتماء تحت الأشجار، فما من كهف أو بيت يلوح لي في الأفق القريب .

ولم يقني الأشجار المطر الذي بدأ يغسل الدم المتخثر على جسدي فأخذت القطرات الحمراء الباهتة تقطر من ذقني، أكملت المسير وأنا أتمنى أن أسمع صوت رصاصة واحدة لأشعر أن هنالك آدمياً واحداً بالقرب مني، لكن ذلك لم يحصل .

لم أكن أسمع سوى صوت خفق أجنحة تصدر عن الأشجار بين الفينة والأخرى والتي لم تكن لتطمئني بل كانت تثير ذعري ريثما تستطيع أذني تحديد مكان وطبيعة الصوت .

كانت قطرات الماء المنهمرة تثقل أهدابي وتجعل كل ما حولي بصبغة رمادية، الأشجار خضراء رمادية

الأحجار بنية رمادية، ظهر من خلفها مبنى قديم .

تغلّبت على إنهاكي وسارعت الخطى حتى تجاوزت السياج آملاً أن ألقى من يقدم لي المعونة والأمان .

الأمان . . . كم هو ثمين، ولا يشعر به من يمتلكه أبداً .

على ما يبدو أنني عبرت من المدخل الخلفي للمبنى وقد كان فيه حوض سباحة مفرغ من الماء ومليء بأكياس من الرمل وجذوع الأخشاب بحيث لا يظهر قاعه الأزرق .

ناديتُ وأنا أصعد درجاً قائماً بالقرب من حوض السباحة لكن لم يُجبني أحد، وكدت أتعثر بدرجاته التي كانت معظمها محطمة، وانتهى بي الأمر أمام باب زجاجي كُسرَتْ أجزاء كبيرة منه وغطيتُ بشباك عنكبوتي سميك .

فتحتُ الباب بحذر كي لا تتهشم بقايا الزجاج على جسدي وناديت من جديد لكن لا أحد .

كان المكان أشبه بصالة استقبال فيها كراسٍ مُنجدة بلون بني باهت لكن معظمها مكسور وممزق ويحمل أطناناً من الغبار، وفي الوسط عدد من الطاولات التي لم يبقَ منها شيء سوى ساقين أو ثلاثة في أفضل الأحوال، وفي أقصى الركن بالقرب من باب خشبي آخر كان هنالك بيانو قديم بدون مفاتيح بيضاء وكأنها اقتلعت عمداً .

ازدردت لعابي وبدأت أبحث عن هاتف أو جهاز فاكس أو أي وسيلة اتصال، لقد أدركت غيائي في تلك اللحظة لأنني تركت فيها جهاز اللاسلكي خلفي . . . لكنني كنت أهرب من (صفر اثنان ثلاثة) !

خلف الباب الخشبي كان هنالك ممر طويل تترامى على طرفيه عدد من الغرف المرقمة بأرقام ثلاثية، تساءلت بكلمات مسموعة وبسخرية ليست في محلها ربما لأخفف وطأة الوحدة: هل من الممكن أن أجد غرفة تحمل رقم صفر اثنان ثلاثة هنا، فتردد صدى صوتي على طول الممر .

هل هذا المكان نُزل، أم مشفى، أم مدرسة داخلية ؟

كانت الغرف المصطفة على الطرف الأيمن للمر ما تزال قائمة في حين أن الغرف المصطفة على الجانب الأيسر كانت مهدامة ومحتركة تماماً وهنالك أغراض كثيرة تملأ الممر .

أدراج خشبية مكتبية، ملفات ورقية، ثياب، ووسائد ممزقة.

مشيتُ مجذرة بين الأشياء المبعثرة وبدأت أمسك بعض الأوراق متبينةً أي معلومة قد تشير للمكان الذي أنا فيه، لكن معظم هذه الملفات كانت ذات أوراق إما متأكلة بسبب تعرضها للماء أو محترقة.

فتحت باب إحدى الغرف والتي كانت تحوي سريرًا واحدًا ذي قضبان معدنية، وخزانة هي جزء من الحائط وطاولة صغيرة بجانب السرير، وحمام خاص بالغرفة.

انتقلت للغرفة الثانية والثالثة والرابعة حتى نهاية الممر. كل الغرف كانت متشابهة في التصميم والأثاث

ولم يكن هنالك أي أثر للحياة فيها، وقبل تيقني من ذلك سمعت صوتًا من خلفي. صوتًا خافتًا لحركة غير مألوفة لكنه اخترق الصمت الخانق.

تجمدت في مكاني فيما انتصبت أشعار يدي عندما سمعت ذلك الخفيف الهادي، صوت يشبه احتكاك رداء ما بالأرضية، توقفت عن التنفس وكأن زفراتي المحبوسة قد تحمي ظهري العاري الذي توقعت أن يتم وخزه بطرف بندقية أو سكين على أقل تقدير، لكن كل ما شعرت به ملمس ناعم يحتك بساقي.

لقد كان قطعاً!

أطلقت زفرة طويلة كأنني أخرج معها صرخة مكثومة، وقد تلبستني الحيرة...

هل أغضب من الرعب الذي سببه لي ذلك القط الأبيض الذي كان يحرق بي، أم أفرح بصحبته!

انحنيتُ ولمستُ رأسه الذي بدا صغيراً مقارنةً بجسده، فلم يغمض عينيه بل بقي محدقاً بي بعين خضراء وأخرى زرقاء... فخاطبته (على ما يبدو لست من القطط التي تحب جلسات التدليك).

كشر عن أنيابه دون أي صوت مواء، كنت أتمنى لو يملاً هذا الصمت من حولي بمواء، لم تتعد عيناه عن وجهي وكأنني لحت بين أنيابه ابتسامة نصر بأنه زرع الخوف بقلبي من جديد.

تلفتُ من حولي باحثاً عن سكين أو خنجر أو حتى مفك براغي. بحثت بجد وأنا أستذكر القصص التي كان أصدقائي يروونها أمامي عن المنازل المهجورة وسجون تحت الأرض، وقد أقسم عدد كبير منهم أنهم كانوا يصادفون أشياء غريبة داخلها .

أشياء تتحرك من تلقاء ذاتها، وتموجات لونية غريبة تظهر على الجدران، وأصوات انزياح أدوات في مكان فارغ تماماً من أي شيء .

إنني حَجَلٌ من نفسي ومن استهزاءاتي المتكررة بهم، وأفهم خوفهم الآن تماماً .

يمكن للإنسان في مكان كهذا أن يتخيل كل شيء ليظنه حقيقة لا محالة . بدأت أتذكر الأدلة التي كنتُ أهدئ بها من روعهم وأنا ألوم نبراتي الاستخفافية بخوفهم .

إننا معتادون على ألا نكون وحيدين، إننا معتادون على الضجيج والأصوات . . . صوت العصافير، تكبيرات المآذن، فرامل السيارات .

لا بد لعقلي أن يبذل جهده ليشعري أنني لست وحيداً، فقد يتكرر أصواتاً من أجل هذه المهمة . . . إنه يفعل ما في وسعه، لكن جهوده في هذا المجال لن تكون محمودة أبداً .

هكذا كنت أعد نفسي لأتلقى أي حركة أو صوت مرتقب بهدوء، حتى أنني اشتقت لصوت تشويشات اللاسلكي .

بدأت ألوم نفسي كيف سمحت لأصدقائي في القطعة العسكرية بأن يذهبوا في إجازتهم جميعاً .

فكرت حينها أنني وددت لو لم أبقَ وحيداً، لكن استهزاء أحدهم بي واتهامي بالجنون هو الذي جعلني أشجعهم على الذهاب للاستمتاع بإجازة مريحة .

ما الذي قد ورطتُ نفسي به، لقد غطيتُ ذاتي بشجاعة زائفة تخفي تحتها أطنائاً من الخوف الذي بدأ بنخر عظامي .

لا بد أن أجد أي أداة حادة، ركعت على ركبتي وبدأت أنبش الأوراق والأكياس فاصطدمت يدي بشيء معدني
تمنيت لو كان سكينًا، لكنه كان مثلث موسيقي!

ما الذي يفعله مثلث موسيقي هنا! أطلق المثلث رنةً حادةً طويلةً عندما رميته بعيدًا تلاها مواء القط من خلفي.
تجاهلت المواء وتابعت بحثي وفي اللحظة التي أمسكت فيها مرآة مكسورة وحاولت الانتصاب من جديد شعرت
ببرودة معدن تحرق قميصي الرقيق.

(قف بهدوء) قال صوت خشن بعد أن نخزني بطرف سلاح تكهنت أنه مسدس من طراز فولتر.
إن الأشياء المخيفة حقًا تأتي فجأة دون أن تنبها لجيئها، ولم يكن لعقلي يدٌ بكل ذلك فالصوت حقيقي والنخزة
حقيقية.

استقمت ببطء رافعًا يدي نحو الأعلى والمرأة ما زالت بيدي، فكرت أنها ليست صالحة للدفاع عن النفس فهي
ما زالت ضمن إطارها، تخلّيت عن فكرة الدفاع عن نفسي بالمرأة واستدرت بهدوء لأرى رجلًا أمامي قد جاوز
الستين موجهًا مسدسه نحوي.

(من أنت؟) تشرح صوته مندفعًا محاطًا بهالة ساخنة من رائحة دخان ثقيلة.
(أنا صفر اثنان ثلاثة!) فكرت أنني لن أنطق بهذا الاسم الرقمي أبدًا، (صفر اثنان ثلاثة) بقي هناك بجانب جثة
الطفلة... ربما حفر لها قبرًا، لكنني أنا سومر الذي ليس من مصلحته أن يُعرّف بنفسه على أنه قد قتل أحدًا
يومًا ما، لا سيما أن المطر غسل معظم الدماء، إن كان المطر قد برأني فلم قد أفصح نفسي!
استغرق حوارني مع ذاتي عدة ثوانٍ قبل أن أجيبه كاذبًا (اسمي سومر، أنا الناجي الوحيد من بين أصدقائي بعد
أن تم الإغارة على قطعتنا العسكرية).

نظر إلى عيني بعمق ثم إلى لحيتي، ثم إلى ثيابي التي ما زالت تقطر ماءً، وإلى المرأة في يدي.

كنت أتوقع أن يسألني لأي الأطراف أتبع، لكنه لم يفعل.

أنزل سلاحه نحو الأسفل وكأنه بهذه الحركة قد أوعز لذرّاعيّ المتشجّعين بالاستراحة قليلاً على طرفي جذعي .

على ما يبدو أن الجنود المسلّحين بالمرايا لا يخيفون أحداً، فوضعت سلاحي الفتاك في جيبِي .

(اتبعني) قال بصوت زاد ضعفه بحيث أن الحرف الأخير لم يظهر بوضوح، ووضع سلاحه في حزامه .

صعد على درج داخلي لا سور له ومشيتُ على خطاه... وكنت أشعر أن أي حركة خاطئة قد تؤدي بحياتي فالأرض مليئة بشظايا البلور المكسور .

وصلنا إلى ممر آخر يشبه الممر السفلي، فتح العجوز باب إحدى الغرف وقال لي بإمكانك الاستحمام وسأتي لك بتياب نظيفة يا بُني .

(بني) هذه الكلمة أراحت قلبي قليلاً، رغم أن شعوري بالخطر ما زال قائماً، لكن هل هناك خيارات أخرى متاحة لي !

دلفتُ من باب الغرفة التي كانت تشبه كل الغرف التي دخلتها في الطابق السفلي، لكنها كانت أكثر نظافة وتحتوي العديد من الأدوات الشخصية .

تياب معلقة خلف الباب، فرن غاز صغير، أدوات حلاقة على مرآة الحمام وسائل تنظيف .

توقعت من خلال وجود كل هذه الأغراض من حولي أن الرجل العجوز يقيم هنا .

دخلتُ إلى الحمام الملحق بالغرف وفتحتُ الصنبور فتدفق منه ماء بارد في البداية، ثم انسكب الماء الدافئ بعد عدة دقائق على يدي المطلخة ببقايا دماء متجلطة والتي أصبحت تمل للون الأسود بحيث يصعب تمييزها، لكنها انخلت في الحوض الأبيض وعاد لونها القاني من جديد، فشعرت برعشة عندما شاهدت خيالاً يمر أمام زجاج النافذة المموه وكأنه قد كُشف أمرِي .

أي مكان هذا الذي قد يحوي نوافذ مستديرة بهذا الحجم في حماماته !

سمعت صوت الخطى ينتقل إلى باب الغرفة ليدلف داخلها وانطلق صوت الرجل المسن :

ـ(سأترك لك الثياب والمنشفة على الكرسي) .

تجاهلتُ كل ربيتي وطنوني واستسلمت لإغراء الماء الدافئ، وحككت جلدي بقوة .

رأسي الحليق، خديّ المشعران، راحتي يدي اللتان احمرتا حتى كاد الدم يتدفق منهما .

حككتهما بقوة . . . علي أن أتخلص من (صفر اثنان ثلاثة) .

غطى سيل الماء دمعي، لكن سرعان ما ارتخت ساقِي وانحنى ظهري وبدأتُ أتلوى من الألم وأنا أقضم أظافري حتى سال دمي، إنه ألم الإثم والذنب والخطيئة، ذلك الألم الذي تشعر أنه يشد صدرك من الداخل من جهة ويتسلق ظهرك من جهة أخرى، كم كانت دماء تلك الطفلة النحيلة ثقيلة على ظهري .

كنت قد قررت وأنا تحت الماء أنه سيموت إلى الأبد، سيضمحل وسينتهي .

لا بد أن يموت (صفر اثنان ثلاثة)، سأهرب بعيداً عنه بعيداً بحيث لا أتيح له الفرصة لقتل أحد من جديد .

مسحت دموعي المختلطة بالماء بالمنشفة التي كان قد وضعها العجوز، وقررت أنني سأُتصل بمن يؤمن لي مهرباً خارج هذ البلاد وسترافقني ليلى لنعيش آمنين معاً .

خرجت من الحمام على البقايا الأخيرة من ضوء النهار وبدأت أفكر بكل الاحتمالات الممكنة وأنا أرتدي الثياب الدافئة، فأخرجت المرأة من بنطالي المتسخ ووضعتها بسرعة في بنطالي الجديد، هي ليست سلاحاً لكنها تبقى أفضل من بقائِي أعزلاً .

داهمني أثناء ذلك الرجل العجوز وسألني (ألسنت جائعاً يا بُني) ؟

فأومأتُ له برأسي وتبعْتُ خطواته التي أوصلتنا إلى باب ثقيل يمكن سحبه على دواليب، وخلف ذلك الباب تقبع طاولة طعام كبيرة ذات حواف مذهبة متآكلة قليلاً إنما نظيفة وخالية من الغبار وقد كان يحيط بها أكثر من عشرة

كراسٍ، فيما يتوضع على وسطها شمعدانان فضيان يضيئان مساحة لا بأس بها من الغرفة، بحيث كُتِ قادراً على رؤية ظهر العجوز وهو يحضر شيئاً على حافة رخامية وينقل الأطباق إلى الطاولة.

رغم كل النوايا الحسنة التي يبديها إلا أنه ما زال خيفاً بالنسبة لي، خيفاً بطريقة مختلفة عن اللحظة التي وجّه سلاحه إلي في الممر السفلي، ما زال سلاحه مثبتاً مجزاهه لكن ما أخافني شيء آخر.

لقد تأملت على ضوء الشموع بظهره الحني قليلاً وساقه التي يعرج عليها وخصل شعره البيضاء الطويلة والتي انحسرت من مقدم رأسه، في حين كان جفن عينه اليمنى منسدلاً بالرغم من أن جفنه الآخر يبدو سليماً تماماً. كان قد شعر بأني أتلصص عليه عندما وضع الطبق الأخير على الطاولة وقد جلس على الكرسي المقابل لي تماماً.

لا بدّ أنه غير مرتاح لوجودي أيضاً هذا إن كان إنساناً طبيعياً، لكن ربما تملكه سعادة عارمة لأن شخصاً ما علق في شباك هذا المبنى الغريب.

كم هو خيف أننا نعجز عن النفاذ إلى عقول الآخرين، لكن ربما سيكون أكثر إثارة للخوف لو استطعنا النفاذ!

نظرت إلى الأطباق وعينيّ تلتهمان محتوياتها البسيطة، فما كان منه إلا أن دعاني للبدء بتناول طعامي.

لا... لن أكل إلا من الصحن الذي يأكل منه، كلمت نفسي... أو ربما (صفر اثنان ثلاثة) هو من كلمني، لا بدّ أنه خائف من أن يتم ردّ الصاع صاعين إليه في وقت أقرب مما هو متوقع.

قام العجوز بوضع أول لقمة في فمه، وبدأت أتبع خطاه في الصحن...

لقد تذوق الزيتون، الجبن الأبيض، والفول المقلب أيضاً، هذه الأطباق آمنة إذاً، لكنه لم يقترب من صحن مربى التين.

كُتِ ألثم الطعام وعينيّ على طبق المربى كأنه لغمّ متوقع، قد يكون الفخ الذي يجب ألا أقع فيه.

ما الذي قد يكون بداخله! سم؟

كان بوسعه أن يقتلني بمسدسه فذاك أسهل، لا بد لي أن أكسر السكون لأخفف عن عقلي وطأة ما أفكر به أو ما يفكر به ذلك اللعين (صفر اثنان ثلاثة) .

(ما الذي تفعله هنا يا عم؟) سأله وكنت أتمنى أن يكون سؤالاً جيداً، جيداً بحيث لا يثير غضبه .

كان يمسح لقمة من الجبن، ولم يستعجل ببلعها عندما سأله لكنه نظر إليّ بعينه ذات الجفن السليم وخلال وقت شعرت أنه دهرًا أجابني:

ـ كنتُ أعمل حارسًا لهذا المكان وبقيت .

ـ (ما هو هذا المكان؟ فندق إن كان كذلك فمكانه بعيد جدًا عن أي نقطة حيوية)، سأله لأكتشف مدى بعدنا عن أي مدينة أو قرية مأهولة .

ـ ليس فندقًا، بل مشفى .

ـ مشفى ميداني؟

ـ بل مشفى أمراض عقلية .

كنت أقطع رغيف الخبز، فتوقفت عن ذلك شيء ما أشعني برهبة، بل هو شعور ما بين الشفقة والرهبة، شفقة على أشخاص لا أعرفهم فقدوا عقولهم كانوا يتجولون في هذا المكان .

هل أنا خائف عليهم أم منهم أم من أن أكون أحدهم يومًا ما . . . هل أقدم (صفر اثنان ثلاثة) هي التي قادتي إلى هنا !

قاطع العجوز صمتي: أقرب تجمع سكاني يبعد عن هنا حوالي ست ساعات .

وقبل أن أقرب من أي طبق آخر سأله: هل أستطيع أن أهاتف أحدًا ليقلني من هنا؟

الهم لقمته الأولى من مربى التين ثم أجاب: يوجد هاتف لكن يعمل في ساعات محددة .

(ما هذا الهاتف الذي لديه أوقات محددة ليعمل بها) سألت نفسي، لكن وجهتُ سُؤالي له: ما الساعة التي يعمل بها؟

—بعد منتصف الليل.

كنت أمل ألا أقضي الليلة هنا، لكن آمالي لن تؤخذ بعين الاعتبار على ما يبدو.

التمعت السماء بالبرق من خلف نافذتين كبيرتين، فظهرت مساحة الغرفة الشاسعة أمام عيني، وظهر خيال العجوز على الحائط المقابل محاطاً بتفرعات من البرق فروّج المشهد قلبي بحيث لم أجروء على أن أسأله أي سؤال آخر، وتابعته وقد بدأ يلتقط قطع المربى من الطبق واحدة تلو الأخرى، ثم سمعتُ صوت الطبق وهو يخدش الخشب عندما قرّبه مني، وكأنه كان يقرأ تخوفاتي من هذا الطبق بالتحديد.

لم يقل هو أي كلمة، وشعرتُ أنا أن الكلمات علقّت في حنجرتي بحيث كنت مجبراً على التهام أقرب حبة تين لأنني لم أمتلك القوة على الاعتذار.

لقد كان التين خالياً من أية إضافات، لا يحتوي حبات من الشُمرة أو اليانسون تماماً كما تحبه ليلى، آه يا ليلى لو كان بإمكانك أن تجديني الآن كما كنت تفعلين دوماً.

وحده وجود ليلى قد يشعّرنني بالأمان ويحرّرنني من خوفي وآثامي، كلما تقدم الإنسان بالعمر يحتاج لمن يربّت على قلبه أكثر، يحتاج لمن ينتشله من المصائب التي يوقع نفسه بها.

أصبح التين شوْكياً في حلقي عندما جرّ العجوز كرسيه نحو الخلف واتصب ليحمل أحد الشمعدانين النحاسيين مبتعداً عن الطاولة فتابعته بعيني حتى وصل إلى ركن ما مخرّجاً شيئاً من جيبه، لقد كانت ورقة أشعلها بلهب إحدى الشمعات ملقياً إياها في المدفأة.

رفع صوته من بعيد . . .

—تعال يا بني كي تبث الدفء في أوصالك.

توجهت إلى حيث يجلس باستسلام وخطر لي أن أحمل الشمعدان النحاسي الآخر معي ربما كسلاح محتمل .

بدأت النار تحترق خلف بلور المدفأة التي أصدرت صوتاً ينبئ أن هنالك هواء يدلف عبرها:

ـمم أنت خائف؟

تجمدت نظرتي قليلاً: ما الذي يجعلك تعتقد أنني خائف؟

ـوما عساك تكون غير ذلك؟ إنني أعلم جيداً ما قد مررت به .

شعرت أن المذاق الحلو للمربي أصبح ثقيلاً بحيث عقد لساني، فسألته بجروف متقطعة تمنيت ألا يشعر بتقطعها:

ـما الذي تقصده .

ـأقصد خسارتك أصدقاتك في المعركة .

انخفض صدري من جديد عندما أطلقت زفراتي، لكنه أكمل:

ـأو ربما لأنك في مشفى أمراض عقلية مع شخص لا تعرفه .

حاولت تمويه الأمر:

ـالتواجد ليلاً في مشفى نفسي معزول أمر مخيف قليلاً .

ـليس علينا أن نخاف المجانين . . . بل أن نخاف العقلاء، بكل الأحوال لم يبقَ أحد منهم هنا .

لم يكن قد فهم أن خوفي ليس منهم إنما من ذاتي، بل من صدفة قادتني لمكان مُعد لأولئك الذين فقدوا عقولهم،

لكن لم أقل له ذلك إنما سألته: ما الذي جرى لهم؟

ـقضوا نحبهم . . .

ـدفعه واحدة؟

ـأهو أمر مستغرب في هذه البلاد ؟ من تبقى منهم شردوا بعيداً في الأنحاء، وقد كانت المنطقة خطرة لفترة طويلة بحيث لم يتم إرسال طواقم للبحث عنهم.

ـوانت لم بقيت هنا ؟

ـليس لدي مكان آخر، قضيت جلّ حياتي في هذا المكان بحيث بدأت أشعر أنني جزء لا يتجزأ منه.

كان صوت فرقة النار يختلط بصوت الرعد وعواء الريح التي تهز أمانها أغصان الشجر، كل هذه المعركة كانت مرسومة على جدران الغرفة بما في ذلك ظلي وظله.

هل هو خائف مني أيضاً يا ترى ؟ هل من الممكن أننا رجلان خائفان . . . أحدهما قاتل خائف أكثر !

هل الخوف يؤدي للجنون يا ترى ! سألت نفسي وأنا أحرق بزيميلي في هذا المكان فما كان منه إلا أن تفوه بكلمات غريبة وكأنه سمع ما أقوله:

ـالجنون هو إنسان فقد قلبه لا عقله، فقدّه على مراحل حتى أُصيب بالجنون.

قال ذلك وهو يصب كوبين من الشاي. كان يرفع الإبريق بعيداً بحيث يتحد صوت تدفق الشاي في الكوب مع جوقة الأصوات من حولي، بما فيها تلك التي في رأسي.

وضع الكوب أمامي وتابع:

ـلذلك لا يجب الخوف منهم، هم الخائفون منا ولهم كل الحق.

هل سبق أن كنت سبباً بفقدان شخصاً ما لقلبه ؟

نظرت في عينه اللامعة التي كانت تحاول فك أحجيتي وأنا أتذكر الدم المتدفق من قلب تلك الصغيرة وقد غطى الجزء الأيسر كله من ثوبها الأصفر، ثم حاولت أن يبدو صوتي مستقراً: لا، لم أقم بذلك.

نظر إلى الخاتم الفضي اللامع في إصبعي: لديك خطيبة !

إنني أكره هذا التحقيق، لا أريد لهذا الحديث أن يصبح عميقاً بحيث من الممكن أن يصل إلى (صفر اثنان ثلاثة) ! وعلى الرغم من ذلك شعرت بخيبة لأنني حاولت حمايته، لكنني قمت بتوجيه الحوار في منحى آخر لأبتعد عنه قدر الإمكان: نعم لدي خطيبة، وأنت يا عم ألا يوجد لديك عائلة؟

عدّل من جلسته على الكرسي وبدأ يحك راحتي يديه بطرف المدفأة العلوي وكأنه شعر بالبرد فجأة: _كان لدي عائلة لكنني فقدتها، لقد قضوا نحبهم هنا مع الجميع.

كانت زوجتي إحدى الممرضات وكان لدينا ابنًا واحدًا يساعدني في أعمال الحراسة والتنظيف. _ألم يكن من الأفضل لك أن تغادر هذا المكان.

توقف عن حك يديه بحافة المدفأة وأجابني بحدة وكأنني أحاول سلبه إحدى امتيازاته: _لا! إنني هنا أشعر أنهم ما زالوا معي، أجالسهم وأتحدث إليهم وأسمعهم.

لم يكن لدي رغبة في معرفة المزيد عن الموتى، ربما خشيت أن يكون أمواته قادرين على إخباره قصص أمواتٍ آخرين.

ما هذا الذي أقوله لنفسى... إن الأموات لا يتحدثون!

كان ذلك القط الأبيض يحوم في الأرجاء، وكنت أشعر بوجوده لكنني لم أره إلا في تلك اللحظة التي قفز بها على ساقَي العجوز الذي بدأ بمداعبته دون أن ينظر إليه، فقد كان نظره كله مُركّز علي: _هل تخاف الموتى أيضاً؟

_لا أخاف من شيء... قلت له، ثم لمت نفسي لأنني لم أستغل القصة في مواساته. إنني أعلم جيداً أن التربيّت على حزن أحدهم قد يكسبك إياه في صفك.

فأجاب ببطء: ليس هنالك شخص لا يخشى من شيء، لكل إنسان ما يخافه.

إن الخوف سمة ملازمة للإنسان، سمة إيجابية تساعد على النجاة. . . باستثناء نوع واحد من الخوف بالطبع.

ـ ما هو؟

ـ خوف الإنسان من نفسه، هذا الخوف سلبي لأنه الخوف الوحيد الذي لا يقود الإنسان للهرب من مصدر الرعب.

لا يمكن للإنسان أن يهرب من نفسه، هذا الخوف لن يقوده إلا لمكان يشبه هذا المكان. . . . إلى المشفى العقلي.

إن سأله عن مقصده سأجعل التهم تدور من حولي، سأصبح متهمًا بالخوف، ولذلك حاولت تشتيت انتباهه ليصبح هو نجم هذه الحفلة عوضاً عني:

ـ كيف تستطيع أن تعيش هنا ياعم.

ـ أخبرتك إنني لا أستطيع العيش إلا هنا.

ـ أقصد كيف تحصل على الماء والطعام؟

ـ هنالك برّ للماء، ومخزن أغذية في القبو، أتصدق أنني ما زلت أحياء على الغذاء الذي كان مُعدًا لنزلاء هذا المكان، حتى أن مربى التين الذي تناولناه على العشاء كان لمريضة هنا.

كانت والدتها دوماً تأتي لزيارتها حاملة علبة من هذا المربى الذي تحبه ابنتها، لكنها لم تكن تأكله.

في البداية كانت الأم تصاب بحمية أمل عندما أخبرها أن ابنتها لا تأكل المربى، لكن فيما بعد صرت أخفي عنها ذلك رافةً بقلبها.

كيف لإنسان فقد قلبه أن يستطيع تقبل الهدايا ممن كانوا سبباً في فقدانه إياه.

على الرغم من أن والدتها كانت متألمة من أجل ابنتها إلا أنها كانت جزءاً من ذلك الألم، لقد زوجها لرجل لا تريده واستغلوا غياب الشاب الذي تحبه.

كنت مذهولاً ببريق الأعين الثلاثة المحدقة بي، عينا القط وعين العجوز التي لا يغطيها جفنه المنسدل بحيث تشتت انتباهي عن قصته التي سردها فلم أعقب إلا بكلمة واحدة: مسكينة.

نظر العجوز إلى ساعته وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع ثم قال لي:

ما رأيك أن تجرب الاتصال بأصدقائك، في بعض الأحيان ينجح الأمر مبكرًا.

شعرت بحماسة بحيث سكبت قليلًا من الشاي على ثيابي والذي كان باردًا، لا بد أننا قضينا وقتًا طويلًا في الحديث!

أعطاني الهاتف وعندما أمسكته شعرت بلمس يده المتعركة عليه، حدثت في الشاشة طويلًا بحيث كتُّ محارًا ما هي الخطوة التالية؟ ما هو الرقم الذي سأطلبه!

أغمضت عيني بقوة كأنني أعصر ذاكرتي، لا أريد أن أبقى هنا إلى الأبد، والأبد في هذا المكان بالنسبة لي قد يكون بضعة ساعات.

أصدر الهاتف طنينًا عدة مرات ثم أجابني صوت مألوف، إنه صديقي حسان. لا بد أنه استغرب عندما أخبرته أنني بحاجة لمن يقلني وأني في مكان بعيد، خاصة أن الفرح كان بادئًا على صوتي، ولم يكن بالإمكان أن أشرح له أي شيء خوفًا من انقطاع الاتصال ومن العيون الثلاثة المتباينة الألوان المحدقة بي، وسرعان ما أعدت الهاتف لصاحبه كي يعطي العنوان بدقة لصديقي والذي خلال ثوان أعطاه إحداثيات مكاننا وصمت رافعًا السماعة عن أذنه.

مددتُ يدي لآخذ الجهاز من جديد، فقال:

ـ قُطِعَ الاتصال، لكنني وصفت له المكان بدقة. . . بإمكانك محاولة الاتصال مرة أخرى إن شئت.

جربت مرات عديدة لكن هذه المرة لم أسمع إلا صوت الحبيب الآلي ليخبرني أن هاتف صديقي خارج التغطية، هل من الممكن ألا يأتي غدًا! كانت كل مخاوفي تتمحور حول هذا السؤال، لكن العجوز قاطعني قائلاً:

ـ ما رأيك أن تنام وترتاح قليلاً إلى أن يأتي صديقك غداً .

ثم تابع وكأنه لم يرغب بأن يمنحني خياراً آخرًا: وأنا سأنام أيضاً، اتبعني .

حمل الشمعدان وأومأ لي بأن أحمل الآخر وعوضاً على أن يتبعنا القط تقدم هو الطريق، وانسل من الباب الخشبي الكبير متجهاً إلى الغرفة التي استحممت بها واقفاً في مدخلها محرّكاً ذيله نحو الأعلى:

ـ ستنام الليلة هنا .

كان من المفترض أن يكون الصوت صادراً عن العجوز إلا أنني شعرتُ أن الصوت آتٍ من الغرفة، فحاولت أن أصغي جيداً لأتيقن من مصدر الصوت عندما تابع:

ـ وأنا سأنام في الغرفة المجاورة .

لا بد أن الصوت خرج من فاه العجوز لا محالة، وما ظننته ما هو إلا هلوسات بسبب التعب ومما قد عانيته في هذا اليوم الطويل .

دخلت الغرفة وأنا أنظر للرجل الذي منحني ظهره مستديراً، وقد قفز قطه خلفه ليدلفا إلى الغرفة المجاورة . فأغلقت الباب جيداً ثم سلطت ضوء الشمعدان من حولي عليّ أجد كرسيّاً أثبت به مقبض الباب كي لا يُفتح من الخارج، ثم لاحظت قفلاً صغيراً على الباب فأغلقتّه وجلست على الكرسي وأنا أتنفس الصعداء، أبذلُك أكون قد حميت نفسي يا ترى !

تجولت في الغرفة بجذر، فتفقدت الحيز تحت السرير، ثم خزانة الحائط التي فتحتها عدة مرات كأنني أنتظر في كل مرة أن أرى شيئاً لا أودُّ رؤيته .

استلقيتُ على السرير والتعب يقضُّ مضجعي، كل جسدي المنهك يود النوم إلا عقلي، حتى عيني طالبتا بحصتهما من الظلام، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لأطفئ جميع الشموع، بل تركت واحدة .

إنني منهمك وبالرغم من ذلك كان عقلي يطالبني بأن أتفقد الحمام مرة أخرى لا سيما تلك النافذة الغربية المستديرة التي قد يدخل منها رجل بسهولة، وذلك الفراغ تحت السرير الذي قد يتسع عائلة العجوز بأكملها مع قطعهم! غطيتُ كل جسدي وصولاً إلى رأسي بغطاء السرير الحشن المتآكل وكأنه الدرع الأخير الذي يمكن أن يحميني من أي يد ممتدة إلى جسدي، كانت هذه الحيلة تنجح دوماً خلال طفولتي وكنت أستيقظ سالماً، وكم تمنيت أن يحصل ذلك في تلك الليلة لأن أهدابي أثقل من العالم كله.

ومع ذلك كان خيال لبب الشمعة ينسلُّ مرتجفاً من تحت غطاءي الرقيق وكأن شيئاً ما لا أراه يتحرك من حوطا، لكن لم تكن لدي القوة الكافية لرفع الغطاء .

وقد كان هنالك صوتٌ ما اختلط بصوت سقوط حبات المطر الثقيلة على زجاج النافذة، إنه مواء ذلك القط الغريب الأطوار .

مياااو مياو مياااااو

وقد كان ذلك المواء الغريب ينتهي بكلمات بالكاد تكون مسموعة .

(مياو وددتُ لو أعيش أكثر، كان لديّ أصدقاء في المدرسة أرغب في أن ألعب معهم، لدي غنمة مدللة تنتظرني لأعلق جرساً في عنقها، ووالدة ترغب بأن ألهم العشاء الذي حضرته من أجلي بشهية
لكنك منعتني من كل ذلك) .

شعرت أن الغطاء ينزلق من على جسدي وكأن يدًا صغيرة تشده نحو الأسفل، بحيث أصبح رأسي مكشوفاً، ومهما حاولت فتح عيني لم أكن قادراً على الرؤية بوضوح وكأنه تمت تغطيتهما بغربال دقيق أرى من خلاله خيال ثوب أصفر يتطاير .

لم أكن أرغب بسماع المزيد من الضجيج ولذلك وضعت يدي على أذني ومع ذلك سمعت صوت نوابض السرير الصدئة التي كانت تؤرجح جسدي نحو الأعلى ونحو الأسفل، وشعرتُ بوقع أقدامها تركض حول زوايا السرير الأربعة، ثم سمعت صوتها البريء الناعم يدور من حولي:

(وددتُ لو أعيش . . . لكن قلبي ينزف، لقد كذبت على العجوز عندما أخبرته أنك لم تقتل قلبًا، لقد قتلت قلبي) .
كان الغطاء يرتفع من جديد لتسلَّ من تحته أصابع لم تلمسني بعد لكن برودتها المتوهجة كانت تلسعني، أما رأسي فقد كان أثقل من أن أحركه لذلك سرعان ما شعرت بإصبعها اللزج على فمي:
_ لماذا لا تريد أن تذوقه، إنه دمي يا (صفر اثنان ثلاثة) .

فجأة بدأت أشعر أنني أستطيع التحكم بجسدي من جديد فحركت جذعي ورفعت رأسي من على الوسادة وأنا أصرخ: لست (صفر اثنان ثلاثة) .

تمكنت أخيرًا من فتح جفني، فوجدت ضوء النهار وقد أغرق الغرفة، وبالرغم من ذلك كان ذلك الثوب الأصفر ينتفض أمامي .

دعكتُ عيني متمنًا فلم تكن إلا ستائر الغرفة وهي تتطاير حول النافذة المفتوحة .

لقد كان كابوسًا .

جلتُ بنظري في الغرفة لأرى كل شيء في مكانه، كما تركته الليلة الماضية، سريري في مكانه ولكن غطائي منسدل عن جسدي إلى أسفل السرير، لا عجب أنني شعرت نفسي أجمد من البرد، حتى الشموع كانت في مكانها لكنها منطفئة .

تجاهلتُ صوت القرقع على الباب وكأنه بقايا من الحلم الآفل في البداية لكن سرعان ما أدركت أن الباب يقرع حقًا، فالتجّهتُ حافيًا نحوه لأفتح القفل الصغير .

(أنت بخير؟) قال لي العجوز وهو ينظر إلى الكرسي من خلفي متوجسًا .

(أنا بخير) أجبتّه.

رد عليّ (عمتَ صباحًا إذن، طعام الإفطار جاهز إن أحببت).

عدتُ إلى الغرفة بعد أن استدار العجوز آفلاً لأغسل وجهي أمام المرأة ممرّاً رأسي تحت الصنبور...

مخاطباً صورتِي المنعكسة (لقد كان حلمًا، لست صفر اثنان ثلاثة)، ودون أن أستخدم أي منشفة توجهتُ إلى الغرفة التي تناولنا فيها العشاء ليلة البارحة.

كان القط يتجول أمامي قافزًا على الكراسي القريبة من النوافذ التي يشع منها ضوء الشمس كخيوط منسلة على خشب الطاولة الكستنائي وعلى الأطباق المرتبة فوقها وعلى القط الذي يلتمع وبره بشكل جميل.

لم يبدُ في تلك اللحظة خيفًا لا هو ولا صاحبه الذي تألّقت عينه العسلية تحت ضوء الشمس أيضًا إلا أنني انتبهت أن العجوز تمكن من رفع جفنه الآخر قليلًا عندما نظر إلى ساقِي على الرغم من أنه بذل جهدًا من أجل ذلك.

كان ينظر إلى ساقِي بدهشة!

ثم سألتني: أنت مصاب؟

لماذا يظن أنني مصاب!

(إن جسدي بخير) أجبتّه ثم أكملتُ العبارة في رأسي... لكن شيئاً آخر هو الذي ينزف داخلي.

لكنك تنزف!

عادت رعشة الخوف من جديد إلى قلبي عندما عاد العجوز بالكهن بما لا أخبره به، وارتعدت عندما اقترب مني وقال:

ساقك تنزف.

نظرتُ إلى ساقِي اليمنى والتي كانت تنزف فعلاً، لكنني على يقين أنني لم أصب البارحة!

ثم تذكرتُ المرأةَ المكسورة في جيبي، لقد نمت وهي في جيبي، لا بد أن شظاياها جرحتني .

لم ينتظر العجوز تبريراً، بل سارع بإحضار شاش معقم ومُطهر وبنطال جديد ونظف الجرح وعقمه وأخرج المرأةَ المكسورة من الجيب وقال:

ـ لا بد أنها السبب في جرحك هل تتألم؟

الغريب حقاً أنني لم أكن أتألم ولم أشعر بها تحز جلدي، قلت له: أبداً، أنا بخير .

قام بوضع المرأةَ المدماة على حافة الطاولة ثم سخّن الشاي من جديد، وسحب الكرسي وجلس مقابلي وقدم لي رغيفاً دافئاً .

أخذ رشفة من الشاي ليتأكد من حالوته ثم سألتني:

ـ كنت تصرخ الليلة الماضية (لستُ صفر اثنان ثلاثة) .

ـ لا بد أنني كنت أهذي من التعب يا عم . . .

لكنه نظر إلى الرغيف الذي قطعه إلى عدة قطع أمامي وأنا أعطي توتري .

كنت أقضمها دون أن أغمسها بأي شيء أما هو فتابع تناول طعامه حتى وصل إلى طبق مربى التين فقال:

ـ أعلم أن مالكة المرأة التي جرحتك هي ذاتها فتاة مربى التين التي أخبرتك عنها .

لقد كنا نسميها الفتاة القادمة من مدينة العاطلين عن الحب، كانت تحفر هذه العبارة على كل الألواح الخشبية في غرفتها .

لقد حدثني البارحة عن فتاة التين لكنني كنت مُشتتاً، ثم خلال لحظات عاد عقلي ليعمل بصفاء . إن عبارة (مدينة العاطلين عن الحب) أعادتني إلى وعيي .

انسحبتُ من كرسيي بسرعة واتجهتُ إلى الحافة التي وضع عليها العجوز المرأةَ .

كيف لم أُنَبِّه لذلك !

إنها ذاتها ! المرأة النحاسية التي قدمتها يوماً إلى ليلى، لقد كانت معي طيلة الوقت !

قلبتُها بين يدي، إنها ذات المرأة لا محالة، وحاولت تذكر كل ما قد قاله لي العجوز البارحة:

"لقد قضت هذه الفتاة نحبها في مشفى الأمراض العقلية لأنه تم إجبارها على الزواج من رجل لا تريده بعد أن استغلوا غياب الشاب الذي أحبه".

جلستُ على الأرض وساقِيْ مشيتين تحتي بذات الطريقة التي كنت أحمل بها رأس الفتاة الصغيرة بين يدي، لكن هذه المرة حملت المرأة المطلحة بدمي لأنني الوجه الذي لطالما زينها لقد كان وجه ليلى .

لله اللحن الرابع عشر لله

في غواية الألفة

نورسين

أن يُولد المرء وهو فاقدٌ لشيء ما أسهل من امتلاكه ثم خسارته بالتدريج حتى الزوال .
لسببٍ ما تصبح الأشياء أجمل بعد فقدانها . المنازل تصبح أكثر دفئاً وحميمية، الأمهات يصبحن صديقات أقرب،
الحبيبات يصبحن أجمل، والفنانون يصبحون مبدعين عالميين .
ربما علينا ألا نظلم الإنسان كثيراً في عدم تقديره لما بين يديه، إن لا مبالته قد تكون حماية له من هاجس فقدان
الحتمي، فيفضل بذلك أن يعيش حزناً لاحقاً عوضاً عن عذاب يومي لا يدري متى ينتهي .
إنه يؤجل أحزانه فحسب، يدفع فاتورته بشكل لاحق على أن يقضي كل حياته في تسديدها بالتقسيط .
لكن هنالك دوماً ما قد يذكره بحتمية فقدان، كأدوية الأمهات والآباء التي تطل بأعناقها وألسنتها من العبوات
لتذكرنا أن العد العكسي قد بدأ .
أوفي حالتي . . . كلمة (خالة) التي كان يخاطبني بها صبي البقالة والتي بقيت ترن في أذني لأيام طويلة، ونظرة سائق
سيارة الأجرة عندما كنت أناديه (يا عم) لأدله على الطريق المؤدي إلى منزلي .
فكانت نظراته الاستهزائية تقول لي: أنت في عمري تقريباً يا عزيزتي .
إن الإنسان يقتنع ببساطة أن الشخص الذي يحمل خصل شعر بيضاء، أو تجاعيد عميقة حول عينيه قد يكون
بمثابة عم أو خال أو حتى جد بالنسبة إليه رغم أنه قد لا يكبره بالكثير من السنوات .

لكن من الصعب أن يعتاد فعلاً على كونه قد أصبح هو كذلك، فقط لوجود بقايا طفولية داخله تبقى مستعصية على الزمن لا يرى بريقها سوى الشخص ذاته .

عليّ الاعتراف أنه ليس هنالك حيزٌ واسع في هذا العالم لأشخاص يشبهوني، وقد كنتُ أظن ذلك لأنّ حجمي أكبر من المعتاد فحسب، وأنّ الأرتال الزائدة التي اكتسبتها بعد إنجابي لمريم هي السبب في ذلك، ولكن بعد أن فقدت جزءاً لا بأس به من وزني الإضافي اكتشفت أن الأمر أشبه بدخولي لمتاهة لن أستطيع الخروج منها أبداً وسأضطر دوماً لإكمالها بغية ملاحقة سراب هدف لن أتمكن من الوصول إليه .

لقد كنتُ أحاول أن أدلف في هذه المتاهة عبر الممرات الضيقة بصعوبة ليس بسبب دهوني فحسب بل لأنّ النظرات والكلمات والضحكات الاستهزائية لها ثقلٌ إضافي أيضاً، وتسدُّ شراييننا كما تفعل الشحوم الثلاثية، بل بكفاءة أكبر .

(هل يصرخ الميزان تحت وطأة جسدك؟ هل نظرت لأزرار قميصك قبل الخروج، يبدو أنها تعاني لحبس لحملك !
هل سجلت في نادٍ رياضي؟)

لقد كانوا يمنحون عباراتهم صيغة السؤال تعبيراً منهم عن اهتمام زائف بإجابة لا ينتظرونها، لكن أحداً منهم لم يكن مهتماً بمعرفة الحقيقة .

حقيقة أن الأشخاص الذين يعانون من الوزن الزائد هم أشخاص ممتلئون بالشوكولا والمارشميلو والأحلام والمشاعر، وليسوا مجرد كتلة من الدهون لا تفكر ولا تتأثر، كما أنهم ليسوا وحوشاً مستعدة لالتهام كل شيء على مدار الساعة، بل قد يكونون مجرد أشخاص عاديين باستقلاب بطيء يقفون مكتوفي الأيدي أمام أطباق شهية لا تقاوم، أما في حقيقة الأمر فوجباتهم لا تزيد في معظم الأحيان عن شخص لا يتجاوز وزنه خمسين كيلو غراماً .

فببساطة هم أشخاص لديهم مكان يتسع الكثير من الأشياء الشهية والجميلة، أو ربما لديهم فراغٌ كان من المفترض أن يمتلئ بالحب والاهتمام لكن لم يحصل ذلك، فقاموا بملئه بمخفوق الكريمة مع قشطة إضافية .

لا يمكن للإنسان أن يحفز شخصًا ليكون أفضل من خلال استعراض أسوأ ما فيه وتشويهه، حتى إن حصل على نتيجة ما وأصبح تمامًا كما رغبوا له أن يكون إلا أنه سيحمل الاستهزاءات كدهون لن يستطيع أحد غيره أن يراها، وأكاد أجزم أنني مازلت تلك الفتاة البدينة في نظر ذاتي مهما حاول ميزاني إقناعي بنقيض ذلك، فإن المؤشر لا يتحرك عند امتلائنا بالخيبات والآلام والغضب.

لكنني كنت أصبح خفيفة كريشة لحظة سماعي لمريم وهي تنادي (ما . . . ما) لتنهني أنها استيقظت من نومها، فتنظر إلى الأعلى وتحاول مسك النجوم والفراشات المتقافزة فوق رأسها، وعندما أصبح في مجال رؤيتها تمد يديها لتمسك بي أنا . . .

يجب أن أكون ممتنة لأنني ما زلت نجمة و فراشة في نظر شخص ما على سطح هذا الكوكب، رغم علمي أنني سأفقد هذه الميزة قريبًا لكنني كنت أجاهل ذلك.

لقد كان بيني وبين مريم لغة حوار منذ اللحظة الأولى التي علمت أنها تنمو داخلي، كنتُ أحاطبها دائمًا فكانت تتموج في أحشائي وكأنها تبدي رأيها حول كل كلمة أقولها .

لقد كانت صديقتي قبل أن تأخذ شهيقها الأول في هذا العالم. عندما أتابع فيلمًا ما أضع يدي على بطني وأسألها عن رأيها فإن تحركت يسارًا اعتبرت ذلك علامة موافقة منها وإن تحركت باتجاه اليمين اعتبرت ذلك علامة رفض وغيّرت المخططة.

إن كلاً من ألبستها ودُمّاها وسريرها وورق حائط غرفتها كانت خياراتها الشخصية، لقد كانت كثيرة الحركة ولم تترك يومًا الخيار لي، وقد كان ذلك يعجبني .

يعجبني أن يكون لها شخصية قبل أن تولد حتى، أو هذا ما كنت أتوهمه لأنني كنت طيلة حياتي على النقيض من ذلك، حيادية . . . ليس لأنني لا أستطيع أن أقرر بل لأن أحداً لم يعلمني كيفية اتخاذ القرار .

إن أقصى الأشياء التي اخترتها في حياتي هي التي سمحتُ لمريم أن تختارها قبل أن تبلغ خمسة أعوام.

على الرغم من عدم تمكيني دومًا من اختيار ملابسني إلا أنني كنت أتمتع بهذه الرفاهية بين الحين والآخر وذلك كان يتوقف على طبيعة المناسبة التي سأرتدي فيها الثياب والأشخاص الذين قد يرونها .

طعامي، أصدقائي، ومتابعي الدراسة، وهواياتي جميعها كانت تدرج تحت قائمة اللا اختيارات .

شيء واحد كنت أمارسه في السر دون أن يؤنبني ضميري، كنتُ أكتب وأخفي القصص التي أكتبها في ظلام إحدى زوايا بيت المؤونة، لا أخفي القصص مجد ذاتها، بل أخفي لذتي الجاحمة بتحكيمي بمصير الشخصيات، أخفي قدرتي على اختيار حياتها نيابة عنها، من خلال هذه القصص كنتُ أتناول مع والدي ووالدي وأخي بطريقة ما .

وقد كان يراودني حلم يتكرر بشكل مستمر حول تكريمي عن إحدى مجموعاتي القصصية، وأنا أمسك بتمثال صغير وألوح به لحشدٍ من الجماهير كما يفعل النجوم على السجادة الحمراء، كان يعجبني الأمر على هذا الحال رغم أنني أدرك أن تكريم الكتاب مختلف عن حفلات السجادة الحمراء .

أحيانًا كان يأخذني حلم يقظتي فتفرق الدموع في عيني وأضع يدي على فمي متلعثمة بكلمات شكر لكل من أثرت به حروفي .

لكن الأمر لم يكن ينتهي إلا بأن يتم التقاط حلمي على يد أخي وقد كان من الصعب أن أشرح له أنني متأثرة فقط بالتصفيق الذي حظيت به . . . لا عاشقة مكسورة القلب، ولذلك كنت موضع شكه الدائم .

أما أمي فكانت تسمح على رأسي مرددةً بعض الرقى والآيات القرآنية لأنها كانت تظن أن بي مسأً وذلك عندما تراني في المطبخ ممسكة بإحدى الملاعق الغارقة بالصابون والتي أتحدث من خلالها عن أهم الشخصيات التي لم تغير حبكة الرواية فحسب بل غيرت حياتي أيضاً .

وبالطبع لم يكن الحال أفضل مع أبي الذي كان يراني أمد يدي في الهواء فجأة وأنا أنظف نافورة الماء من بقايا الفل الذابل والأوراق المتساقطة عليها من أشجار الحمضيات التي تسور حديقة دارنا، فيسألني إن كنت أكلم نفسي، فأتلثم وأصطنع حركة تماشى مع الموقف الأبله الذي وضعت نفسي به فمن غير الممكن أن أقول له أنني كنت أصافح لجنة التحكيم أثناء منحي جائزة عن روايتي الأخيرة.

لقد كان شديد القلق عليّ وخائفاً من أن يذاع أنني معتوهة فلا يقرب أحد بابي وأموت وحيدة، إلا أن قلقه قد انحسر عندما تقدم لخطبتي زوجي -والد مريم- والذي كان يتمتع بميزات تجعل أي فتاة تشعر بالفخر لأنه قد اختارها.

وقد فرحت حينها وكأني حققت نصراً مبيئاً معتقدة أنني اكتسبت ميزة الخيارات للمرة الأولى.

لكنني عندما أفكر اليوم بالأمر، أجد أنه لم يكن بمثابة خيار حقيقي، بل مجرد إجابة (بنعم أو لا).

لقد كان الأمر أشبه بأن يسألك أحدهم إن كنت تفضل أن تشرب الشاي أو القهوة ليشئت نظرك عن أي خيار آخر قد يناسبك أكثر، أنت عطشٌ ومجاجة لعصير طازج ينعشك لكنك لم تفكر بالعصير حتى وإن تجويع الفرس أمامك جعلك تدعن للقهوة.

ربما لأنها المشروب الذي يفضله الآخرون عادة، لكنك حقاً لا تدري ما الذي تفضله أنت على وجه التحديد لأنك لم تعلم كتابة قائمة خيارات خاصة بك.

لم أكن أدرك حينها ذلك، خاصة أنه قد تم تضليلي بمجموعة من الخيارات الوهمية جعلتني أشعر أنني أنا التي اخترت حقاً.

لقد استطعتُ اختيار قماش ثوب زفافي من بين خمسة أقمشة، وأحمر شفاهي من بين سبعة أقلام، وغرفة نومي من بين أربع غرف نوم، وسجاد غرفة المعيشة من بين عشر سجادات.

إن الأمر يتكرر دومًا أليس كذلك ! إنني لست حرة إلا في اختيار الاحتمالات التي تعرض عليّ فحسب ولا أدري إن كانت الخيارات الحقيقية مخفية بواسطة أحد ما ، أم أنني عاجزة عن رؤيتها .

أحيانًا أفكر بكل الخيارات التي قد تكون متاحة لمريم، هل يا ترى سلبتها خيارها الأول بالوجود . . . من عدمه ! أليست هذه الحرية الكبرى الحقيقية !

ربما ما أفعله من محاولاتٍ لتنمية قدرتها على الاختيار هو تكفيرٌ مني عن سلبها لحياتها الأولى، أو ربما مجرد رغبة أنانية دفينية في أن تحقق هي ما لم أستطع أنا تحقيقه .

إن سئلت عن خيارتي الحقيقي فإنني أرغب بالعودة إلى غرفة المؤونة التي يتوسطها بئر من الماء لأخرج قصصي من الظلام إلى النور، لكن ماذا لو كان يترتب على ذلك الخيار ألا يكون هنالك مريم أبدًا !

كل مرة أفكر فيها بذلك أجفل للحظة إنني أريدها أكثر من أي شيء في هذا الوجود !

إننا نصبح أسرى لما لا نختاره أحيانًا بل ونفضله على كل حرياتنا الصغرى .

لا شيء في هذا العالم يمكن أن يسعدني أكثر منها بجديها الحمرين وأهدابها الطويلة، وثنيات يديها الممتلئتين وركبتها المستديرة كدراقة شهية ومشيتها المترددة المتأرجحة كتئورتها المزركشة، ونظراتها الفرحة التي تطالبني بالتصفيق لأنها قامت بإنجاز ما فتعود إليّ حافيةً على ركبتيها . . . فتحمران أكثر .

لقد كَوَّن الأطفال بأشهى حُلّة ممكنة، فعندما تراهم يتمايلون بمشيهم كهلام الفاكهة أمامك . . . ستحтар ما بين التقاطهم أو التهام وجناتهم .

إنهم كقطع الحلوى المصقولة بكريما الفانيليا الناعمة الفواحة والمزينة بداتيل الشوكولا المرهف، كل ذلك كي تندفق أفسى القلوب غرامًا أمامهم .

إن مريم بكل أسلحتها الهشة كانت الوحيدة القادرة على ترويض والدها، بوجودها كنت أكتشف وجوهاً أخرى له.

الوجه الخائف . . . فحاجبيه المعقودين لا يتهدلان حزناً إلا إن ارتفعت حرارتها قليلاً .

الوجه المشتاق . . . حيث يغزو البريق عينيه فتصبحان كمجرتين لامعتين عندما يراها فور دخوله إلى المنزل .

الوجه المهرج الذي يتقلص بطريقة مضحكة ويصدر أصواتاً غريبة كي تبقى مريم مندهشة بين يديه .

على الرغم من أنه لم يكن مسروراً بها طيلة حملي، ربما لأنه كان يرغب بصبي أو لأن جسدي بدأ يخسر منحنياته الأنثوية .

لقد كان دوماً يُشعرني أنه قد وقع في الفخ الذي حاول تجنبه دوماً، وأني امتدادٌ لغرفة عملياته التي لطالما رغب أن يهرب منها، امتدادٌ للبطن المنتفخة والسوائل اللزجة والجلد المتمزق والدماء النازفة .

وكأنني كنت صدمته المخيبة لعدم وجود طريقة لإنجاب الأطفال دون تخريب الأجساد الحليبية الناعمة، هو الذي اختارني بدقة كمشال إغريقي ينضح بالتفاصيل الأنثوية مع جناحين مرفرفين وكأنهما ينكران كل آثام الخصوبة .

لم يكن يعبر عن غضبه وامتعاضه بالصراخ والعتاب، بل باللامبالاة والصمت الطويل وأظنه قد طوّر هذه الآلية ربما ككوع من الحفاظ على مكانته أمام الجيران .

لقد كان الطبيب الهادئ الذي يستلطفه الجميع، بابتسامته المريحة التي تبدو أكثر دفئاً من معاطفه الشتوية الطويلة وبحقيقته السوداء التي كانت توحى بأنه أشبه بـ (أرسين لوبين)، وقد كنت أعلم جيداً أنها لا تحتوي على أشياء مهمة إنما يحملها لأنها تجعله يتوازن أو يقبض على شيء ما لحظة شعوره بالغضب .

كنت أتمنى لو كان بوسعها أن يحملها في المنزل أيضاً، ليبدو بذلك المظهر المتقبل لسماع كل القصص أو على الأقل أن يحشر قصتي في حقيقته كأني تقرير طبي ليطلع عليها في وقت لاحق .

كنت أريد أن أخبره أنني لم أعد حتى اللحظة على أبواب الساتان المخصصة للنوم، فجسدي الذي قضى جل وقته في ثياب المنامة القطنية المزدانة بالشخصيات الكرتونية يجد صعوبة في التأقلم مع الانزلاق الحيري لهذه الأتواب الجديدة.

وأنه من الصعب عليّ أن أتقبل أن الصوت ليس مجرد وسيلة للتواصل بل يمكن له أن يكون سيمفونية إغواء .
وأنني سأحاول دومًا أن أشدّ فسائني نحو الأسفل، وسأغض عيني بشدة عند كل قبلة لأنني أخشى أن أفتحهما ممسكة نفسي بالجرم المشهود .

كنت أريد أن أسرّ له أن جسدي كان يتقدمني دومًا بمرحلة، بحيث لا أستطيع اللحاق به في الوقت المناسب .
ففي الطفولة كان ينسلّ بحبث إلى الأنوثة الضحلة، وفي المراهقة كان ينسلّ سريعًا إلى أنوثة أشد عمقًا من أن أدركها، ولتكمّل سخرية جسدي مني فإنني اليوم أعاني من سن يأس مبكر .

كنت أتمنى وهو يفحصني ويقرأ تحاليلي أن يعاملني كأني مريضة عابرة يخبرها بابتسامة مطمئنة أنه من الممكن تدارك الأمر بدائل هرمونية وعدد من العقاقير، لكنه تركني وحدي في مواجهة ذلك وكأنه يعاقبني ليجعل الوقت يمرّ عليّ أكثر صعوبة مما جعلني أفهم سبب تسمية هذا السن بسن اليأس .

ليس يأسًا من جسد المرأة ذاتها بل يأسها هي ممن هم حولها .

يأسها من شريك حياتها الذي لم يعدّها أكثر من آلة تقوم بوظائف محددة دون أن يكثر لمشاعرها تجاهه أو تجاه نفسها، لكنه سن أمل أيضًا بالنسبة لكثيرات يكتشفن أن حب أزواجهن ليس مقرونًا بعدّ تنازلي لعين يصدق في أذانهن مصدره أرحامهن . . . تك تاك . . . تك تاك، وربما لذلك يمكن تسميته بسن الأمل واليأس معًا .

لقد كان يعتريني مزيج من المشاعر ما بين الغيرة والغضب والخجل عندما يغازل نساء ويلطفهن كما لم يفعل معي قط، عندما ينضح شهامة لسحب الكرسي لمن قبل الجلوس، وعندما ينصت برفق واهتمام لأحاديثهن مهما بدت

مملة أو سخيفة، وعندما يركض سريعاً ليستبدل قارورة الغاز لإحدى الجارات ويساعدها في نشر السجادة على الشرفة كي تجف، هو الذي قد يترك الغرفة مظلمة ثلاث ليالٍ قبل أن يفكر في استبدال مصباح قد تعطل فيها، هو الذي قد يتركني أصرع نصف ساعة مع القارورة الزرقاء قبل أن يتخذ قراراً باستخدام المفتاح الإنكليزي لاستبدالها، طبعاً بعد أن ينظر إلي شزراً كأنني لم أقم بوظيفتي المعتادة على أتم وجه.

قد أبدو لكم امرأة رجعية متخلفة لا تؤمن بالتساوي بين الجنسين، لكنني لست كذلك . . . فكل ما أعتقده أنني لم أمنحه تعاوني بقدر ما قد سلبته مهاماً يشعر من خلال أدائها بضرورة وأهمية وجوده في المنزل، مهاماً مهما بدت سطحية سخيفة إلا أنها تربطه بالبيت ليحس أنه جزء منه حقاً بحيث لا تكتمل الأركان بدونه، لا مجرد نزيل في فندق يرتاده ليلاً ليرى كل شيء نظيفاً مرتباً، فالجوارب تحاك ثقبوها والثياب تكوى والثلاجة تمتلئ بأطياب الطعام تلقائياً .

أحياناً إن قيام المرء بمهام إضافية دون أن يطلب المساعدة من أحد لا تجعل منه مثابراً يمتن الآخرون لكدحه بل مجرد شخص غير مرئي يلبي الحاجات فحسب، شخص يغال عن غير عمد جوهر التعاون الذي يجعل الأفراد يشعرون أنهم ينتمون لبعضهم البعض ولا يكتملون إلا بوجودهم سوياً، ولذلك أشعر معظم الأحيان أنني مذنبه بحقه قبل أن أكون مذنبه بحق نفسي .

إن اعتاد الرجل على عدم اعتمادك عليه لن يد لك يد المساعدة ولو وجدك تغرقين، في حين أنك لو اعتمدت عليه منذ البداية سيقوم بكل ما يجب عليه القيام به بكل رحابة صدر وكفاءة .

إن لهذا شرطاً وحيداً فقط، أن يتم ذلك منذ البداية لا بشكل لاحق . الزمن هو الذي يحدد ماهية شعوره الطاعني فإما سيكون إنساناً مسؤولاً يمكن الاعتماد عليه أو مجرد شخص يتم استغلاله في كل مهمة يظن أنها لا تليق به .

وربما إدراكي المتأخر لذلك كان قد جعلني أخرج من الصورة تلقائيًا لتتحمها هي بصوتها الرقيق ومشيتها المغناجحة ووجهها المزين وشعرها المصفى دومًا وأثوابها المنزلية الطويلة المزدانة بالريش والأهم من ذلك كله ضعفها الذي كان يشكل نقطة قوتها القاضية.

ما من شيء قد يجذب رجلًا كزوجي أكثر من شعوره أن هنالك امرأة بحاجة، أن حياتها لا يمكن أن تكتمل بدون جهوده الجبارة وقوته المنقطعة النظير، لكن كما تعلمون لم ينجح الأمر معي وقد بتم تدركون السبب تمامًا.

لم أكن أملك فرصة عادلة بوجودها، فقد حاولت بكل ما أوتيت من ضعف وأنونة أن تسرق مكاني، وقد يظن أحدكم أنني إنسانة تفقر للعنفوان والكرامة وسيستاءل مجدة لماذا لم أتخلى لها عن مكاني الذي لم أكن راضية عنه، بل لماذا لم أستغني عنه قبل ذلك بكثير في محاولات سابقة من ذات القبيل.

إن أي امرأة أخرى قد تجيبك أن أطفالها هم السبب خلف خنوعها وهوانها حتى لو كنّ يعانين أكثر مما عانيت طيلة حياتي، حتى لو كنّ يضربن ليلاً نهارًا لكن مع كل ذلك سيسترن على الإجابة الحقيقية بإجابة قد تبدو صادقة وكافية أو ربما هنّ على درجة من السذاجة بحيث لا يستطعن تحديد الأسباب الحقيقية والإدلاء بأن (الألفة) أكثرها أهمية.

إنها ألفتنا لكل ما هو حولنا، ألفتنا للأشخاص والمكان والحالة بحيث نعجز عن الانفصال عنها مهما كانت سيئة ومؤذية.

إن الكثيرات قد يتحملن الضرب والخيانة والإهمال والقسوة واللامبالاة والتهميش فقط لأنهن واقعات في غواية الألفة، وما من داع للقول كم هي مغوية.

إنها تجعل منا عبيد تكهناتنا بأن ما سيحدث ليس أكثر سوءًا مما حدث، وأن التأقلم الذي اكتسبناه مع أمر غاية في السوء أفضل من الإقدام على أي مجهول ربما قد يكون أسوأ، لكن مع فارق بسيط أننا سنحتاج وقتًا وجهدًا إضافيين لبناء ألفة جديدة معه.

وإن الألفة لا تقرنا مع الأنماط المريحة فحسب بل تزداد غوايتها مع الأنماط غير المريحة أيضاً، إنها توقعنا في دوامة من الاعتقادات السلبية لحياة أكثر سوءاً .

إنه نوع من الارتخاء والاستسلام اللذيذ الذي تشعر معه أنك لست بحاجة للمقاومة فهذا هو قدرك ونصيبك .

لن يتم تقبلنا، ليس هنالك فرص متاحة، ما من مكان أستطيع الذهاب إليه، عائلتي لن ترحب بي، أطفالي لن يشعروا بالراحة، سيتم استغلالي . . . كل هذه الأفكار تجعلنا ندعن لظروفنا الرديئة وذلك لا ينطبق على الحياة الزوجية فحسب .

فمثلاً إنك لن تهجر عملك الذي تمته بالرغم من أنه ما من فكرة تراودك أكثر من استبداله بمكان لائق ليجاورك في مكتبك زملاء يحترمونك، لكنك غالباً ستعجز عن القيام بذلك وستغرق في اعتيادك على عملك المقيت الحالي وزملائك الذين لا يفوتون فرصة لازدراءك .

ستقع في شبكة من التساؤلات . . . هل المكان الذي سأنتقل إليه أفضل ؟

هل العمل سيستغرق وقتاً أطول، هل سيكون زملائي الجدد لطفاء حقاً ؟

وإن الإجابة بـ (ربما) قد تجعلك تعدل عن الفكرة كلها، إنها تصور لك المستقبل بشكل لا يكاد يختلف عن الحاضر المقيت، إنها تجعل منه أكثر صعوبة كيلا تتمكن من الانتقال إليه .

وإن هذه الغواية تصلح لكل زمان ومكان ولا تفرق بين رجل وامرأة، وقد تصبح أكثر خطورة حتى عندما يبدو الأمر لك صائباً ولا تشوبه أي شائبة، هل فكرت بذلك من قبل ؟

إنك غير قادر على التخلص من عيوب جسدك فقط لأنك تألفها، على الرغم من أنك تستطيع ذلك إلا أن كسلك سيغرقك في الغواية أكثر، لا سيما أنك لا تعلم كيف ستمارس حياتك في الحالة الأخرى ولذلك ستكفي بتخليها وسيكون عدم قدرتك على ارتداء بنطالك القديم المفضل سبباً واهناً ولكنه كافياً لتخلي عن الفكرة كلها .

إنني لا أقول أن الجميع قد يقعون تحت رحمة الألفة لكن قلة هم الذين قد ينجون منها وهم شجعان، شجعانٌ جداً.

حسنًا، هنالك أسباب أخرى أيضًا . . .

إنه ذلك الشعور الخادع بالتملك الذي يغمرك للدفاع عن كل ما كان لديك حق التصرف به.

فمنزلك الذي تركته لسنوات عديدة سيصبح عزيزًا غالبًا لحظة تقوم ببيعه، تمامًا كالبلد الذي بذلت ما بوسعك لتهجره والذي سيغرقك الحنين إليه في غربتك إنها لعنة ياء الملكية.

دميتي، منزلي، وطني، زوجي، ابني . . .

آه . . . حتى ابنك الذي قد تفعلين المستحيل كي يكون سعيدًا سيكدرك أن تلحق إحداهن باسمه ياء الملكية.

إن الإنسان يجد صعوبة بالغة في إدراك أن كل ما يُلحق بهذه الياء ليس ملكه حقًا وأن هذه الياء لطلما قد خدعته مبتسمة ابتسامة مائلة صفراء استهزاءً به، والإنسان لا يملك أمام ذلك إلا أن يتمسك بالبقايا، سيتمسك بها بيديه وأسنانه، وإن تمسكه الأرض بها سيفسدها .

وقد صبرت كثيرًا على بقايا زوجي وهي تسرب مني يومًا بعد يوم، تسرب بشكل شديد الوقاحة . . . كوقاحة مضغها اللبان وهي تقف مائلة أمام باب بيتي لتقدم لي طبقًا من الطعام.

وفي تلك اللحظة لم أدري ما السيناريو الذي قد يكون أكثر مدعاة للشفقة.

هل هو سكبني للحساء الحار على رأسها بحيث أجعل ملامحها الفاتنة تذوب فتصدر لائحة الأخبار، أم أخذي الطبق منها بابتسامة تخفي أنني على إدراك تام بخطتها التافهة لسلوك الطريق الأقرب لقلب زوجي .

وعلى الرغم من أن الخيار الأول كان ليروي الكرامة أكثر إلا أنني ومن دون تفكير قمت بالخيار الثاني، وإن ذلك جعلها على ما يبدو تشعر باستمتاع أكبر فقد سمعت بعد أن أغلقت بابي بهدوء صوت نفخها الهواء في اللبان بحيث أصدرت به صوتاً يشبه صوت قلبي المنتفخ قبل أن تغلق باب شقتها .

إنه سبب آخر أليس كذلك؟

التنافس أو ليس التنافس على وجه التحديد .

حسناً هو تنافس من جهتها لكنه من جهتي عدم رغبة بالاستسلام .

إنها من النساء اللواتي قد يقمن بالكثير ليشعرن أنهن متفوقات على غيرهن، قد يخضن حرباً شرسة دون أي ضوابط، أما أنا فكل ما كنت أفكر به أنني لا أريد أن أحرر واقعة تحت قدميها بعد أن أفلدها تاج تفوقها عليّ .

قد أبدو كمراهقة ساذجة لم تكن تعلم أن انسحابها هو فوزها الأكبر، لكنني لم أستمع لصوت الحكمة في رأسي بل جريت إلى الإنترنت لأتسلح بكل ما قد يُعينني في معركتي البائسة هذه .

الألوفيرا للشعر، ماء الورد للبشرة، الأفوكادو كثير الفوائد إلا أنني لم أصدفه عند بقال الحي الذي أصبح محاراً بأمري لكثرة طلباتي الأخيرة، فقد استبدلتُ مكونات وجباتي التقليدية بمكونات أخرى جديدة ومختلفة كلياً كانت تثير أحياناً الاستحسان لدى زوجي وأقصد بالاستحسان أنه لم يكن يدفع الطبق ويتوقف عند إكمال لقمة الأولى .

حسناً لا يهم لا يهم، هنالك المزيد من الصفات ومن اليوم فصاعداً عليّ أن أجربها على نفسي قبل أن يجربها هو .

هل الملح مضبوط كما يجب، ما مدى حدة البهارات، هل من الممكن أن يكون الحساء قد برد أثناء غسله ليديه . . . لا بد أن أسخنه مرة أخرى، لكن ماذا إن عاد ولم يجدني !

عليّ أن أتأكد أن كل شيء مضبوط النكهة وبذات الوقت عليّ ألا أكثر من التهام الطعام، حسناً سأتناول لقمة إضافية ليشعر أنني أشاركه، إن المشاركة مطلوبة وكوب الشاي الأخضر سيرفع استقلابي لاحقاً وربما قد أركل الأثاث في غيابه وألكم الحائط وبذلك أتخلص من الوحدات الحرارية الإضافية، لكن لا بد أن أصلح ما أفسدته من أثاث أيضاً قبل قدومه.

لقد أصبحت نجارة جيدة بعد عدة دروس على اليوتيوب، بل وقد صنعت طاولة خشبية ودهنتها بالألوان زاهية كوع من التغيير، لكنه لم ينتبه لوجود الطاولة الجديدة أو ربما انتبه! إنه شديد الملاحظة لكل ما هو ناقص أو قبيح أو مخرب، ربما هذا هو الأمر وعليّ أن أعتبر عدم ملاحظته إطراء مهماً.

حسناً، هل انتبه لأن الخطوط الأرجوانية التي تغطي بطني قد قلت! لكن بعضها تحول للون الأبيض.

ترى هل هذا أفضل أم أسوأ بنظره!

سأفكر بذلك لاحقاً بعد أن أنتهي من البحث عن بيض النمل، هل هو بيض حقيقي وهل سيفني بالغرض حقاً أم أن لجوئي لليزر سيكون أفضل.

ماذا عن مارلين مونرو كيف كانت تحافظ على بشرة كهذه مع عدم وجود الليزر، لا بد أن لها جنية سحرية منحتها تلك البشرة الرقيقة، لكن سمعت أن السيلوليت لم يرحمها أيضاً هي الأخرى... ترى هل سيليق بوجهي أن أرسم شامة كشامتها؟

ماذا عن صوفيا لورين لا بد أن أبحث عن أهم أسرار لياقتها وحفاظها على منحنيات جسدها بهذه الصورة الجذابة، الرقص؟ هل هو الرقص؟ عليّ أن أتابع المزيد من الأفلام العربية إذن.

إنني أحتاج لبعض الخلاخل والأساور ذات الليرات المذهبة كالتي ترتديها أحياناً خاطفة الرجال تلك، ترى هل سيظن أنني أقدها ! ذلك سيؤكد أنها متفوقة علي .

لكن أنا . . . أنا لا أقدها أنا أقلد تحية كاريوكا فحسب .

لا لا أنا لا أقلد أحداً، أنا أستعير شيئاً صغيراً من كل أحد بحيث أكتسب طابعي الخاص المتفرد .

لكن ألا أبدو أنني أتشبه بها قليلاً عندما أضع أحمر الشفاه الفاقع، ربما عليّ استبداله باللون الأرجواني إنه لون جميل أيضاً ولن أنسى أن أطلي أظافري وأضع ظلالاً لامعة على أجفاني بطريقة تجعل عينيّ تبدوان كقطط الأنغورا كما فعلت خبيرة التجميل تماماً وهي تقول (اجذبي الأنظار لك بالألوان) .

ألوان، ألوان، ألوان في كل مكان . . .

على وجهي، على مائدتي، في صالتي، حتى ثياب مريم أصبحت زاهية أكثر .

هل اعتقدتم لوهلة مع كل انشغالي أنني نسيت مريم، إنني أحبها كل يوم أكثر كما يحبها والدها تماماً .

لكن ماذا عني ؟

هل أحبني أنا يوماً ؟

ربما . . . لكن هل أحبيته أنا حقاً ؟

كيف يمكن للإنسان أن يحب شخصاً لا يهتم لأمره وحتى عندما ينظر إليه لا يراه، شخص لا يكثر لتفاصيله ولا يمتن لجهوده المبذولة في سبيل إرضائه .

إننا لا تقع في غرام الأجل أو الأفضل أو الأذكى أو الألف، إننا تقع في غرام من نكون برفقته أكثر جمالاً ورقة ونباهة . . . من نكون برفقته أفضل .

أما حيي هذا له فقد كان من النوع المدمر الذي يُغرق الإنسان في وهم أنه أوشك على الاقتراب، وأن بذله القليل بعد سيكون كفيلاً براحة أبدية في النهاية، لكن ذلك الجهد الإضافي لا ينتهي أبداً بل يبقى مستمراً حتى تتراخى قوى الإنسان فيختر أرضاً مستلماً كما لم يفعل من قبل.

مدرّكاً في لحظة قد تكون متأخرة جداً أن من يبتزّه بكل ما يحب شخص لا يحبه حقاً، ومن يجعله يكره نفسه شخص لا يحبه أبداً، وأن من لا يحبه لا يستحق المزيد من المحاولات.

إنني لست بامرأة ساذجة تكيل الاتهامات لجنس كامل بسبب رجل واحد، لكن ما يملكني هو شعور عميق بالخيبة مكلل بضعف الثقة بالنفس.

مهما تبجح الإنسان بأنه واثق بنفسه بمعزل عن آراء من حوله فهو كاذب، إن الإنسان بحاجة لشخص واحد معجب به ليعجب هو بنفسه.

مشكلتي أنني قمت بتجاوز نقطة مهمة في انفصالي الأول وهو محاولة علاج نفسي دون الاعتماد في ذلك على شخص آخر لأن في حال لم تنجح العلاقة الثانية سيعود المرء للانعكاس من جديد وبصورة أسوأ.

حتى عندما قررت أن أتابع حياتي بعد انفصالي وقعتُ في شرك إلكتروني محكم لم أتوقع لوهلة أن أفعل به.

لقد كنت أسمىه الرجل صاحب الخصلة البيضاء، كنت أظنه الملاك الحارس الذي قدر لي أن ينقذني من شكوكي بنصبي في هذه الحياة، الرجل الذي يمكن بسببه أن أعفر لكل الرجال في هذا العالم عن أي بؤس ألحقه بأي امرأة.

في اليوم الذي كان من المفترض أن ألتقي به، ارتديت ثوباً ابتعته بمال كنت قد ادخرته على مدى أشهر طويلة، والذي آلمني أنه كان بإمكانني أن أبتاع بثمنه شيئاً لمریم، وعلى الرغم من ذلك جازفت بالأمر طمعاً بسعادتي.

كنت أحلم باللحظة التي أتأمل فيها عينيه عن قرب وأن أرى بريقهما عندما أحدثه عن جرح ألم قلبي، وعن تلك الندبة التي حفرت في جبهته عندما كان طفلاً بينما تلفح أنفاسه وجنتي.

كنت متشوقة ليحدثني عن المزيد من التفاصيل المتعلقة بحبيبته السابقة فقط لأشعر بلذة تفوقي عليها، أتصدقون ذلك!

أكثر ما كان يقلقني هو إمكانية توترتي إن لامست أصابعي أصابعه، فهل ينبغي أن أترك يدي مستسلمة بين يديه أم أن أقوم بسحبها!

قد يخاطر ببالكم بعد كل ما قد قلته أن ذلك الرجل ذو الخصلة البيضاء هو شخص وهمي.

لا أتم على خطأ إنه حقيقي كصورته تمامًا.

وصلت ذلك اليوم في الموعد المحدد وقد كان جالسًا في انتظاري، عرفته منذ اللحظة التي رفع بها عينيه عن هاتفه المحمول وتأملني تحت أضواء المطعم الخافتة وقد كانت ضربات قلبي تعلو صوت قرع كعبي العالي على الأرض، فشعرت لوهلة أنني أرغب في أن أعود أدراجي فقط لأنني أيقنت في تلك اللحظة من أن حبه قد تمكن مني، فقد يكون الحب قويًا بشكل مخيف بحيث لم نستعد جيدًا لمواجهته.

لكن لم يخاطر ببالي للحظة واحدة أن يكون الرجل ذو الخصلة البيضاء مصيدة حبكها زوجي السابق بمساعدة زوجته فقط كي يقوموا بسحب حضانة مريم مني، وأن صديقًا له أخذ دور العاشق الوهّان عدة أشهر للإيقاع بي.

التقطوا لنا عشرات الصور ذلك اليوم وقدموها للمحكمة مرفقين إياها بنسخة عن المحادثات الإلكترونية وبذلك حولوني من امرأة عاشقة تحاول متابعة حياتها باحثة عن السعادة، إلى امرأة ساذجة وغير مؤهلة لتربية طفلة صغيرة.

أتذكرون ذلك المثل الذي يقول أن القانون لا يحمي المغفلين؟ . . . قد يمنهم من ممارسة حياتهم أيضًا حتى لو كانوا مجرد عاشقين.

لله اللحن الخامس عشر لله

لتفهم الإنسان أعدده إلى غابات السافانا

حليم

من منا لم يعيش جزءًا من طفولته داخل التلفاز؟

من منا لم يمتلك أجنحة سرية مكنته من اقتحام الشاشة وسمحت له بقسطٍ من المغامرة أو الاطمئنان أو الدفء، وما بين اليقظة والمنام كان يشعر أن قاطني هذه الشاشة الصغيرة يرونه ويحدثونه وأن المذبة لا تقتصر وظيفتها على إلقاء النشرة الإخبارية فحسب بل على الاستماع لأخباره اليومية أيضًا .

لقد كان بانتظارك عالم كامل بين قناتين عندما تدير بأصابعك الصغيرة المفتاح الذي يصدر صوت طقتين متاليتين وصولاً إلى القناة الثانية والتي كنت تشعر بحسك الطفولي أنها مُعدة لأولئك الذين يفوقونك عمراً وأن البرامج التي تليق بسنواتك القليلة متكدسة في القناة الأولى ما بين الساعة الثانية عشرة حتى الخامسة عصرًا على أبعد تقدير ولذلك كان عليك أن تخطو بسرعة عائداً من المدرسة كي تستغل ساعاتك المباحة، حتى لو اقتضى الأمر أن تغير ثيابك وتلتهم وجبتك وتفرغ حقيبتك المدرسية أمام التلفاز .

ستذكر دومًا نفسك وأنت تقضم حبات الفاصولياء التي لم تستسغها في صغرك عندما تشاهد قطع الدجاج المشوي التي سرقها جيري من نوم، ومع تقدمك بالعمر ستأكد أنه ما من شيء في هذا العالم أشهى من تلك الأفخاذ البنية المحمرة الشهية على الرغم من أنك لم ولن تتذوقها أبدًا، لكنك وفي وقت لاحق ستحب الفاصولياء بشكل مفاجئ كما لم يحصل معك من قبل .

هنالك أشياء أصبت بعدواها من التلفاز بطريقة لا يمكن تفسيرها، كالقوة السحرية التي كانت تلبسك فجأة فتجعل عضلاتك أقوى وجسدك أكثر ليونة.

ربما إيمانك وحده كان كفيلاً بذلك عند رؤيتك الخير يتغلب دوماً على الشر مهما كان هذا الشر مستعراً، لكن الأمر لا يتوقف على هذا الإيمان الأول فحسب بل يحتاج إلى إيمان أكبر وأكثر صعوبة، أن تؤمن بأنك الجانب الخير في كل معادلة.

إنك ضئيل جداً، ضعيف جداً، قصير القامة ولا تمتلك بزة مدرسية لاثقة تجعل الآخرين يحترمونك، لكن إغماض عينيك للحظات كما يفعل بطلك الكرتوني المفضل وهو يتعرض للأذى يجعلك تشعر بشعور أفضل وأنه لا بد أن يكون لك مصيراً مشابهاً لمصيره في النهاية، وقد ساعدتك في ذلك التتمات الغربية والقلائد الصدئة والأحجار الملونة التي منحتك شعوراً بالأمان أيضاً عند إمساكك إياها في لحظة ضعف . . . أنت الذي لم تمتلك أحداً يشد على يدك.

كل أبطالنا كانوا أيتاماً أو فقراء أو تائهين مثلي تماماً، لكنهم وبطريقة ما كانوا مقاومين سعداء يجدون من يمد لهم يد العون قبل غرقهم بقليل، ومن يحبهم قبل اختناقهم بلحظات.

لقد اكتشفت مع الوقت أن القرب المبالغ به من الشاشة وعلى الرغم من أنه كان مؤدياً للعينين إلا أنه كان مفيد للقلب وللخيال.

ولأنني كنت بشرياً بسيطاً فقد كنت أتمرّن في لحظات فراغي على ما يقوم به أقراني وهو فقدان الأشياء، ولو أقسمت لي بأغلظ الإيمان ما كنت لأصدقك أنك لم تقم بذلك في حياتك.

إنها موهبة بشرية أصيلة . . . أن تتخيل فقدانك لشخص تحبه أو لمالك أو لعملك أو لبيتك، وأيا ما كان يعزّ على قلبك لا بدّ وأنت قد خسرت مرة على الأقل في خيالك وإنني أقول -مرة- من باب عدم التهويل لكك حتماً فكرت بذلك عشرات المرات ، فإن خوض التجربة ذهنياً يخفف من وطأة وقوعها في الحقيقة ، على الرغم من أنك قد

لا تفقد ما يشغل قلبك وذهنك البتة لكنك ستخيل ذلك كإجراء احترازي، أو ربما لأن هنالك إغواء حقيقي عبر تلذذك بالألم، بانتقالك من غواية اللذة ونشوة السعادة إلى غياهب الوجد والفقدان والحرمان، إن دائرة اللذة والألم هي التي تجعلك تشعر أنك ما زلت على قيد الحياة على الرغم أن وجودك مهددٌ بطريقة ما، وربما هذا الذي يجعلك تقاوم . . . ولا بد لكل مقاومة أن تتذيل بالألم.

وإن لم تكن مقتنعًا سأشرح لك أكثر . . .

لا بد أن كل فتاة تذكر ذلك الطفل الذي فقدته في عقلها واتحائها لعدم قدرتها على الإنجاب مرة أخرى على الرغم من أن هذا الخيال قد طرق بالها في سن السادسة عشرة دون أن يمسه رجل حتى، لكن هنالك لذة في عيش أشد الخيالات مأساوية.

إن تلك الفتاة منحت بطريقة ما لمستقبلها لذة أشهى لحظة احتضانها طفلها المولود حديثاً بعد عدة سنوات من ذلك الخيال الأليم، أو بأسوأ الحالات ستكون قد تنبأت بعدم قدومه ليصبح الواقع أخف وطأة، ذلك لأن لذة النبوءة ستزيد من صبرها .

إن هنالك الكثير من السلوان في عبارة (لقد عرفت ذلك!)، تلك العبارة أو عبارات أخرى مشابهة يقولها الناس دوماً عند موت شخص ما (لقد حلمت أنه مات، لقد شعرت باقتراب أجله) .

نعم، إننا نمارس ذلك بصورة جماعية مهولة.

إنها لعمرى مشاعر حقيقية ودموع ساخنة تلك التي ذرفت على فقدان أخيك ذلك الذي يجلس جانبك ليشاركك وجبتك والذي ربما لن تفقده في حياتك بل ستكون أنت المفقود بالنسبة إليه.

إنك تتخيل ذلك رغبة منك بالبكاء، إن أوجاعك التافهة تتطلب ما يدعمها لتكون لائقة.

لم يعد الأمر بسيطاً كما كان يبدو أليس كذلك!، لكنه ليس معقد جداً أيضاً فبإمكانك تتبع ذلك الصوت الذي يسري داخلك عندما لا تمتلك القوة لتوجيهه.

ذلك الصوت الذي يهمس داخلك ربما بأشياء لا تود سماعها أحياناً، هذه الأمور تحديداً قد تجعلك تفهم كل شيء لكنك غالباً تختار أن تقمعها وأن توجه الصوت ليقول شيئاً آخر ترغب أنت بسماعه.

إنني أصغي لذلك الصوت جيداً، وذلك لا يجعلني فريداً من نوعي فكثيرون يفعلون ذلك وهذا السبب خلف حب الإنسان وكرهه العميق لنفسه بذات الوقت.

إن جهزت نفسك الآن وقمت باستفتاءٍ عالمي بدءاً من أكثر الأشخاص ضعفاً وهشاشة، وانتهاءً بأكثرهم غطرسة ولؤماً ستصل للنتيجة نفسها.

كلهم مستأوون لأنهم لم يجدوا الحب والاحترام الذي يستحقونه دون أدنى شك، بالرغم من اقتناعهم أنهم لا يستحقون ذرة تقدير واحدة في الوقت ذاته، وإن سبب هذا الشعور المتناقض والصادق على كلا الجانبين هو ذلك الصوت حتماً.

إن هذا الاستفتاء مفترض بالطبع فلا تحاول أن تقوم به، سيظنونك معتوهاً وسيضبطون ربطة أعناقهم ويرفون بأهدابهم مرتين ويرتبون خصل شعرهم ليقولوا لك أنهم رائعون أو طيبون، وقليل منهم سيمسك ذراعه بيده ليخبرك أنه ليس جيداً بما فيه الكفاية، وهذا ليس باعتراف حقيقي بل انعكاس لرغبة دفينه بتقديره إن اعترف هو طواعيةً بذلك.

لا أحد على أغلب الظن سيخبرك بما أقوله لك الآن، أنا الذي لا معرفة لي بك ولحسن الحظ لا معرفة لك بي، وعلى ما يبدو أن هنالك الكثير من الصدق الذي قد ينمو بين الغرباء لمجرد أنهم غرباء.

ولذلك سأسر لك أنه من بين كل الأمور التي قد أفقدها لن أحتمل فقدان شيء واحد فحسب... هو الخيال
مجد ذاته، ففقدان أي شيء من الممكن أن يعوضه الخيال باستمرارية وجوده وإنني لأظن أن جنون الأشخاص ما
هو إلا سطوة خيالاتهم عليهم بحيث يصبحون مجرد جزء منه عوضاً على أن يكون الخيال جزءاً منهم.
لن أحتمل فقدان خيالي... لأنه كان سيمنحني كل الأشياء عند خسارتي إياها.

فالماء الفاتر في كوب بلاستيكي قد يصبح شيئاً فاخراً بفناجين إنكليزية مذهبة بالخيال وحده، حتى الثياب الرقيقة
تصبح أكثر دفئاً بقليل إن تخيلتها من الجوخ أو الصوف السميك، وإن وجهك عادي الملامح سيصبح جميلاً أشد
الجمال عندما تتخيل ذلك ولا بد أنك قد شعرت في كثير من الأحيان أنك وسيم بشكل غير اعتيادي في عيون
الآخرين لأنك أشبعت عقلك بذلك الخيال.

إنني لا أقول أنك ستكسب أنفاً آخر أصغر، أو قواماً أكثر رشاقة، أو وجهاً أكثر تناسقاً.

لكن الخيال سيغطي ما تملكه بلمسة سحرية ليجعل ما لديك - هو ذاته - إنما بصورة أجمل.

إن عقلك أيضاً سيزيد لك من حدة كل ما تكرهه إن تخيلت أنك تمقته بشكل مبالغ به وسيزيد من رفته لمجرد
خيالاتك الحبة نحوه.

وهنا قد أسألك سؤالاً كم من مرة أحببت شخصاً دون أن تعلم عنه شيئاً واحداً. ربما تكون قد قابلته مرة
واحدة وأخيرة أو كان لقاءك به الكروياً ومستحيلاً لكن خيالك جعله ذلك المشتى المثالي النبيل الذي لا يتكرر،
وأن كل حنانه ومواقفه الشهمة وإصغائه لأحاديثك الطويلة ما هي إلا صنعة عقلك، وقد ينقلب مراوغاً أنانياً
مخادعاً فيما لو قابلته في الحقيقة وسمحت للتجارب أن تعريه لك موقفاً تلو الموقف.

ماذا؟ أتقول أنه على الخيال أن يجعله أكثر رقة ودماثة لأنك تخيلت ذلك فحسب.

كنت أعلم أنك ستحاول محاصرتي بذلك، إن الخيال لا يعمل بهذه الطريقة، فهو غير مسؤول عن سلوك الآخرين تجاهك ولا عن رافة عناصر الطبيعة بك، بل بشعورك الخاص تجاه سلوكهم ومدى استسلامك لعناصر الطبيعة حتى تمر عليك العاصفة بسلام.

إنه يمنحك الرضا والخنوع تجاه أشد التجارب جمالاً أو قسوة... إنه يشبعك بهدف الترويض.

إن الأمر الذي أخبرك به ينطبق أيضاً على من تكرهه ولا تطبق رؤيته ربما لأنك تخيلته متكبراً عنيداً قاسياً متعطرساً يكيل إليك اللكمات ويثير حنقك، وهذا الذي لا تطبق رؤيته لدقائق معدودات قد يصبح صديقك الحميم لو سمحت له بالاقتراب والتعبير عن نفسه وصبعته بقليل من خيالك الساحر ليصبح أكثر جمالاً.

هل الخيال الذي أوصلك إلى هنا أم أن الواقع قد أجبرك على الخيال؟

إنها من الأمور التي قد تحتاط عليك فلا تستطيع التمييز بدقة ما بين النتيجة والسبب، ولذلك لا يمكننا الجزم بها... إنها من التساؤلات التي تشبه (الدجاجة أولاً أم البيضة؟)

حسناً إن شئت أن تخطئ كل أقوالى فلا مانع لدي أيضاً، سأمنحك عن طيب خاطر تلك اللذة الخبيثة الجميلة المختبئة داخل كل شخص منا والتي تتجلى بأن إثبات خطأ الآخرين سيجعلنا على صواب حتماً.

إنني أفهم أن كل تلك الطاقات المهدورة في إثبات أن الآخر أفيح وأكثر شراً وخطيئة وغباء، ما هي إلا رغبة بدائية للشعور بأنك أجمل وأكثر فضيلة وذكاء، كما أدري أن كل تلك الطاقات لا توجه إلا بسبب نزعة عميقة في البقاء.

وإننا بدائيون حتى الصميم مهما بلغنا من تقدم وحضارة، إن البدائية تغمرنا من رأسنا حتى أخمص أقدامنا، إنها كجلدنا وعظمتنا لا يمكننا التخلص منها، وغالباً لا نفكر بوجودها لأنها تهين صورتنا المتخيلة عن أنفسنا.

إنني أشعر أنك لا تصدقني من جديد، وأفضل طريقة لأشرح لك فكري هو أن أطرح عليك أحجية.

ما هو وجه الشبه بين مديرك الشرير في العمل وبين إنسان غاب قديم يتربص بأرنب أبيض؟

فكر قليلاً؟ من أجل تلك الكلمات التي بحت لك بها كرامة لها ولغربتنا عن بعضنا البعض .

لماذا يتربص مديرك بأخطائك بل ويبتدعها؟ لماذا يحاول إظهارك بأنك متقاعس ولا تستحق ربح مرتبك الذي لا يكاد يكفيك خلال الأسبوع الأول من كل شهر، ومع ذلك يتلذذ بتكليفك بمهام إضافية تحتاج موظفين أو ثلاثة للقيام بها؟

أنت الذي تقف مبتسماً باحترام لتلقي التحية عليه كل صباح، وتطرق بابه بأدب جم وتتجز ما يطلبه منك قبل انتهاء المهلة المحددة، وتحاول التقرب منه رغم أنك تشمم رائحة مكيدة جديدة ينصبها لك، لكنك تشمها بأدب ولطف كأرنب أصيل .

فلنتخيل معاً إنساناً بدائياً متوحشاً قديماً، فعندما أرغب في فهم سلوك الإنسان أردته دوماً إلى صورته الأولى وهو يحمل حراجه متجولاً بالقرب من كهفه معلقاً في رقبة بعض انتصاراته .

إن كهفه ممتلئ بالأطايب من رحلات صيده الأخيرة وحببات التوت البري التي جمعتها زوجته منذ وقت قريب، وعلى الرغم من ذلك كله إلا أنه يحرق بهدوء في ذلك الأرنب الذي يتناول أعشابه النضرة بسلام تام .

صديقنا البدائي ليس جائعاً، لكنه سيصطاد الأرنب .

لم يا ترى؟

على الأرجح إنه يفكر بتقديم الأرنب السمين كقربان ما، مع الاحتفاظ بفروه الأبيض ليصنع منه قبعة لزوجته امتناناً لها على التوت وأشياء أخرى، وسيتيح ذلك له تجربة حدة نضله الجديد، فليس من المعقول أن يجربه للمرة الأولى على حيوان مفترس فذلك قد يؤدي بحياته .

إن الأرنب موجود فلماذا لا يصطاده . . . أفهمتي الآن يا أرنبي الجميل !

إن البشر اعتادوا على أن يفسحوا الطريق للأقوى وأن يقطعوا الطريق على الأضعف لا شيء إلا لاستعراض غريزة حيوانية أصيلة.

مديرك هذا يخشى أن يجوع . . . هو يجهزك في حال تضور جوعاً يوماً أو يعذك كقربان ثمين أو ليتسلى بدموعك والآمك ككيس مكسرات مملح.

إنني لا أهيئك فجميعنا أرانب هنا إنما ليس على مدار الساعة.

ولكنني أوكد لك أننا لم نخرج من مرحلة السافانا بعد، نحن فقط تبادل الأدوار، فمع الوقت قد تصبح أنت مديراً وتسلمى بأرانبك . . . أقصد بموظفيك لتجرب فقط مدى قدرتك على إلحاق الأذى بهم، لتحسس مدى قوتك مكتشفاً أن هنالك متعة إضافية يقدمها التبرص بالبشر دون الأرانب، فبإمكانك الاستمتاع بإذلالهم وإهانتهم وهدر كرامتهم!

إنني أفهم سخريتك مني لأنك تتساءل كيف عرفت ذلك كله لو لم أكن صياداً.

لا داعي للسخرية فجميعنا هنا متوحشون، الأليفون انقرضوا هشاشتهم سمحت لهم بالانقراض بسلام وإنني أكذب إن قلت أنهم انقرضوا تماماً، فما زال هنالك القليل منهم لكن لا أحد يقدرهم ويحفظ بهم كدبة الباندا المدللة أبداً.

إنهم يحتفون مع الوقت لكنهم يحتفون بصورة غريبة تبقى أجسادهم ويموتون من الداخل أو يتحولون إلى ققط متوحشة وأنا وأنت نعلم أن الققط غير مهددة بالانقراض ولا تقترب منه حتى، إنها موجودة بكثرة فحسب، هذه هي طريقتهم الوحيدة للبقاء.

أرايتم إلى أين أخذتنا خيالاتي إلى السافانا

أحياناً أفكر إنه لمخيف أننا نعيش داخل عقولنا، فأنا وأنت نعلم كم من السهل خداع العقل، فقد تكون الحقيقة لا شيء مما نسلّم به حقاً .

أكرر أنني قد أكون مخطئاً في كل ما قد قلته، لكنني لن أراجع أبداً وحتى لو كان خيالي الساحر يسخر مني ومن إنسانيتي ومن عقلي ومن واقعي لما رسته مرة بعد مرة، إنه كالمخدر الشهوي الذي يمكنك زراعة ما شئت منه داخلك دون أن تصادر بضائعك كتاجر مخدرات .

كان قمة العزاء بالنسبة إليّ وأنا أجلس على الرصيف في ظهيرة يوم حار بينما أهدق في قدمي الصغيرتين المغربيتين العاريتين . . . أن أتخيل نفسي جالساً في مكان آخر أقل قذارة، وعلى الرغم من أنه كان بإمكانني أن أزيد درجة البذخ قليلاً إلا أنني كنت حذراً في صنع خيالاتي، فالخيالات المبالغ بها قد تدمرك مهما كانت جميلة، بل ستدمرك حتماً لأنها فائقة الجمال، وذلك لن تشعر به إلا في لحظة غير متوقعة تصبح فيها غير حصين بواقعك الأليم تجاه أي حلم يقظة عابر .

لأصدقك القول إن كل ما كنت أحلم به وأنا أضع كفيّ على بلور السيارات العابرة كي أبيع السجائر أو اللبان أو الورود هو أن أحظى بتلفاز كي أتابع (مسلسل الفصول الأربعة) .

وهو شيء لم أخطر به لأنه لم يكن لدي منزل حقاً، فأنا لست محظوظاً مثلك لتناول حبات الفاصولياء الغارقة في دبس البندورة الشهوي بجانب الأرز الساخن وقطع اللحم الطري الذي تمتعه أنت، والذي بإمكانك التذمر من نكهته بعد أن تتابع ساعة الرسوم المتحركة على تلفاز صالون منزلك .

لكن ولكي تفهمني جيداً أنا لا أقول ذلك كي تشفق عليّ فقد حظيتُ في خيالي بما هو ألد مما قد حظيت أنت به . . . لكن الفرق بيني وبينك أنه لم يكن حقيقياً فحسب وعلى الرغم من ذلك فقد منحني شعوراً بالرضا لم تملكه أنت، على الأقل في ذلك الوقت التي كنت أبيع فيه كل ما أستطيع بيعه على الطريق العام .

على الرغم من أن ربح الورود لم يكن جيداً كالسجائر التي لا موسم لها والتي تتوافر على مدار السنة إلا أنني كنت أحب بيع الورد لأن من يشترونه يكونون أكثر ليئاً، ولم أظن لوهلة أنهم أرق سريرة من أولئك الذين يشترون مني أشياء أخرى لكنهم يصبحون أكثر رقة ربما بسبب خيالاتهم السعيدة حول ما ستحدثه مفاجأتهم لمن يحبون، في حين أن شراؤهم السجائر سيجعلهم يتخيلون نوبة غضب أو حزن تجبرهم على حاجة وهمية لنفث الدخان. أرايتهم عدنا للخيال مرة أخرى وسنعود له في كل مرة.

رباه ما أعظم الخيال كنت أفكر في عظمتة أثناء الفاصل الإعلاني الذي يظهر في منتصف المسلسل وأنا أجلس في الزقاق خلف جدران أحد دكاكين الحلي البسيطة بحضور صاحب الدكان الذي يعطيني ظهره وهو متكئ على أحد كراسي القش القصيرة التي لا مسند لها ليتابع المسلسل أيضاً .

لم يكن من السهل أن أجد صاحب دكان يصادف أن يتوافق ذوقه مع ذوقي في المسلسلات والبرامج التلفزيونية، لكن الأمر لم يكن مستحيلاً أيضاً فهما قناتين تلفزيونيتين فحسب، لكن الأهم من ذلك أن يكون صاحب الدكان شغوفاً بما يشاهد ليحزم أغراض زبائنه بسرعة كي يتخلص منهم ويعود إلى المتابعة، وألا يكون حاد السمع كي يرفع صوت التلفاز ليصل إليّ أنا البعيد مالا يقل ثلاثة أمتار عنه . لم يكن لدي أيضاً ترف تلك المسافة القريبة التي تمتعت بها أنت في طفولتك رغم أنها قد آذت عينيك، إلا أنه في الدقائق التي قد يضطر فيها صاحب الدكان للخروج سائداً باب دكانه بكرسي مقلوب فقد كنت أجازف وأقترب من التلفاز كثيراً بحيث لا أغوص في التفاصيل فحسب بل أتمكن من عيشها، لمسها وتحسسها .

كنت أخترق زجاج التلفاز دون أن أُخدش وأجلس على الأريكة الكحلية، تلك الأريكة التي طالما رأيتها جميعكم مراراً وتكراراً في مسلسل (الفصول الأربعة) لكن ربما لم تفكروا أن تجلسوا عليها حسناً أنا فعلت . لست هنا لمباهاتي بالوصول، وإن كان هذا بمثابة عزاء لكم إن هذه الأريكة ليست فاخرة لكنها مريحة على الرغم من أنك قد تشعر بتواءاتها التي لم تعد ناعمة على جلدك .

وخلال لحظات كنت أخلع حذائي المهترئ وأمشي حافيًا ملسوعًا ببرودة ذلك البلاط الناعم البارد والمبرقش متجهًا إلى غرفة الكراكيب حيث أقرع الباب على بابا (كريم) لأسأله إن كان يحتاج مفكًا أو كأس ماء بارد أو حتى قبلة أطبعها على خده المجعد، فتدلف ماما (نبيلة) خلفي وأنا أعانق بابا وتقول (لكن العز للرز)، فيقهقه بابا (كريم) بحيث تقع قبعته الكلاسيكية أرضًا.

إنه لأمر ممتع أن تكون ابنًا لأحدهم، أن تكون فردًا في عائلة الفصول الأربعة.

أن تقضي طفولتك خلف الستائر الخمرية محتبًا من عمك (جميلة) لأنك سرقت منها قرط اللؤلؤ الذي سترتيه في إحدى الحفلات، أو باحثًا وأنت مغمض العينين بإحدى فولارات (شاديا) عن أختك (ناديا) التي تحتبى خلف أصيص النباتات بالقرب من الباب الخشبي الكبير، حيث تكشف لك (مكددة) عن مكانها عندما تصرخ بها كي لا تكسر ساق نبتة (كف الدب) لأنه حينها ستكسر ساقك وساقها معًا.

ومع تقدم سنواتك قليلًا ستكتشف أن ذلك الصالون وعلى رحابته من غير الممكن أن يتسع لشقاوتك وهذا ما شهدت به إحدى الفازات الزرقاء الكبيرة التي حطمتها وتم تأنيبك بشدة لأنها إحدى هدايا صهرك (مالك) الفاخرة والتي فهمت أنه قد أتى بها من مكان بعيد جدًا يقال له التشيك.

أنت تحاول الاعتیاد على فرد جديد يقتحم عائلتك وهذا الموقف لم يكن في صفه، ف (مالك) هذا لم يكن في شأنه قد أخذ (فاتن) من عائلتك بل حجز أيضًا حيزًا كبيرًا من المنزل حيث ملأه بهدايا ضخمة لا حاجة لك بها وعلاوة على ذلك فهي تسرق منك أركانًا كان من الممكن أن ترمي فيها كرتك دون أن تتناثر من حولك الشظايا على الأرض، لكن مع الوقت ستغفر له عندما تستطيع اللعب في مزرعته الكبيرة وتعود في مسبحها المنعش.

على الرغم من أن هذا المسيح لم تكن كل ذكرياته سعيدة لأنه وفي إحدى المرات كنت ستغرق فيه ابن أختك (رامي) وأنت تحاول تعليمه السباحة، يومها ارتدى زوج أختك (عادل) في الماء لينقذه، ومع الوقت ستكتشف أن (عادل) سينقذك من الكثير من المواقف في حياتك وسيعلمك أن قلبك حتى وإن كُسر سيلتئم بجرعة من الحبة

العائلية والتآزر، وسيعود قلبك المكسور مكتملاً ضاحكاً في السهرات حتى عندما يحاول ابن أختك (مازن) بتذكيرك باكتشافه مكان رسائل الغرامية متباهياً بأنه ومنذ الصغر كان قادراً على شم رائحة وجود أثر للفتيات حتى لو بين سطور رسائل محبأة تحت السرير، فيضحك الجميع.

لكن (نجيب) يتدخل بالسرعة القصوى لينقل الضوء في كل مرة إلى القضايا الكبرى كالجوع والفقر والاحتلال والرأسمالية والإنسانية، فتتنوع التعبيرات المرسومة على وجوه من هم حوله ما بين الاهتمام وعدم الاكتراث والتجاهل.

آه من التجاهل...

إنني لا أجد طريقة أسرع ولا أسهل من تدمير إنسان آخر أكثر من تجاهله، وأنا لا أقصد بذلك إغراقه في دوامة من الاكتئاب أو العزلة أو حتى التحجر بقدر ما أقصد تحويله إلى شخص ينجل من أن يكون نفسه.

هل بإمكانك أن تتخيل مدى اطمئنان شخص وهو يروي لك قصة حبه الأول، وكأن لسان حاله يقول ببراءة (لن تكون مثله أليس كذلك)!

هل بإمكانك تصور مدى ارتباكك وهو يحدثك عن تعرضه لتفكك أسري كي تحضنه، أو لتحرش جسدي كي تغطيه بروحك.... أو لأي سر عتيق يبلغ من العمق أنه مازال يختنق به وسيختنق به حتى بعد عدة عقود من الآن، ومع ذلك يرويهِ لك.

إن الأمر يشبه استحمامه في نهر بارد تاركاً ثيابه على الضفة، إنه يخاطر بأن يبقى عارياً طيلة رحلته مقابل أن يستحم لعشر دقائق كي يغسل آثامه.

لا يمكن لشيء أن يشبه السر أكثر من ذلك...

وأنت ما الذي تفعله عندما تتجاهل آلامه؟

لقد جازفت بسرقة ملابسه وتركه يُكمل رحلته عارياً، وبقدر ما قد يكون الأمر بالنسبة إليك عادياً لأنك لم تدرك حتى أنك سرقت منه ملابسه، إلا أنه قد كان عارياً أمامك والأسوأ من ذلك أنك لم تره، لم تر شفافيته ورقته وأنه استجمع كل ما قد تبقى لديه من طاقة على أمل أن يتحول خوفه بين يديك إلى شجاعة، وتشوّهه إلى جمال، وهشاشته إلى قوة.

إنه إثم لا يُغتفر، فإن لم تكن قادراً على الإنصات توقف عن الاستماع وإن لم تكن قادراً على التمعّن توقف عن الرؤية فلا شيء يؤلم الإنسان أكثر من كونه لا يُرى.

والأكثر إذلالاً ومهانةً من وضع ذلك المسكين هو أنت _الشخص المتجاهل_، ومهما وصفت وشرحت لن أتمكن من تشبيه الأمر إلا بحالة من الضمور.

وكما يصيب وضع الجيرة لفترة طويلة عضلات ذراعك بالضمور بحيث لا تعود قوية مرنة كالذراع الأخرى كذلك يحصل للقلب والبصيرة...

إنك أعمى وعلى الرغم من غرقك بين آلاف الألوان والصور إلا أنك عاجز عن رؤية المشهد كما ينبغي لك أن تراه، عاجز عن إبصار ذلك القلب البضّ، إنك معاق بطريقة ما لأنك تملك الأدوات والحواس ولكنك عاجز عن استخدامها.

إنني أعلم ذلك جيداً فلا أحد كان غير مرئي مثلي...

وإن الإنسان يستغرق فترة من الزمن كي يتقبل فكرة أنه غير مرئي، وأثناء ذلك قد يجرب عدة حالات عله يصبح مرئياً، فيتذبذب ما بين السعادة والتعاسة، مستعرضاً كل التعبيرات المتاحة من ضحكات ودموع وتأوهات.

وقد اكتشفت مع الوقت أنه بقدر ما كان يبعد تدمري الأشخاص الذين كنت ألتقيهم إلا أن العيون الضاحكة كانت تنفرهم مني أكثر، وكأنه على بائع جوال مثلي ألا يبدي تمتعه بترف ولو ضئيل من السعادة ولذلك كانت مبيعاتي تقل مع كل ابتسامة إضافية...

ربما كانوا يصابون بالتوجس من ترف يشعرون أنني أملكه، فيعتريهم اعتقاد راسخ أنني لست بحاجة ماسة لليرات التي يضعونها بين يدي.

وإنني حتى اليوم ومع كل تبدلات حياتي لم أفهم لم تعتبر السعادة شعورًا قابلاً للنفاذ، فيذهل الإنسان ويشعر بقليل من الحسد عندما يرى شخصًا آخر مستمتعًا بها...

لا تكذب علي... إياك

إنني واثق مما أقوله بدليل ذلك السؤال الذي تسأله لنفسك بعد كل تنهيدة حسرة: (متى سيأتي دوري بالسعادة أنا أيضًا!).

وفي الوقت الذي كانت به السعادة شعورًا على قيد الانتهاء، فقد كان الحزن شعورًا مُعِدِّ.

وعلى الرغم من أن ارتدائي لوجه الحزن كان يزيد مبيعاتي دومًا إلا أنني تخليت عنه مع مرور الوقت بصعوبة، فقد كان الحزن يلتصق بي لفترة لا بأس بها حتى عند رغبتني في تجاوزه، فالشفقة التي كان يبديها الآخرون نحوي حولت الآلمي لآلام حقيقية.

تذكر دومًا أنه عندما ترغب في انتشار أحد من أحزانه إياك أن تشفق عليه، فالشفقة ستجعله ينغرس أكثر في أوجاعه، بل ستجعله ينغرس بتراخٍ وراحة أكبر بحيث يصبح من الصعب إنقاذه.

اكتشفت عشرات آلاف من البشر في الشوارع الواسعة...

منهم من كان يعدني بشدة من ذراعي كي لا ألوث ثيابه، ولأنهم كانوا يذكرونني بالميتم والروائح التي كنت عاجزاً عن شمها، وكرامة من أجل دبي (باربي) كنت ألتذذ في إزعاجهم بأن ألصق فمي وأنفي بهم وأمسح يدي بشبابهم لأتقنهم درساً كي يتعدوا هم عن طريقي ولأرغمهم على أن يعيدوا ملابسهم النظيفة المكوية لحبال الغسيل مرة أخرى، وكنت أتسلى بمظهر أنوفهم المنكمشة والتي لم يكن يظهر منها سوى فوهتين متسعيتين تحبسان نفساً طويلاً بعيداً عني.

لقد كان يكفي أن يخبروني بأنهم ليسوا مهتمين بما أبيع، فأنا لست متسولاً ويمكنني الابتعاد من أمامهم إن استخدموا ألسنتهم بشكل لائق وتوقفوا عن استخدام أنوفهم، فصمتهم كان سفي بالغرض.

أما النوع الآخر فقد كان المعطاء الذي يمنحني ما يفوق ثمن ما يتأعده مني، ذلك الشخص الذي يحشر يده في جيبه بسرعة ناظراً إلى الرصيف ليدسّ المال في يدي التي يفضل أن يتأملها عوضاً على أن يمر بنظرة عابرة على وجهي. كنت أكاد أسمع زفرة راحته لحظة تجاوزي، وكأنه كان يقوم بمهمة مستحيلة لكن من أجل نفسه لا من أجلي.

ربما ليشعر بالرضا عندما يعود إلى منزله وليستحضر قبل النوم المبلغ الذي منحني إياه كي ينجو من ضميره ويستطيع أن يغفو بهناء، وهؤلاء أفضل بقليل من أولئك الذين يرمون لي المال دون أن يتأعوا أي شيء مني البتة فأضطر أن ألاحقهم لينتقوا أياً من بضائعي الرخيصة كتعويض عن شعور التسول الذي منحوني إياه.

لم أكن أحب أن آخذ شيئاً دون مقابل، لأنني كنت أعلم أن لكل شيء في هذه الحياة ثمن وكنت أفضل أن أمنحهم وردة أو قطعة بسكويت عوضاً على أن أمنحهم كرامتي فأبدو كمتسول يتبعهم بين الحارات كي يقبض ثمن تبرئته من الشحادة.

هنالك أيضاً الذين كانوا يتجاذبون معي أطراف الحديث، فيسألونني عن اسمي وعائلي ومسكني وعمري ومدرستي ويمشون معي مسافة لا بأس بها من الطريق، وكأنهم يقومون بمقابلة صحفية معي وقد كنت أسير جانبهم مدلياً بإجاباتي التي أصبحت جاهزة مع الوقت.

اسمي (حليم) وقد كان اسمي لسبب مجهول يلقي استحساناً منهم، وعلى الرغم من أنني توقفت عن الذهاب إلى المدرسة إلا أنني كنت أخبرهم بما يودون سماعه.

أنا في الصف الرابع، أنا في الصف السابع أنا في الصف التاسع... وقد بقي الصف التاسع منفذي حتى بعد سنوات عديدة من تجاوزه واقترابي من سن العشرين وساعدني على ذلك نحولي وملاحي الطفولية.

أنا الذي لم أكن أكذب إلا من أجل غاية سامية، ذلك لأن هؤلاء كانوا يشعرونني بالاحترام لمجرد أنني أتابع الدراسة مظهرين مدى إعجابهم بكفاحي، وقد كان ذلك الشعور لذيق بشكل لا يوصف، فقد كنت في كل مرة يتم احترامي فيها من قبلهم أكاد أشعر أنني أرى، لكن ذلك كان ينتهي عندما يلقون عليّ السؤال التالي (أين عائلتك؟)، فأجيب بكل صدق أنه ليس لدي عائلة، فتبدأ تلك المعالم بالتعاطف بدءاً من الحاجبين المقطبين نحو الأسفل انتهاء بالشفة المقلوبة قليلاً ويقود ذلك لسؤال جديد (هل توفيا؟)، وكأنهم كانوا يحاولون التكهّن بأكثر السيناريوهات مأساوية من أجل مزيد من التعاطف، ولكن سرعان ما كان يتقطب الحاجبان نحو الأعلى هذه المرة ويصبح الفم مزموماً كأنه يريد أن يحميني من شتائم عديدة ويأخذ الأنف بالانكماش بذات القرف والتقرز التي ترافق الحالة الأولى.... أتذكرونها؟

ألم أخبركم! إنها ولا ريب تلك الرائحة التي تنطلق فجأة من جسدي لحظة إخباري إياهم أنني لقيط ولا أعرف والدي....

فأعود لأقع أسير التجاهل الذي يجعلني من جديد شخصاً لا مرئي مراراً وتكراراً.

إنني لا أكذب إلا عندما أكون في حاجة ملحة للاحترام، وقد كان بإمكانني أن أكسب المزيد من الاحترام والتعاطف والتبجيل إن أخبرتهم فقط أنني أعيل والدتي الأرملة أو والدي العاجز أو إخوتي الأيتام بسبب حادث سير أليم.

لكيني وبطريقة ما كنت أحب أن أعرف مدى اصطدام احترامهم مع مخزونهم الفكري، وما إذا كان احتراماً حقيقياً أم مصطنعاً.

وقد كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الذين يتقصصون دور الصحفي الشغوف يفقدون شغفهم فجأة فيسارعون الخطى مستغفرين ومتعززين، وقد كنت أستشعر خوفهم من ملامح وجوههم التي لا يسمحون لي برؤيتها مرة ثانية. لكن عددًا منهم كانوا يوجهون أسئلة أخرى قليلة . . .

بعضهم كانوا يفتحون عيونهم بدهشة ليسألوني (هل تعلم معنى لقيط يا حلیم؟)

فأهز برأسي .

كنت أعلم أن ما يشغل فكرهم هي تلك العلاقة الجنسية غير الشرعية بين رجل وامرأة مجهولين والتي نجم عنها طفل مجهول هو أنا .

إنني أفهم معنى (لقيط) . . . إنني أفهم هذه اللفظة جيدًا والتي تعني ألا أحد في هذا العالم راغب حقًا بوجودي حتى من أحمل جماهم وقبحهم وفخرهم وآثامهم، وفي حال حدث واختفيت فجأة لا شيء على سطح هذا الكوكب الرحب قد يحتل، وما من شعور سيستنزف من أجلي، فما من محب سيحزن وما من كاره سيشتت. وما من شخص قد يعلن وفاتي ربما حتى شيخ الجامع سيصاب بالحيرة إن وقف خلف المذنة ليقول انتقل إلى رحمة الله تعالى المرحوم حلیم بن . . .

ابن من؟

لا بد أنني ابن لشخص ما كان مصابًا بعلّة التفكير أو ربما شخص مهووس بكتابة قصص قصيرة

إنني أحاول ألا أفكر بهما كثيرًا لكن يحلو لي أن أتخيل أنني قد ورثت أنفي المستقيم وأصابعي الطويلة الرفيعة عن والدتي، وعلة فلسفة الأمور عن أبي .

إنكم محظوظون جدًا لأنكم تعرفتم على أنفسكم عبر أناس أحببكم بصدق، إنها ميزة لا يمكن للمرء أن يشعر بقيمتها بسهولة .

لا تقلقوا بشأنى فأنا كان لى عائلتى المتخيلة أيضاً . . .

عائلتى الوحيدة التى امتلكنها فى حياتى هى عائلة الفصول الأربعة على الرغم من أننى بذلت جهدى فى تأسيس عائلة حقيقية، إلا أنكم جميعاً تدرون أن كل جهودى باءت بالفشل .

إننى اليوم وحيد كذراعى تماماً . . .

لله اللحن السادس عشر لله

الحب هو أن تنقذ شخصاً ما من نفسه

ناي

قد يخطر ببال المرء عندما ينبج طفلاً أنه سيورثه جمال العينين، البشرة الصافية، الأسنان الناصعة وكل ما يرى أنه يتميز به لكنه في الحقيقة ينسى أمراً على درجة عالية من الأهمية . . . ينسى أنه سيورثه أيضاً هشاشته، آلامه، ضعف شخصيته، انطوائيته، مخاوفه وكل الثغرات التي لم ينجح في ردمها من خلال ارتباطه بشخص آخر.

وفي اللحظة التي قد ينصب فيها قلق الآباء حول توريث أبنائهم أمراض القلب والضغط والسكري، لن ينسوا أبداً تحصينهم ضد الأخطار الخارجية، وبذلك سيضعون أفعلاً كبيرة على الأبواب الرئيسية وأسواراً عالية حول النوافذ، سيستقشرون عن هوية أصدقائهم وسيحددون موعد عودتهم للمنزل، وسيوصونهم بالآلا يكلموا الغرباء .

لكن في الحقيقة إن أخطر ما يمكن أن يصيبنا لا يمكن أن يأتي من الخارج، إنما سيأتي من الداخل حتماً .

كما تعلمون جميعكم اسمي ناي، وأمي هي التي أطلقت عليّ هذا الاسم لأكون على يقين أنه يمكن لقطعة خشب مينة ومليئة بالثقوب أن تتحول إلى مصدر للجمال فيما لو نفخ فيها أحدهم من روحه .

ويمكنكم القول أن حياتي كلها تدور حول أُمِّي التي لم تكن تعرف الكتابة أو القراءة، لكنها الوحيدة التي آمنت بي وبأحلامي، وقد كان يؤمني أنها عاشت حياة بائسة منذ الصغر، ولا شيء أكثر قسوة من ألا يقل مستقبل المرء سوءاً عن ماضيه .

لقد نشأت في أسرة فقيرة جداً وإن حياتها لم تسمي أفضل حالاً عندما تزوجت والدي، ولا أقصد بذلك الفقر المادي أبداً بل الفقر العاطفي حيث لا يُسمح للإنسان أن يحب أو أن يعبر عن مشاعره وإن المرء في حالات كهذه

إما أن يتحول إلى حجر أو أن يصبح عاطفياً بطريقة مرضية بحيث يمكن له أن يفني نفسه ويتلاشى تماماً من أجل حبّ ما .

إن النساء عادة يكن في الحانة الثانية إنهن يخلقن حباً يذبن فيه ومن أجله .

ولأنني كنت الطفلة الوحيدة لأمي فقد كنتُ محور حياتها، وكل ما كان يهمها أن أعيش بشكل أفضل فكانت تتوسل لأبي كي يسمح لي بممارسة الحياة . . . كي أكمل دراستي، كي أذهب في رحلة مدرسية، كي يشتري لي بنطالاً جديداً .

وإن لحظات التوسل هذه خلقت داخلي كرهاً لكل ما يمكن أن أحصل عليه بعد تلك التوسلات . كانت المدرسة والرحلة والبنطال مطعنين بنكهة من الذل والدموع التي كانت تذرفها لتظفر لي بشيء ما .
ولتفهموني أكثر . . . سأحدثكم عن والدي .

لقد كان ذلك الرجل البسيط المزارع الذي لوحث الشمس بشرته، وكلما رغبت بتذكره تخيلته عائداً إلى المنزل على ذلك الطريق الترابي الذي تترامى الأشجار على طرفيه .

كان ظهره محنياً قليلاً ويديه معقودتين إلى الخلف كرجل عسكري عاد من معركة خاسراً لكن لم يرغب أن يخبر أحداً بذلك، وما أن يدخل باب المنزل حتى يشتد عوده من جديد، فيعقد حاجبيه قليلاً ويتحنح مُعلناً عن عودته من معركة إلى معركة .

لذلك كنت على عكس أولئك الذين يشعرون بالأمان عندما يسمعون صوت مفاتيح والدهم، فمن خلف الباب الخشبي كنت أشعر بشعور مختلف تماماً فيبدأ جسدي بالارتعاش من تلقاء نفسه وتصدر معدتي أصواتها المعتادة عندما ينتابني القلق، وقد كان ذلك الإحساس يرافقني حتى في تلك الأيام التي يكون مزاجه فيها رائعاً، فمعضلة القلق الأساسية أنه يستمر حتى في أوقات السلم .

لقد كنت على يقين أن والدي يحبني وهذا ما كان يجعل الأمر أكثر صعوبة، فهو لم يكن قادراً على التعبير... بل كان يعبر بطريقة مناقضة أيضاً.

أذكر اليوم الذي قتل فيه إحدى قططي عندما تلكأت في طريقه، وكنت أعلم أنه لم يدسها لأنها أثارت غضبه إنما لأن اهتمامي بها هو الذي كان يثير غضبه، لكن بدلاً من أن يحاول فتح حوار معي كي يصل لقلبي قام بدوسه كما داس رأس تلك القطّة المسكينة.

ومنذ ذلك اليوم وأنا مغرمة بالحيوانات، إنني لا أعيّلها وأطعمها وأعتني بها فحسب... إنني أرد لقلبي الحياة بعد أن تم تهشيمه مع جسد القطّة البارد والرخو في ذلك اليوم.

ولأنه كان يعلم أنني كنت قريبة من والدتي فقد كان يعاملني على أنني جزء لا يتجزأ منها، فعندما يصب غضبه عليها يتجنب الحديث معي أيضاً حتى لو لم يحتمل الموقف ذلك.

في إحدى المرات قامت المعلمة بتصميم بطاقات تحمل اسم المهنة التي يحلم كل منا أن يمتثلها عندما يكبر، وعلقتها بدبابيس على صدورنا وبذلك أصبح لدي بطاقة تحمل اسمي يسبقها لقب الحامية.

فجريت من المدرسة إلى الحقل لأريها لوالدي، كنت أركض فتهز الحقيبة الممتلئة بالكتب المدرسية على ظهري ومع ذلك لم أكن أشعر بثقلها، وعندما وصلت إليه وجدته يسند يده على المعول بحيث يغرسه في التربة، ويمسك باليد الأخرى سيجارته وينفث دخانها نحو الأعلى.

ألقيت بحقيبتي على الأرض وابتسمت ابتسامة بلهاء وأنا أمسك بطاقتي بأطراف أصابعي كي يتمكن من قراءة ما كتب عليها.

جمع يومها الكثير من الدخان في رثيه لفترة أطول من المعتاد وكان وجهه بدون أي تعبيرات، رفع معوله عالياً ثم غرسه في التربة بطعنات متتالية دون أن يجيبني بكلمة واحدة.

شعرت حينها أن الطعنات لم تكن في التراب . . . بل في قلبي .

كنت معتادة على ردود الفعل الباردة هذه وكأني غير موجودة أمامه وكنت أعلم أنني سأذهب للمنزل لأجد والدي بكدمات جديدة .

حملت حقيبتني كأني أحمل قطعة من الكون فوق كتفي، وأنا أشعر بضلوعي وكأنها ليست من جسدي بل غُرسَت غرسًا داخله .

شدت على بطاقتي الصغيرة التي تحولت لإسطوانة منغلقة على ذاتها وعدتُ إلى المنزل حيث حاولت والدي ثنيها نحو الخارج بتمسيدها لوقت طويل بأصابعها الممتلئة بالخرشات الجلدية .

في تلك الأيام كنت أعتبر نفسي شبحًا غير مرئي ألقى على والدي السلام دون أن أجد أي رد، وأعمل كمرسال تُحمّله والدي بما لذّ من الطعام وأباريق الشاي المخمرة والحلّة بلاعق إضافية من السكر كما كان يحبها وكأنها تعتذر منه لأنه قام بضربها .

كان يضربها عندما يغضب من تراكم ديونه، وعندما لا يكون الحصول مثمرًا كما يريد، وعندما تزداد أسعار الحروقات .

كان يضربها لأنه لا يستطيع أن يضرب الدائن المرابي الذي يبتزه، أو الغيوم التي لم تمطر، أو أولئك المالكين لآبار النفط في العالم .

ووالدي هي التي كانت تدفع ثمن كل ذلك . . .

إن أسوأ الآلام في العالم قد تنتج عن كونك ضحية لضحية .

ربما لهذا السبب لم أكن أكرهه، لكنني كنت أكره فكرة أنني نتاج لشخصين غير متحابين .

كانت والدتي منكسرة لوالدي دومًا وكان والدي قاسيًا على والدتي وكنت أنا نتيجة هذا التناقض بين الجبروت والإهانة.

في عمر أصغر كنت أتحيل جنية تشبه جنية الأسنان، لكن عوضاً على أن تقوم باستبدال الأسنان اللبنية بالدائمة، تقوم باستبدال القلوب المهترئة بأخرى جديدة، لأنني علمتُ منذ صغري أن الشروخ في القلوب لا يمكن معالجتها بسهولة.

كنت أحلم أن أستيقظ يوماً ولوالدي ولوالدتي قلبين جديدين يجبان بهما بعضهما بعضاً .
المشكلة الحقيقية هي أن الأبناء يدركون في أعماقهم أن آباءهم يكون لهم حباً عميقاً وإن هذا يجعل من الأمر أكثر صعوبة لأنه عندما يرتبط الحب بالأذى يصبح مشوهاً، وقد يظن الأطفال بأن هذه هي الصورة الاعتيادية للحب أو قد يظنون أنهم السبب بكل ما يحصل من حولهم، ولن يستطيعوا أن يغفروا لأنفسهم ذلك أبداً .

وعلى الرغم من محاولات والدتي لإقناذني من ذلك كله إلا أنها فشلت في إنقاذ نفسها .

ففي أحد الأيام وأثناء عودتي من المدرسة علمتُ بغريزتي الطفولية أن الأمور لا تسير على ما يرام عندما لم أرها تنتظرني كمادتها أمام باب المنزل بابتسامتها الصادقة التي تعزز التجاعيد حول عينيها .

أخرجتُ حينها الشريطة الملونة المعلقة برقبتي والتي تحمل مفتاح المنزل وقد كانت تلك المرة الأولى التي أستخدم فيها ذلك المفتاح.

أغلقتُ الباب خلفي وصرختُ مرتين (أمي)، لم يجبني أحد ولكنني سمعتُ صوت حركة في الطابق العلوي .

فكرت . . . ربما والدتي تنشر الغسيل في الأعلى .

خلعتُ الحقيبة عن كتفي ووطأتُ بقدمي الدرج، ومع كل درجة أصعدها كنتُ أنادي ولم يكن هنالك من مجيب .

وصلتُ إلى الدرجة الأخيرة وكان الباب الحديدي نصف مفتوح . . .

كانت تجلس على ركبتيها على الأرض رافعة رأسها إلى السماء وممسكة بمسبحتها البيضاء، تبسم للسماء وكأنها تشاهد فيها شريطاً لحياة أخرى.

اقتربت منها ولمست يدها، فنظرت إليّ بعينها المحاطة بهالة قرمزية، ابتسمت من جديد في وجهي، لكن ابتسامتها كانت غريبة، تلك الابتسامة التي نبتسمها في وجه شخص ما لا نعرفه.

أمي لم تعرف عليّ...

ومنذ ذلك الحين كان يتكرر السؤال على مسمعي (أمك فقدت عقلها؟)، ولا أدري ما الذي ينتظره المرء عندما يسأل سؤالاً كهذا.

كيف لي أن أخبرهم أن تلك المرأة التي تهرب من المنزل وتسرح في ساحات القرية ليست مجنونة.

هي تبحث عن الأمان فقط... بعيداً عن البيت الذي لا تجد الأمان فيه.

هي تبعد عن المكان التي ضربت وأهينت داخله، وتبحث عن مكان تجد فيه الحب والاحترام والتقدير.

لكن ذلك لن يكون بمثابة تبرير لهم، فجميع النساء في هذه القرية يُضربن من قبل أزواجهن دون أن تذاع أسماءهن بشكل شبه يومي من مؤذنة المسجد ليعيدهن فاعل خير ما.

لا أظن أن الإيذاء الجسدي هو المؤلم حقاً، فأنا أعلم أن هنالك أجزاء في القلب تُضرب بالكلمات أو اللوم أو التجريح أو الاستهزاء، ولا يمكن إصلاحها إطلاقاً.

للقلب كدماته ولطخاته الأرجوانية أيضاً، وإن قطع الثلج لا تصل للقلب أبداً كي تمنع تورمه.

منذ ذلك اليوم لم تعد هي أمي فحسب، بل أصبحت أنا أمها أيضاً.

كنتُ أعطِيها دواءها للمرض الذي لم أحفظ اسمه من طبييها لكنني أسميته مرض "عدم المحبة"، هي كانت مصابة به وأنا كنت خائفة من الإصابة به دومًا . . . ودون أن أشعرُ أصبتُ "بقويا عدم المحبة".

كنتُ أستيقظ عدة مرات في الليل لأتأكد أنها مستقلة جاني، أضع إصبعي أمام أنفها لأتأكد من أنها تنفس، وأقرب أذني من صدرها لأسمع نبضات قلبها لأقطع الشك باليقين.

كان يكفي أن تبقى على قيد الحياة، رغم أن هنالك آلامًا تصادفنا في هذه الحياة أسوأ من الموت نفسه، لكنني شعرت بأنه لدي القدرة لإصلاح بعضها.

كانت أُمي وكتُ أمها، وللأمهات دومًا قدرة خاصة على شفاء الجراح.

هنّ ربّات الخلق، يستطعن خلق السلام دومًا .

كانت والدي تتخيل دومًا أنها تحمل طفلًا في أحشائها، وأن شخصًا ما تخافه قام بإجهاضها .

كانت تبكي دومًا لفقدانها طفلها المزعوم، فيصاب كل من حولها بنوبة من الغضب لحظة سماعهم صوت بكائها .

كلهم يلومونها على نوبات الحزن التي تنتابها لفقدانها طفلها الوهمي، لكن ما من أحد أخذ أحزانها على محمل الجد .

ما من أحد تبرع ليشاركها حزنها علّه ينتهي، كنت الوحيدة التي شاركتها الحزن على ذلك الطفل الوهمي .

لم يفهم أحد أننا كبشر تشابه مع أُمي التي وصفوها بالمريضة، فجميعنا نحزن لخيالات وهمية .

ألم تلاحظوا يومًا أن معظم آلامنا سببها سيناريوهات ابتكرناها في عقولنا لأحداث لم تحدث وغالبًا لن تحدث أبدًا !

كنتُ أبكي بكل جوارحي على أخي الذي أجهض قبل أن يُخلق، أتحسس بطن والدتي التي تنهمر دموعها الحارة على وجنتيها وتكور على نفسها من الألم.

كنتُ أسحبها دومًا إلى غرفتي عندما تبكي بحرقة كي لا يراها والدي فيزيد من حالتها سوءًا، فقد كان يصرخ في وجهها لتتوقف ظنًا منه أن صراخه سيخرجها من خيالاتها، لكن نبراته الحادة كانت تجرفها إلى أحزانها أكثر.

كان هذا الطفل بمثابة الطريق الذي يأخذها بعيدًا عن أبي، فقد كانت تعيش من خلاله انفعالاتها وعواطفها التي حُرمت منها في كنفه وهي بقمة وعيها.

كان تعبيرها عن هذا الحزن يأخذها بعيدًا عن عالم السطوة، وكأن حال دموعها تقول: ما زلتُ قادرة على الحزن حتى في وجودك.

هو لم يكن يعلم أنه المذنب الأساسي في إجهاض ذلك الطفل.

كان الطفل سعادتها وكبرائها وتربيته الامتنان على كنفها والعناق الذي لم تحظَ به يومًا.

بقيت مريضة لفترة طويلة ولم تشفَ إلا في اليوم الذي توفي فيه والدي إثر إصابته بسكتة قلبية. . . . لقد كان من المتوقع ذلك فالقلوب لا تمنح الحب تموت بجرعات سامة من كل الحب الذي لم تمنحه.

في الليلة التي توفي فيها أبي، تغير شيء ما.

استيقظت والدتي على صلاة الفجر كعادتها قبل المرض وأشعلت قنديل الزيت كي لا تيقظني، وشعرت أن ظلها المتحرك بالسجود والركوع يحتضني.

في تلك الليلة عادت أُمي بقلبيها وعقلها، وعدت أنا لأكون ابنتها.

ذهبتُ إليها وأسندت رأسي على كنفها فمسدت شعري وخدي بيدها.

كانت الدموع تنهمر على خديها وقالت لي: (أُمنى أن أجتمع به في الحياة الآخرة بعد أن يسحب الله من قلبه جبروته، وأن أكون معه إلى الأبد) .

على الرغم من فشل معظم من هم حولي في علاقاتهم الزوجية لا سيما والداي، لكنني لستُ ضد الزواج بالمطلق، وإنما أهتم بالمشاركة أكثر.

الأمر في الشرق _ يبدو الأمر وكأنني جربت الغرب أيضاً _ لكنني لم أفعل .

على أية حال، وبدون تعميم جُلّ من عرفتهم لم يصوروا الأمر لي على أنه مشاركة.

كانت العلاقة مع الذكور تتضمن تطفلاتهم على تفاصيلي واختياراتي الشخصية.

وهذا الأمر لم يكن يشبه أبدًا تلك الحالة الشهية من الاهتمام والحرص، بل كان يشبه حملهم لمقص صغير يقصون به أحلامي وطموحاتي وأفكاري، يقصون كل أجنحتي كي يضمّنوا أنني لن أطير وأني سأبقى تحت كنفهم إلى الأبد .

لم يكن البقاء هو الذي يخيفني، فأنا ككل النساء في هذا العالم أحب الاستقرار، لكن الذي كان يخيفني حقًا هو إرغامي المسبق على البقاء وكأن هنالك أمرٌ شديد السوء ينتظرني، ومن أجل ألا أهرب سيقوم أحدهم بسحب إمكانية الهروب مني، فهل بقاء الإنسان مُرغماً يختلف كثيرًا عن الهرب !

لقد كان يخيفني التحكم بقراراتي الصغيرة والذي كان يعني لي تحكمهم الحتمي بقراراتي الكبيرة لا محالة .

أذكر مرة تعرفت فيها على شاب، ولا أدري كيف أصبح موضوع الزواج مطروحًا بيننا على الطاولة .

والمضحك أنه في اللحظات الأولى بدأت المفاوضات . . .

وفي الدقائق الأولى نسف لي إمكانية الدراسات العليا في الحقوق بقوله:

(لا أظن أنه من المناسب لأنوثتك أن تكوني قاضية)

لم أدري حينها ما الرابط بين الأثوة التي من المفترض ألا تظهر إلا عند لقاء خاص مع زوج أو خطيب أو حبيب وبين ممارستي لأي مهنة أحبها .

هل كان يظن أن زي المحكمة الرسمي سيلتصق بي على مدار الساعة ولن أنزعه عني حتى في المنزل، وأنني سأرتديه في المطبخ وغرفة الجلوس وغرفة النوم وفي كل الحفلات والمناسبات والسهرات !

لكنني فهمتُ بعد كلمات قليلة كان قد عقب بها أنه لا يرغب بزوجة عاملة، بل متفرغة لبيته وأطفاله وله، وبذلك كان ربطه الغريب للأثوة بعدم متابعة الدراسة تمهيداً لعدم رغبته بأن أعمل من الأساس .

ولم أعجب حينها لذكره ارتفاع نسبة بطالة الشبان في البلد، فقد كان الحل المنطقي برأيه أن تتوقف النساء عن اقتناص فرص عمل الشباب .

وعوضاً عن مطالبة الجهات المسؤولة بحقوق أفضل للجميع، يتم التغاضي عن ذلك بالتسلط على حقوق الحلقة الأضعف في المجتمع وتحميلها كامل المسؤولية ومطالبتها بالتضحية دائماً .

حينها فهمت رأيه . . . أن التضحية بالأحلام من اختصاص المرأة وحدها .

كنت أكره تلك المحاولات المواربة لتخييري بين أن أكون أماً وبين أن أكون إنسانة طموحة تسعى لتحقيق أهدافها، فأنا أريد الأمرين معاً !

لكنني بذات الوقت لا أستميتُ لأرمي جسدي بين يدي أي شخص فقط كي أكون أماً، فخلف هذا الجسد عقل كبير وقلب أكبر قد يشكلان ثقلًا لمن لا يجيد رفع الأفكار واحتضان القلوب .

على المرأة أن تختار رجلاً يفخر به أبنائه ويحترمونه، وبالرغم من حبي لكل اللطافة ذات الوجوه المستديرة والأقدام الصغيرة التي تلتصق بالأصابع الرقيقة لتتكور على شكل ابتسامة تحرق الفؤاد إلا أن كل ما مررت به جعلني أشعر بالمسؤولية تجاه مورثاتي هل هي صالحة للبقاء والامتداد في الحقل الجيني حتى أمد بعيد بعد موتي، أم لا !

كل تلك الموروثات النفسية... على المرء أن يجد كاتجًا لها كي لا يساهم في شقاء من هم بعده، وكأج هذه المورثات الملعونة قد يكون إنسانًا، شريكًا اختيارًا صائبًا فحسب.

إنني أبحث عن رجل لا يظن أنني أنا نفسي، رجل لا يتزني بكل ما أحب كي يحبني .

رجل لا يضيء الأنوار عليّ وأنا نائمة، بل يأخذ تعبي على محمل الجد فلا يقطني من أجل أن أعد له كوب شاي .

رجل يحتفي بنجاحي وكأنه نجاحه الخاص، لا يستخدم التفضيلات المجتمعية لإلحاق الهزيمة بقلبي وأنوثتي وإنسانيتي .

إنني أكره تلك العلاقات التي يستخدم الرجل فيها كرت القوامه فتضطر المرأة لاستئلال كرت الكيد من خلف ظهره مرغمة .

الأمر لم يكن بالنسبة لي شخص أرفع وآخر أدنى، شخص مسؤول والآخر عالة، شخص فاعل والآخر مفعول . بل كانت علاقة شراكة، شراكة فحسب . . .

هذا كل ما كنت أفكر فيه وأرغب به بكل جوارحي .

ألا يشجع الرجل المرأة على أن تكون ما تحب يعني أنه خائف إما من نجاحها وإما من هربها . . .

ولا أدري لم قد يتمسك الرجل بامرأة لا يثق بها ويظنها تنوي الهرب، ولكنني أدري لم قد يخاف من نجاحها . . . لأنه لم يثق بنفسه بعد .

على مفاهيم الارتباط أن تتغير قليلًا في هذا العالم . . .

لا يمكنني أن أصدق أن البشر حتى اللحظة يستمرون في علاقات تدمرهم، فعلى الحب أن يكون ممتعاً كتحضير قلب من الحلوى حتى إن تناثر الطحين من حولك أو سكبت قليلاً من الخليط على المنضدة أو لذعت بوهج حرارة الفرن ستبقى العملية ممتعة طالما أنت على يقين أن القالب الذي ستصنعه هو الألد على الإطلاق. لكن الأهم من ذلك كله ألا تترك الفوضى خلفك بل عليك تنظيم كل شيء قبل وضع حبة الكرز على القالب الناضج.

مشكلتنا الكبرى أننا نهتم بحبة الكرز لدرجة نحرق بها القالب ذلك لأن أحداً في هذه الحياة لم يُنر بصيرتنا لرؤية الأولويات.

فتاجر العقارات قد يساعدك في إيجاد منزل جيد، لكنه لن يلقنك درساً عن كيفية تحويله إلى بيت دافئ. أما مصمم الأزياء فلن يهتم للحظة بإخبارك أنه على البال أن يكون طويلاً وألا يقل طوله عن طول طرحة الزفاف وأنه يجب أن يكون مطرزاً دوماً بالشغف. حتى طاقم الفندق الذي سيستقبلكما خلال شهر عسلكما لن يتفوه أمامكما بأن رحلتكما الحقيقية ستبدأ لاحقاً، لا على الرمال الناعمة والوسائد الطرية.

كما أن الخواتم الماسية لن تمتلك قدرة سحرية في تحويل اللمسة العادية إلى شعلة في جوف الإنسان، وبذات الوقت لن تمنحك القمصان الثمينة وربطات العنق الأنيقة دروساً خصوصية في العناق.

حتى الآباء بالرغم من حبههم لنا إلا أنهم غالباً لن ينجحوا بإخبارنا بأسرار نجاح العلاقات.

لن يخبروك بأن الثالوث المقدس في الحب هو الاحترام والانتباه والفضول.

إن الجميع يشيرون للاحترام لكن ماذا عن الانتباه والفضول؟

إن انتباهك لمن تحب يشبه عدسة المخرج المحترف... سيخلق دوماً عملاً جيداً خالياً من العثرات.

كما على كل العلاقات لتبدأ أن تكون خالية من الجهد ومليئة بالفضول، وحده الفضول سيجر قلبك من أذنه للتسلل إلى عقلك والبدء بإقناعه بما قد عقدت العزم بأنه لن يحدث أبداً .

لذلك ما زلت أبحث عن رجل رجل يستطيع أن يخبرني أنه يرغب بالمزيد من الاهتمام عوضاً على أن يدوس قطعتي أو قلبي، رجل يتجرأ ليشاركني أيام أكتابه ويكشف لي جروح طفولته، فإني على يقين أن الحب هو أن تستطيع إنقاذ شخص ما من نفسه .

على بعد عدة أمتار من منزل الضيوف كانت سارة تجلس في المكتبة وهي تفكر بسومر تحديداً، وقد بذلت جهداً كبيراً لتدفعه للتحدث عن مخاوفه وآلامه فهي على يقين أنه لا يمكن للإنسان أن يتخلص من خوفه دون أن يعترف به، ولا يمكن له أن يتحرر من تائب ضميره إن لم يبح بذنوبه .

لقد عرفت منذ اللحظة الأولى التي قابلت فيها سومر أنه يرنح تحت ضغط كبير، ضغط جعله على هذا القدر من الكتمان والانعزالية بحيث يمكن لك أن تشعر أنه ليس موجوداً حتى، أو أن وجوده أقل من وجود الآخرين دوماً .

إن سارة على يقين أن أحد أسباب عدم ملاحظتنا لوجود شخص ما هو وجوده في مكان آخر تماماً، إنه يخفي نفسه في مكان بعيد عن الآخرين، وذلك المكان الذي يتخيله المرء قد يكون له سطوة أكبر من الحيز الجغرافي الحقيقي لذلك يمكن أن يسحبه ببطء إلى أن يتلاشى تماماً فيما لو لم يجد شخصاً يسحبه إلى الواقع من جديد .

وإن لم يجد الإنسان مُنقِذاً سيحاول إيجاد حل ما بذاته ولذلك ابتكر سومر شخصية (صفر اثنان ثلاثة)، إن كل ما أراده هو أن يُحمَل تلك الشخصية آثامه .

إنه بحاجة لمن يحمل العبء عنه، لشخص يستطيع أن يبقى حبيباً في ذلك المكان البعيد حيث ترك الراعية جثة هامدة.

هبطت سارة على الدرج الحجري وما زال صوت آلة التسجيل يصدح بصوت سومر، تذكرت ملامح وجهه لا سيما العرق في جبهته الذي كان يبدو واضحاً في كل مرة يزداد فيها ضغطه وألمه النفسي... لقد كان بإمكانها أن تستشعر تدفق الدم في جبينه خاصة في تلك اللحظة التي اكتشف فيها مصير حبيبته ليلي.

تأملت سارة الأسطوانة الموهجة وهي تقف في منتصف المختبر متسائلة ماذا لو كان لدى سومر فرصة أخرى؟ على مسافة ليست بعيدة داخل منزل الضيوف، كان الدم يتدفق بقوة في رأس سومر الذي يحاول دون جدوى الاسترخاء في سريره.

كان بإمكاننا فيما لو ألقينا نظرة أقرب أن نرى قبضتيه المشدودتين على جانبي جسده بحيث لا تظهر العروق الخضراء فيها فحسب بل في جبهته أيضاً.

كانت زاويتا شفتيه متدليتين نحو الأسفل وقد بدا وجهه مرهقاً، وعلى الرغم من أن الوقت لم يداهم بعد إلا أن قلقه وتوتره كان يكسبه وجهاً متقدماً في السن.

لم يشعر سومر براحة كبيرة اليوم كما كانت سارة قد وعدته فيما لو باح بمكنونات قلبه، ذلك لأنه كان يخفي شيئاً آخر... وقد كان هذا الأمر لا يخضه وحده لذلك كان يرغب بدفنه داخله إلى الأبد.

إن ذلك كله يعود إلى ذلك اليوم الذي كان سيحتفل فيه بالذكرى السنوية لحبه مع ليلي، عندما كان يدفع الصندوق الخشبي وصولاً إلى قبو المنزل المهجور حيث اتفق معها.

كان سومر قد ترك هديته في الخارج متقدماً إلى الأمام عندما سمع صوت ليلي المرتجف (أنا هنا).

استشعر آنذاك من نبرة صوتها أنه على الرغم من الشموع المتناثرة على الأرضية إلا أنه لا مكان للرومانسية في تلك اللحظة وتأكد من ذلك عندما انعكس ضوء إحدى الشموع على وجهها الذي بدا أصفر اللون وقد تناثرت عليه الكثير من الشامات.

لا لم تكن تلك شامات، إن سومر يحفظ وجه ليلي عن ظهر قلب، إن وجهها مزين فقط بشامة يتيمة بالقرب شفها، أما هذه النقاط فهي دماء متناثرة.

كانت تمسك بيديها الاثنتين فأسأ تسيل منه الدماء، وقد خيل إليه أن يدها والفأس قطعة واحدة فقد كانت متشبثة به وكأنه جزء منها بحيث عانى سومر وهو يأخذه من بين يديها.

(لقد حاول اغتصابي) قالت ليلي وهي تحرق بجثة ممددة على أرض القبو، فيما كانت طعنات الفأس ظاهرة في عدة مواقع في ظهره إحداها فقط تبدو سطحية فيما تبدو باقي الطعنات شديدة العمق.

تركت ليلي الفأس من يدها بعد محاولات كثيرة من سومر لأخذه وعندما تمكن من ذلك قالت (لقد تبني إلى هنا وأنا أعد المكان من أجل احتفالنا).

لم يعرف سومر هوية هذا الشخص، من الممكن أن يكون غريباً ماراً بالقرية اتبه لدخول فتاة إلى مكان مهجور، ولم يكثر في تلك اللحظة لهويته إنما أسرع بوضعه في ذلك الصندوق وسحبه بعيداً ليلقي به في النهر.

إن الكثير من الشبان قد يقدمون الذهب والعطور والورود والحلوى تعبيراً عن حب دفين في قلوبهم.

لكن ما مدى قوة الحب الذي قد يدفع بشخص لتقديم صندوق لنقل جثة، ليس هذا فحسب بل إن حب سومر ليلي لم يقل بعد تلك لحظة أبداً رغم أنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها جثة حقيقية.

لقد حمل الأمر على عاتقه، وتخلص من الجثة المجهولة وحده، لقد كان بطريقة ما يشعر أنه المسؤول عن قضاء ذلك الشخص نخبه.

إن ما كان يشغل سومر في هذه اللحظة تحديداً أن (صفر اثنان ثلاثة) لم يكن موجوداً ذلك الحين.

كان اكتشافه هذا مزعجاً بحيث انغرس أظافره بقوة في باطن يده.

الحل السابع عشر

أغمض لثراني

أيل

إنني مع المقولات التي تصوّر هذا العالم على أنه سجن كبير لأننا لم نختار القدوم إليه أو الهروب منه، بل لأننا نحمل فيه التهم بشكل مبالغ به، حيث يمكن لكل شخص على سطح هذا الكوكب أن يحمل تهمة واحدة على أقل تقدير، والغريب أنك قد تعتقل في هذا السجن دون إلقاء القبض عليك بالجرم المشهود ودون أي أدلة أو براهين.

إن سجنك هنا قائم على ظنون الآخرين وأحاسيسهم وتكهناتهم، بل وغالبًا على رغباتهم.

إنهم يرغبون أن تكون مدانًا، فتكون... إنه أمر غاية في البساطة.

فلانٌ غني، لا بد أنه لص يمتلك مالا يستحقه، إنه يسلك طرقًا ملتوية ويعذب العاملين لديه ويمتلك شرًا بقدر ما يمتلك نقودًا في المصرف.

فلانٌ فقير، لا بد أنه حاسد حقود يترصص بحفنة الرفاهية التي يتمتع بها كل من حوله والتي لا تكاد تكفيهم. عليّ ألا أتركه وحيدًا لوقت طويل في غرفة المعيشة فقد يسرق شيئًا ما أو يفكر بسرقة ممتلكاته مفضل منفذ في هذه الغرفة من أجل تنفيذ خطته اللعينة.

فلانٌ كرم، من المحتم أنه يخفي شيئًا ما شديد السوء في ماضيه، أو أنه مغرور لدرجة يجد من حوله أدنى من أن يلقي عليهم تحية الصباح وملخص آخر عشر سنوات من حياته... يا له من متكبر!

إنها تنتمي لديانة أخرى، لا بد أنها فاسقة بطريقة ما... ليست فاسقة فحسب بل ممثلة جيدة أيضًا.

ترغب بإقناعي أنها إنسانة جيدة، هه هذه الحيلة لن تنطلي على شخص مثلي...

لا بد أنها سيئة لكن الأمر يحتاج بعض التحقيقات وقليلًا من الوقت لتظهر شيطانيته، لا بد أنها شيطانة ملعونة

أو غيبية عمياء لا ترى ما هو واضح كنور الشمس .

إنها قبيحة، رباه كيف أمكنها الخروج هكذا إلى الشارع! ألم تنظر إلى هيئتها قبل أن تخرج... .

إنني حزينة منذ الآن على أطفالها الذين سيرثون حتمًا قبحها، بل ربما سيكونون على درجة أعلى من الشناعة لأن والدهم سيكون قبيحًا حتمًا، لكن ماذا لو كان وسيماً؟

إنه احتمال ضئيل، لكن حزني حينها سينقلب إلى شماتة لو أنجبت أطفالاً يشبهونها .

هذا إن تزوجت بالطبع!

حسنًا ماذا لو كانت المتهمه جميلة؟

من المرجح أنها سهلة المنال، إنها تتحرش بمن حولها كي يفتنوا بوجودها أو في أفضل الأحوال تصرح بقامتها المشوقة ووجهها الذي تصرخ ملامحه بصمت عن رغبتها بإيجاد من يستطيع تغطية تكاليف ملابسها الباهظة وعيشتها المرفهة.

هذا ولابد أنها على درجة عالية من السذاجة، فلا يمكن لإنسانة ذكية أن تستغرق نصف ساعة من الوقت لتطلي أظافرها، وساعة أخرى لتزين وجهها وتصفف شعرها، بل والأدهى أنها تظن من حولها أغبياء كي لا يدركوا ذلك... . إن بعضاً ممن حولها أذكىء جداً لا يكشفون فقط درجة ال IQ الخاصة بها فحسب بل ودرجة طهرها أيضاً، ومن نظرة واحدة... . نظرة قد تستغرق ساعتين ربما والكثير من الخيالات اللاحقة التي قد تستمر لأسابيع، فيبقون حبيسين خيالاتهم المريضة حتى أمد بعيد بينما تنجو تلك الجميلة منهم بسهولة.

قد يتبادر إلى ذهن من يستمع لحديثي أنه من العدل أن ينج في هذا السجن من يحسد الثري على ثرائه باعتبار أنها جريمة من الدرجة العاشرة بعد المئة وفق معايير سجننا المفترض، والتي قد تقوده ربما للقيام بجريمة من الدرجة الأولى يقترفها بكل دم بارد لأن الجني عليه لم يتعاون معه ليمنحه نصف أملاكه عن طيب خاطر.

من سيُنج في السجن أيضاً؟

أحسنتم...

أولئك الذين يهدرون كرامة الفقراء محولين كبريائهم إلى خرقٍ بالية ليلمعوا بها تعاليمهم كلما خف بريقه.

الفضوليون الذين يتسلون بنكاً الجروح القديمة لإراقة الدماء كما يراق النبيذ الأحمر في الاحتفالات السعيدة.

من يحطون من شأن غيرهم فقط من أجل فكرة لا تضر أو تنفع سوى الشخص نفسه، ولا بد أن يكون هنالك جناح خاص في السجن لأولئك الذين يتفوهون بعبارة (إنه شخص جيد بالرغم من أنه بوذي، مسيحي، مسلم، هندوسي، شيعي، درزي، سني).

المتنمرون الذين لا يملكون إلا أن يسيروا إلى بثور الآخرين وأسنانهم غير المنتظمة لتناسي قبائحهم الخاص الذي يلتهمهم على نحو ساخر بأنبياءه المائلة وبشرته المحترقة.

الوعاظ الذي قد ينتهي بهم الأمر كمغتصبين في سجننا هذا متلبسين وهم يقضمون إصبعاً مطلياً أو شفة مصبوغة.

في هذه الحالة من ذا الذي قد يبقى خارج السجن؟

جميعنا داخله... أرايتم!

لأننا وبطريقة ما جميعنا متنمرون، فضوليون، متعصبون، ثرثارون، متكبرون، خائنون، جاحدون، أغنى أو أفقر بالنسبة لشخص واحد على الأقل.

إننا من الكائنات التي لا تفضل بعضها بعضاً على وجه التحديد، ومع ذلك لا نستطيع إلا أن تناسي ذلك مصرين على التعايش المشترك أو لنكن صادقين... مُدعين ذلك.

يقولون أنها عانس، أختي الكبرى التي قامت بتربيتي فلم أعرف أمّاً غيرها لأنني فقدت أمي بعد ولادة أختي الصغرى بعدة أشهر.

على الرغم من أن الكثير من الرجال لا ينتهي بهم المطاف أزواجاً وآباءً، إلا أن هذه التهمة أكثر التصاقاً بالنساء وإن تم نعت أحد الذكور بها فسيكون ذلك على سبيل الدعاية لا أكثر.

أتذكرون تلك الأسطورة التي تقول أن البشر خلقوا بأربعة أرجل وأربعة أذرع ورأس له وجهان لكن زيوس قام بفصلهم ليجعل كل إنسان فيما بعد عن نصفه الآخر؟ إنني لا أصدقها ولو من باب التسلية.

إننا نسرع، فنعثر وتخطى خوفاً من البقاء بوجه واحد وذراعين وساقين فقط، إن الوحدة تخيفنا ولذلك ابتكرنا مصطلحات ليست قادرة على إرهابنا فحسب بل على جرنا من آذاننا للتصق بأقرب نصف ممكن.

بكل الأحوال إن زيوس كان ليصاب بالأم في منتصف رومانسيته لو علم كيف يقوم الأنصاف بإيجاد بعضهم البعض هذه الأيام.

قوائم بأسماء وعناوين وصفات بحيث ينسى العريس وهو في منتصف القائمة من أين قد بدأ، ولو أعاد الكرة من جديد ما كان ليميز أنه قد زار المنزل في وقت سابق وما كان ليشعر أن الفتاة التي قدمت له القهوة مألوقة حتى، والأمر ينطبق أيضاً على النساء.

إنها قائمة من التزيينات الطويلة كجدول محقلين رئيسيين أحدهما للمحاسن الظاهرة والآخر للمفقودات الصارخة، وهوب نضعها جميعها في الميزان . . . والنصر للكفة الأثقل.

ستسمعون في حديثي الكثير من المقارنات بين الذكور والإناث، إن هذا الأمر ومنذ مدة طويلة يثير اهتمامي.

وقد كان بمثابة تسلية أتبع فيها ردود أفعال كلا الجنسين بل وأسجله كملاحظات مضحكة في مدونة.

حسناً أين كنا؟

كنت أتساءل ما الذي جعل من العنوسة صفة ملتصقة بالنساء . . . أليس كذلك؟

لقد مجتث طويلاً لكنني لم أهتدي إلى إجابة شافية، ربما وجهة نظر نورسين سليمة بأنه تم استبدال الاختيار الواعي بإيماءة إما للأعلى أو للأسفل، ولكن على هذه الإيماءة يتوقف التمام أليس كذلك؟

نحن بحاجة لورقة تهديد كي ندعن بأسرع صورة ممكنة . . . وهوبا هنا تلعب بطاقة العنوسة دورها.

من تدلل لفترة طويلة سينتهي الأمر بها عانساً، هنالك دوماً المزيد من الجميلات والصغيرات والخصلات وأعدادهن

في ازدياد عن الذكور والأمر ليس لصالحكم حتمًا _إنني لا أصدق هذه الأسطورة أيضًا_.

ماذا لو توقفت النساء عن الرضوخ وعن حمل الرجال على ظهورهن فقط كي لا يبقين وحيدات؟

وماذا لو توقف الرجال عن الركض خلف الجميلات كي يحصلوا على أطفال يمكن لهم الظهور على أغلفة المجلات منذ أشهرهم الأولى؟

حينها كان ليتحسن النسل حتمًا، نسل أقل بلاهة وأكثرًا.

ماذا لو بقيت وحيدة تمامًا، أستطيع الاختيار بين الذهاب إلى السوق أو الجامعة أو البقاء في سريري بساقين وذراعين ووجه واحد ما من شيء يجبرني على تزيينه أو حجبته إرضاءً لأحد.

ماذا لو كان لدي الرغبة الخالصة والصادقة بالبقاء وحيدة، دون أن أرتبط بأحد لعدم وجود إنسان مناسب، هل كنت لأحمل تهمة عانس بدل تهمة أرملة!

ماذا لو حملت عن نجوى تهمتها لو كان الأمر متروكًا لي ما كنت لأصفها إلا بالقديسة.

لقد اعتنت بنا جميعًا وأقصد (بنا) ستّ فتيات وأب عجوز عاطل عن العمل.

لقد كانت تعمل بكل شيء تستطيع القيام به شرط ألا تتخطى عتبة المنزل، وذلك لأنها كانت بحاجة لانتباه كلي لترعى نصف درزينة من الفتيات.

ومن خلف أكوام الكوسا والباذنجان كانت تراقبنا واحدة تلو الأخرى، تدقق الوظيفة المدرسية لإحدانا وتترك ما بيدها لثوانٍ معدودة كي تخطط البرة المدرسية لأخرى.

تصغي إليّ عندما أخبرها أنني تأخرت على دفع النشاط المدرسي، وهي تضفر شعر أختي الصغرى التي تأتيها كل يوم صباحًا بمشط ومطاطات ملونة مطالبة بأن يتم تزيينها على أتم وجه قبل أن تخرج لتلعب مع أطفال الحي.

وما إن تنتهي من رفع صينية الإفطار عن الأرض، كانت ترفعي معها أيضًا لتحل مشكلتي تاركة في يدي المال اللازم كي تجنبني الحرج أمام معلمي وصديقاتي.

أما بيدها الأخرى كانت تضع مبلغاً في جيب قميص والدي كي لا يضطر أن يقف أمامها ماداً يده المجددة لتمنحه ثمن بطاقة الياصيب اليومية.

لقد كان هنالك دوماً رقم واحد يفصل والدي عن الجائزة الكبرى أو الثانية أو الثالثة، أو ربما كان يتغذى على ذلك الوهم بأنه قريب جداً ولذلك كان يعيد الكرة مع كل سحب أسبوعي.

ما من أحد مولع بالياصيب إلا الفقراء، ولم أصدف يوماً شخصاً ميسوراً مهتماً به.

كان يخاطر ببالي أنه هنالك وزارة للفقر تبني هذا الياصيب تماماً كوزارة الكهرباء، وعوضاً على أن يتم دفع فواتير الطاقة الكهربائية في دورات شهرية يصطف المواطنون لدفع ثمن تعاطيهم الأحلام غير المحققة.

إن الأحلام أكثر مصروفاً من الكهرباء والماء بل ومن النفط، وإن تجنبت تبذيرها فهم سيذكرونك بلذتها حتماً.

إنهم يعلمون تماماً أنه في كل زمان ومكان هنالك فقير ما زال لديه هاجساً بإيجاد جرة مدفونة من الذهب أو حقيبة سوداء لا يدري غيره أرقامها السرية، أو سواراً ماسياً يتعثر به عند عودته إلى منزله ليلاً.

إنهم يطاردونك في كل مكان وسيخرجون لك من داخل علبة المناديل لبشروك بريح سيارة أو من خلال برنامج تلفزيوني ليهدوك منزلاً أو من بين أرقام ورقة يانصيب تحقق لك كل أحلامك.

كل ما عليك أن ترأسلهم، أن تتبع الأرقام، وأن تحك البطاقات . . .

أرأيت كم يبدو الأمر سهلاً . . . إنهم يبيعونك حلمك وأنت تشتريه على أمل أن يتحقق، هذا كل ما في الأمر.

كنت أفكر ما الحلم الذي كان يراود والدي ليجعله يبدد كل هذه الأموال في سبيل شرائه، وقد اكتشفت ذلك عندما ظهرت له صورة السيارة الفخمة في إحدى علب المناديل.

كان على سنواته الستين يقفز فرحاً مستعجلاً الصباح كي يأتي، هو الذي لم يجلس يوماً خلف المقود ولم يمتلك شهادة تخوله لقيادة سيارة، لكن كل ما قد خطر بباله أن يبيع تلك السيارة التي لم يمسك مفتاحها بعد ليصلح الجزء المتداعي من المطبخ.

كان يروح ويجيء أمام المرأة مبتسماً لنفسه ثم يقول: (سأصلح أسناني أيضاً وسينتهي أمر هذه الأسنان السوداء المهترئة)، ثم يلتفت إلى نجوى ويخبرها أنها ستوقف عن العمل فما من داعٍ للتطريز أو تقطيع الخضار وأن على هؤلاء (التنابل) الذين لا يملكون وقتاً لإطعام أنفسهم أن يجدوا أحداً آخر ليقوم لهم بذلك، وأن ما من أحد منا بعد اليوم سيتعثر بجبات الخرز المنسية على الأرض ولن نؤخذ بالإبر المتروكة على الوسائد إلا إن قررت نجوى أن تزين الجدران بلوحات يدوية من صنعها، طبعاً بعد دهن هذه الجدران بحيث تبدو جديدة تماماً.

لقد كان حلمه أن يكون الأب الذي يمكن الاعتماد عليه وأن يستطيع الإمساك بزمام الأمور من جديد .
لم أره يوماً أكثر إشراقاً وأناقة ووسامة وقد بدا لي أكثر لطفاً ووداعة، حتى أن أسنانه لم تبدُ بالسوء الذي كانت عليه بل استطاع حينها أن يقضم جزرة كاملة.

كم يمكن للمشاعر التي تعترينا أن تغير ملاحظتنا، بل إنها قادرة على تغيير قدراتنا وقوانا أيضاً !
لقد كان والدي أباً مشتهراً بالانتباه إنما صارماً، فعندما تستدعي الحالة الصرامة سيمارس سلطته الأبوية بقسوة .
إنه يحبنا بكل تأكيد، لكنه لم يستطع مجال من الأحوال أن يحفظ الكثير من التفاصيل، وأقصد بالتفاصيل يوم مولد كل منا أو الصف الدراسي الذي انتقلت إليه أو اليوم الذي توفت فيه أمي إلا عندما تشح بالسواد كسبع بطات سوداء لا أم لها .

وعندما كنت آتي إليه ليوقع لي جلالي المدرسي كان يسألني مستغرباً (ألم أوقعه لك البارحة) فأخبره أنه قد قام بذلك لإحدى أخواتي .

كان من المعتاد أن ينادي نجوى باسم ميادة ويطلق على ميادة اسم بشرى وعلى بشرى اسم هيام وهكذا بسرعة دون تردد أما أنا فكان يقف للحظة قبل أن يناديني. فأقول له (أيل اسمي أيل يا أبي) _ فيخبرني كلكن لدي واحد .

وبالفعل كلنا لديه واحد، فهو يعاني من نسيان التفاصيل معنا جميعاً ولا يهتم بالمناسبات الشخصية ربما لأنه لا يملك الثمن للاحتفاء بها أو أي رصيد من المواساة، إن لا مبالاته نتيجة . . . وليست صفة أصيلة المصدر .

ولذلك فقد كان يلاحظ فقط للأشياء التي تصرخ كي ينتبه لها، تمامًا كسقف المطبخ المتداعي.

وكت أظن أن عدم اهتمامه بالتفاصيل صفة ذكورية عامة لكنني أدركت أنني مخطئة عندما تعرفت إلى قصي فنسفت تلك الملاحظة من مدونتي عندما التقيته.

وبالرغم من أنني لم أشهد العلاقة بين أمي وأبي لكنني أرجح أنها ماتت غيظًا، فيمكن للنساء أن يمتن لمجرد عدم ملاحظتهن بل إنهن يمتن دومًا عند ذلك، لكن في بعض الأحيان فقط يتحول هذا الموت إلى موت جسدي حقيقي.

بكل الأحوال...

لم ينم والدي في تلك الليلة، وما أن بزغ الفجر حتى لبس ثيابه على عجل ل يبحث في أمر البطاقة وليؤمن مشيرًا للسيارة كي يبيعها في أسرع وقت ممكن.

ولكن بعد عدة ساعات عاد مكفهرًا، وذلك الوجه المبسم الذي بدا أصغر بعشرين سنة في الليلة السابقة تم استبداله بوجه أكثر تغضنًا وكهولة مما كان عليه قبل حادثة علبة المناديل.

لم يحدثنا والدي تلك الليلة واختلى بنفسه وقتًا طويلًا إلى أن علمنا أن شركة المناديل لم تستقبله بالطريقة التي ظنها، وأن الموظف الذي التقاه بلامبالاة كان قد أخبره أنه أمام خيارين، إما أن ينسى أمر السيارة تمامًا ويخرج خالي الوفاض أو أن ينسأها ويأخذ مبلغ عشرة آلاف ليرة سورية والتي بالطبع لا تساوي شيئًا يذكر من ثمن سيارة الأحلام، على أن يتم التقاط عدة صور له أمام السيارة وهو يفتح بابها ممسكًا مفاتيحها لضرورة الدعاية الإعلامية!

غدت الجدران يومها أكثر تشققًا واتساحًا، أما المطبخ الذي تعايشنا مع ركافة سقفه عشرات من السنوات ها هو اليوم يبدو خطرًا للمرة الأولى.

فما تعتقد أنك قد تخلصت منه سيعود سيئًا أكثر من المعتاد فقط لأنه كان لديك أمل بتغييره.

اللعنة على الأمل، إنه خبيث خبيث جدًا لأنه يقنعنا بأن الأمور ستصبح أفضل، لكن الحقيقة أن الأمور تكون أفضل عندما لا يمد عنقه داخل رؤوسنا.

خرج والدي من عزلته، وقد اعتقدنا أنه سيتوقف عن تبذير المال لشراء أحلام كبيرة إلا أنه لعن شركة المناديل التي لا تتمتع بأدنى صداقية، واستمر في الياصيب مؤكداً أن العلة في شركة المناديل فحسب.

لقد حزنت كثيراً حينها ليس بسبب خسارة المال الذي لم نربحه منذ البداية بل لأن والدي استمر في خداع نفسه، وإن الإنسان لا يفعل ذلك إلا في أشد مراحلهِ بؤساً.

ولأنني كنت من البائسين أيضاً فقد كانت لدي مخيلة تسمح لي بابتكار تلك الأحداث التي لم تحصل أمامي، لكنني على الطرف النقيض من حلِيم الذي كان يجد في المخيلة سلواناً وراحة.

لقد كان والدي في عقلي يقف ببرزته الوحيدة التي رقّ جوخها عند الكتفين بشكل واضح أمام الموظف المتعجرف وهو محني الرأس خجلاً لمطالبته بأمر كان من المفترض أن يكون من حقه، كنت أرى سبابة الموظف وهو يشير إليه للخروج من الباب دون أدنى وجل من رجل مسن يرتدي حذاء قسّم نعله من الأسفل.

إن المتعجرفين لا يكونون كذلك إلا مع أولئك الذين قسم نعل حذائهم وعلى الرغم من أنهم غير قادرين على رؤية هذا الانقسام الحاد في أسفل الحذاء إلا أن هنالك ما يشي لهم بذلك.

إنه لمن الصعب على المرء أن يكشف الآخرين أنه لا يمتلك شيئاً، رغم أنه بذل جهده لإظهار أنه يمتلكه حينها سيفقد أمل امتلاكه إلى الأبد.

لقد كان قلبي يذوب حناناً في مواقف كهذه، جميعنا نسامح آباءنا على أشنع أخطائهم عند مرورهم في لحظة قاسية . . . إن هذا هو السبب في استمرار محبتنا وغفراننا لهم.

إن تأمينهم حياة كريمة لنا لا يمكن أن يكافئ بمحبة كذلك المحبة التي يمكن أن نغدهم بها لأن كرامتهم قد مُسّت. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف نجوى عن وضع مئتي ليرة بهدوء في الجيب الأمامي للقميص المعلق على الباب بعد أن تتأكد من أن الأزرار مثبتة بشكل جيد.

لقد كان يخيل لي أنها تملك عدة آيادٍ خفية تستطيع من خلالها القيام بهذه المهام كلها دون تلكؤ كالآلهة الهندوسية

تمامًا، لكن بوجه واحد فقط لم يتبدل شحوبه منذ عرفتها وبعينين جاحظتين قليلاً تستطيع بهما رؤية مالا يُرى بنظرة خاطفة إلى وجوهنا .

وهكذا أقنعتُ والدي أن الوضع ليس سيئاً كما يظن وأنه مع الوقت سنتمكن من الادخار لتجديد جزء لا بأس به من المطبخ .

وبذات الطريقة التي كانت تحول الإيتامين من قطعة مليئة بالفراغات إلى لوحة بهية كانت تفعل ذلك بنا، كانت تمرر خيوطها بدقة في المكان المناسب تمامًا لتخلق زهرة في قلب كل منا أو ريشة طاووس لتعيد القناعة إليه من جديد .

إن الكثيرين قد يملكون خيوطاً من الحنان والمحبة لكنهم لا يجيدون إدخالها في المكان المناسب فحسب فتبقى قلوب من حولهم بيضاء باهتة وبكثير من الثقوب .

لم يكن الأبيض لوناً مفضلاً لدي ولذلك لا يمكنني أن أصف كل ما هو فاتر وفاقد للإحساس أو مثير للحقن إلا باللون الأبيض، ولم أدري يوماً لماذا يرتدونه في الأفراح إلا إن كان ذلك من باب التمهيد لجحيم الروتين الأبيض .

وحدها الشوكولا البيضاء كانت تثير اهتمامي، وعلى الرغم من أن أختي نجوى كانت قد علمتني أسرار صنعها إلا أنني لم أستطع تقليدها تمامًا بالحصول على ذلك القوام الكريمي المعتدل الذي لا يمكنك أمام إغرائه إلا أن تلمس طراوته بإصبعك، فكنا نجتمع حول حلة الشوكولا المطبوخة لنحظى بقيمات السعادة الأخيرة المتبقية داخلها .

أما أنا فقد كان قوام الشوكولا التي أعدها ثقيلًا بحيث يصل إلى معدتك بسرعة فائقة ليخبرك أن توقف عن تناول المزيد، على عكس الشوكولا التي كانت تحضرها نجوى فقد كانت تنساب ببطء بحيث تثير كل الخلايا التي تكون على تماس معها لتناول لقمة ثانية، كانت تجربني دومًا أن السر كله يكمن بالتحريك ودرجة الحرارة، وكنت قد فهمت أن المكونات ذاتها لا تعني الحصول على نكهة مماثلة، وهذا الأمر ليس حكرًا على الطعام .

وبالأسخريه فقد كانت الشوكولا التي عُمنا فيها خلال رحلة قدومنا من النوع الذي اعتدت أنا تحضيره!

وعلى الرغم من عدم مهارتي في التصنيع إلا أنها كانت تعتمد عليّ بأمر آخر أجيده، وهو تزيين الشوكولا .

فبعد صبها في قوالب على هيئة أصداف أو قلوب أو ندقات ثلج كنت أنثر عليها إما مكسرات مطحونة أو أحقتها قبل أن تتصلب بكرى البندق، لكن متعتي الكبرى كانت عند التعامل مع الألواح الكبيرة البيضاء التي كنت أتفنن بتزيينها بقطع كاملة من اللوز والفراولة والتوت، وأخرى بالفسق الحلبي والزبيب الأسود أو الأناناس والمشمش الجفف بحيث أحول ذلك اللون الأبيض إلى نهر من الألوان، وعلى الرغم من أنني لم أذق في حياتي أذ من تلك الشوكولا إلا أنني أعلم أن الجمال والألوان التي أسبغها عليها كانت سبباً أساسياً في زيادة الطلب عليها، فنحن شعوب نأكل بأعينها وذلك لا ينطبق على الطعام وحده.

وعلى الرغم من اهتمامنا بالجمال إلا أننا تقنن باختراع القبح أيضاً، وبإغراق من حولنا به.

قد يخاطر بالمرأة في اللحظات التي تسبق عودتها عازبة من جديد أنها ستعيش بلذة فائقة كل ما قد فاتها، وأن كل أيام وحدتها وبؤسها ستبدد، لكن هذه الخدعة سرعان ما ستلاشى بعد وقوع الأمر بثنائية واحدة.

إننا في مكان لا يتم التسامح فيه كثيراً مع امرأة بتجربة وذكريات، فإن ذلك يعني لهم أنها مليئة بالأم لا أحد مضطر للتعامل معه، إنه ببساطة لم يخض شخصاً آخر.

وحتى لو كنا من مشجعي أتعس الفرق الوطنية التي تخرج دوماً من المونديال خلال الأشواط الأولى إلا أن واحدنا لن يرتضي إلا الحصول على الميدالية الذهبية في تحقيق الألم الأول لأحدهم.

إنني أحمل المسؤولية كل المسؤولية لأولئك الذين يكتبون قصص الطفولة، إنهم لا يدركون أن تلك السعادة الآتية التي يزرعونها قبل النوم عندما ينهون قصتهم بعبارة (وعاشوا سعداء إلى الأبد)، ما هي إلا كذب حقيقي لإيقاعنا في وهم الأبدية، وإنهم لن يتمكنوا من إصدار أربعة أو ثلاثة أجزاء أو حتى جزء واحد بعد الإصدار الأول ليخبرونا أن الأمور لم تنته مجال من الأحوال بالسعادة الأبدية مع الشخص ذاته.

وأنه يمكن للسعادة أن تتقلب بؤساً ثم تعود سعادة ثم بؤساً بذات السهولة التي تتحرك بها عقارب الساعة، ويمكن لهذه المشاعر أن تجدد مع شخص آخر، وإنني لا أقصد بذلك العلاقات العشوائية والمفتقرة للمعنى بل أقصد منح فرصة للشخص كي لا يتحمل البؤس لمجرد وعد أبدي كاذب بالبقاء مع شخص واحد.

لا أدري إن كان لذلك علاقة بالجسد وشهواته، لكن كل ما كان يلوح أمامي خوف من الدنس ونفور من الاستهلاك، وكأن الجسد كالسكر يذوب مرة واحدة بماء واحد فحسب، ولن يبقى منه شيئاً صالحاً بعد ذلك.

وثلة كبيرة من الذين قد يرغبون به لديهم يقين خالص أنه لم يعد صالحاً فيطاردون به بشهوة حيوانية وقحة، إن الأمر ملتبس عليهم فحسب . . . فمن تكون شهواته مسممة سيرى دوماً الأجساد غير صالحة إلا للاستهلاك السريع. بالرغم من أنهم لا يستهلكون إلا أنفسهم فحسب، وكفاهم عقاباً أنهم لن يختبروا نشوة صادقة طيلة حياتهم، فالنشوة لا يمكن خداعها، إنها تقرأ نوايانا جيداً . . . فتكونها، ولا علاقة لقوة الجسد أو جماله بكل ذلك.

إن الأمر لم يكن أفضل حالاً مع النساء، إنهن يصبحن حذرات وخائفات أكثر، كما سيضاعفن جرعات النسيمة التي يعاطينها، وعلى الرغم من أن هذه الصفة تلتصق بالنساء لسوء طالعهن إلا أن الرجال يمارسون النسيمة أيضاً إنما يوهمون أنفسهم بأنهم يقومون بها كتحريرات سامية من أجل كشف الحقائق، أما النساء فيمارسنها من باب تنافسي بحت، فأنا لا أصدق أن فتاة تتقب في عيوب فتاة أخرى أو تتخرعها دون أن تكن تجاهها غيرة دفينية أو غير واعية.

وعلى الرغم من أنني امرأة إلا أنني نادراً ما كت أثق بالنساء، ليس بالنساء على وجه التحديد إنما بالتنانين. فالغيرة قد تحول بلبله لطيفة مغردة بأعذب الألحان أمام كل أصناف الرجال خلال لحظة واحدة إلى تنين مجنح نافث للنار لسبب لا يعلمه إلا الله وهي.

لقد فهمت في مرحلة مبكرة هذه اللعبة التي تتحول فيها الإناث إلى تنانين، عندما كانت إحداهن- وتدعى أمل- تستमित في محاولة إهانتني والتقليل من شأنني في حال تقدمت عليها بالدرجات لتخبرني أن وجبتها اليوم ستكون من إعداد أختي نجوى، ثم تعود لتسألني ببلاهة خبيثة إن كت أنا في المكان المخصص لتقطيع البطاطا.

كت أتجاهل الأمر فكل ما يمكنك فعله عند لعبك مع الأطفال أن تسمح لهم بالفوز، كذلك الأمر ينطبق على من يتعمد إزعاجك وإهانتك بدون أي سبب مقنع، فهو مجرد طفل سيء الطبع لم ينضج بعد.

إضافة لأنه لم يكن لدي ظهر قوي لأتكئ عليه، وقد كانت تلك المرحلة العمرية قاسية على معظم أبناء جيلي.

يكفي أن يكون هنالك ثقب مجهري صغير في بنطال الفتاة، أو التقاطها في إحدى المحال التجارية التي تباع الثياب المستعملة حتى تصبح أضحوكة الفصل الدراسي كله.

تلك الثياب التي كانت تعدلها نجوى لتبدو بأبهى حلة لذلك لم يكن الإمساك بي ممكناً .

لكن حتى لو حصل ذلك فإنها ليست بالمشكلة الكبيرة، إن هذا منزلي، هذا أبي، هذه نجوى أختي، وهذه ثيابي .
إن كل شيء في حياتي واضح وكنت أعلم أنه مهما كانت التهم الموجهة لأي إنسان فلن يخضع لعقاب حقيقي مالم يذعن لحملها عن طيب خاطر .

ولذلك كنت أشكل تحدياً إضافياً بالنسبة لأمل التي لم تستسلم بعد أن سلبت منها المركز الأول في المذاكرة الفصلية الأخيرة، فقامت بدس وردة حمراء في حقيبتني وذلك في يوم عيد الحب تحديداً، وبالطبع لم يكن لذلك أدنى ارتباط بالحببة من قبلها .

تعمدت وضعها في اليوم الذي يشهد استنفاراً من قبل مدربات القوة المسلحة بمناديل بيضاء يمسحن بها وجوه الفتيات ليتأكدن أنه ما من حمرة صناعية تشوبها، ويتفقدن بدقة بالغة طول الأظافر ونظافتها، ويفتشن الحقائق مجتاً عن أي رسالة أو وردة، إنهن ينقبن عن دليل لتهمة مسبقة !

وبالطبع تم التقاط الوردة الحمراء إضافة إلى بطاقة لم أعلم محتواها مباشرة فقد سلموها لأختي نجوى بعد أن تم استدعاؤها لاتخاذ الإجراءات اللازمة بحقي .

وكل ما أذكره أنها كانت تبكي بعيون محمومة في مكتب المديرية التي لا بد أنها وبجتها بطريقة ما على قصور تربيتها لي، ووفقاً لسياسة المدرسة الصارمة تم فصلي خوفاً على انتقال سلوكي السيء لباقي الفتيات، فلا مكان للإيحاءات الجنسية في هذه المدرسة، إنها للعلم فقط .

قد تتساءلون لم سردت تلك القصة العابرة التي قد تكرر مع عشرات الفتيات في أي مرحلة زمنية، لكنني أسردها لكم لأنها غيرت منحي حياتي بالكامل .

فقد تحقق لأمل أكثر من مرادها، فالأمر لم ينتهي بفصلي بل عندما وصلت القصة لمسمع والدي اتخذ بحقي إجراءات صارمة.

منذ ذلك الوقت تعلمت درسًا باهظ الثمن أنه لحظة نجاح الأثني في منافسة ما قد يضافحها الرجال مهنيين وفي نيهم عدم خوض منافسة أخرى معها أو تجهزين فخاً من العيار الثقيل في المنافسة القادمة، لكن النساء سيقمن بذلك قبل صعودها للمنصة حتى لو اقتصر الأمر على إفساد تسريحة شعرها في صور تقلدها الميدالية الذهبية.

لم يصدقني أحد حينها، باستثناء نجوى التي لم تكن على علم بأدق تفاصيل حياتي فحسب بل كانت على تماس مع عقلي وبكل فكرة تدور داخله ومع قلبي بكل نبضة، لكن تصديق نجوى لم يكن كافيًا ومع قوة تلك الموجة من عدم التصديق أذعنت لتحمل العقاب هذه المرة!

كنت أرى إدانتي في عيون باقي أخواتي وأبي... تلك النظرة التي لا تخلو من اشمزاز وعلو بأنه قد تم التقاطي.

لا شيء يجعل الإنسان يذعن لتهمة أكثر من عدم دفاع من يجهم عن براءته.

العقاب الذي أعدّه والدي لي عندما تناهت القصة إلى مسمعه لم يكن ضربًا أو حرمانًا من طعام أو متعة ما بل كان أكبر من ذلك، فقد تحولتُ بطريقة ما إلى رقم ذهبي في عينيه.

إن كل ما قد فعلته هو أنني تفوقت في دروسي كي أحقق حلمي في الوصول في الجامعة، لكن انتهى بي الأمر في غرفة لطبيبة نسائية لتؤكد أنني ما زلت محتفظةً بعذريتي.

لا أدري إن كان في هذا العالم أكثر مهانة من ذلك، أن يتفقد شخص غريب أكثر أجزاء جسده خصوصية لإعلام الآخرين وبشكل علني إن كانت الأمور على حالها منذ الولادة حتى اللحظة.

يمكن لساقى الفتاة أن يصبحا أطول، ويمكن لأذنيها أن تصبحا أكبر، كما يمكن لشعرها أن يصل حتى كاحلها أو يقصر، ويمكن أن يُفتح في رأسها ثقب يحتاج لعشرين قطبة، أو أن تفقد كلية لكن هذا الجزء لا ينبغي له أن يتغير حتى لو بحادث عابر.

إن الكثير من الحيوانات انتهت بناء على ذلك، انتهت قبل أن تبدأ حتى .

وبدلاً من أن تكون ليلة الزفاف ساحة للفرح قد تحول في طرفة عين إلى ساحة جريمة على يد أب أو أخ يتأبه الندم بعد أن يكشف أن الأمر مجرد لبس على الزوج الأحق الذي لم يستفد من كل تجاربه السابقة في تفادي فضيحة دموية لفتاة بريئة .

وحدثن المومسات اللاتي يزدريهن ويعبدهن على حد سواء سيتمكن من خداعه دون إثارة انتباهه حتى أو تساؤلته، أما الفضائح ستكون حكراً على البريئات الساذجات .

إن هذا كله لا يخلق حول الجسد إلا هالة شيطانية ويضيف سلاحاً فتاكاً للتدمير النفسي .

في النهاية تم التخطيط لتزويجي على عجل، ولتنزلق الخانة الأخيرة من الرقم الذهبي سريعاً في مكانها تزوجت من رجل يكبرني بأربعين عاماً .

لم تستطع نجوى الوقوف في وجه هذا الزواج الذي تم بسرعة بعد صك براءة من الطيبة النسائية، أما أنا فلم أحارب كثيراً وسرعان ما تبدلت نظرة الاشمئزاز في أعين أخواتي وأبي إلى نظرة ترقب يشوبها بريق من السعادة . حاكّت لي نجوى من أجل هذه المناسبة ثوب زفاف أبعد ما يكون عن اللون الأبيض بل كان يميل إلى البيج الوردي . كانت تقضي ساعات طويلة من الليل وهي تضع أحجار الكريستال الصغيرة على الأكفاف ببطء وإمعان بحيث خيل إلي أنها كانت تصلي . . . كأنها تكفر عن شيء ما .

وهكذا تحولت أنا إلى بطاقة اليانصيب التي لم تنقذ المطبخ من تداعيه فحسب بل حوّلته إلى مطبخ حديث بخزن منظمة عوضاً عن التجايف المغطاة بقطع قماشية بالية .

لقد تحولت إلى حشوة أسنان لوالدي، وإلى حقائب مدرسية جديدة لأخواتي وإلى ثياب وستائر وصحون وأباريق وسجاد وبطانيات دافئة .

لم أتحول إلى جماد بشكل ظاهري فقط، لقد تجمدت فعلاً بحيث لم أعد أشعر بضربات الحزام على جسدي ولا

بالملاعق الذهبية التي يقوم زوجي بتسخينها لكي أجزأ مني .

إنه النظام المتبع في ذلك القصر الفخم . . .

أ تأخر على الإفطار، فيتم سكب الشاي السيلاني الفاخر على جسدي .

أغفو قبل أن يعود، فيتم إيقاظي بسحبي في الممرات الرخامية .

أرفض الخلود معه إلى النوم فيتم تقييدي إلى السرير الملكي بحبال القنب .

كل شيء فخم هنا بما في ذلك العقوبات التي كانت تتم بأبهى صورة ممكنة ويمكنكم إطلاق العنان لخيالكم فقد تعرضت لشتى أنواع التعذيب .

إنني من الأشخاص الذين لا يحبون أن يرووا عذاباتهم بشكل خاص لأن ذلك يجعل منها أكثر حدة . . .

ولذلك ستلاحظون أنني أجنب ذلك بالسخرية، وهناك طريقة أخرى لتجنبها بتركيز كل طاقتي على العاطفة .

لقد بدأت أرى في وجوهكم منذ الآن نظرات استغراب، إن ملاحكم تشاءل مستهجنة متى قد أتيح لقلبي أن يحب وأنا التي قد قضيت أكثر من نصف عمري على ذمة رجل .

بكل الأحوال اعتدت أن أحمل تهماً كهذه . . . إننا في ذلك السجن الكبير الذي أخبرتكم عنه في البداية

أتذكرونه ؟

لقد حدث أن تعرفت على قصي في إحدى الجمعيات الخيرية التي كان لزوجي إسهامات بها، وما من داع لأخبركم كم كانت أيديه غارقة في أعمال الخير .

كانت الجمعية هذه دوناً عن غيرها قد احتلت حيزاً كبيراً في قلبي فقد كانت لدعم الأطفال الذين فقدوا قدرتهم على الرؤية .

لقد كان قصي من أوائل المؤسسين لهذه الجمعية وهو الذي أطلق عليها اسم (أغمض لترى)، وقد كان يبقى لوقت متأخر في مقر الجمعية حيث يعمل بهدوء مفرط ويتعامل مع كل ما حوله برهافة مفرطة، ينصت جيداً، يتأني قليلاً، يحمر خجلاً، لا يتسم إلا ما ندر وعندما يفعل ذلك يضع يده على فمه.

لقد كان يقضي ساعات طويلة من وقته وهو يسجل الكتب ليستمع إليها الأطفال، ويمنح صوته نبرات مختلفة ليؤدي كل الشخصيات معاً على خشبة صوتية.

إن كل شيء في عالمه من الصوت الخالص وقد علمني مع الوقت أن الأشياء الجديرة بالرؤية لا يمكن رؤيتها بعينين مفتوحتين.

لقد كان ذلك واضحاً لكنني لم أتمكن من ملاحظته إلا في اللحظة التي أخبرني هو بذلك.

لقد علمت دوماً أن هنالك شيء نخسره بالتحديق، فالعيون التي تنظر لجرد الرؤية تلتهم أشياء داخلنا، تلتهم ثقتنا بإيجاد من يستطيع أن يكشف فينا أكثر من اللحم والجلد الميت.

لقد كان يخبرني أنه على الرؤية ألا تكون هدفاً، بل سبباً للإبصار ما هو أوضح وأجمل وأعمق. وهذا ما قد وجده بين هؤلاء الأطفال، ومن بينهم كانت هايدي الأقرب إلى قلبه وقد استعان بصوتها الملائكي لتمنح الروح لبعض الشخصيات، وكان يكفي أن يلقي عليها النص مرة واحدة كي تحفظه وتقوم بتسجيله ليتم عرض الرواية أو الكتاب أو القصة أو المسرحية في حفلات يوم الخميس حيث يستلقي الأطفال جميعهم على أرائك مريحة بجانب بعضهم البعض وهم يتناولون الرقائق المحمصة والبوشار مستمعين إلى الأصوات المسجلة التي تخلق عالماً لا يقل جمالاً عن أي فيلم مصور.

وكثيراً ما دعوني إلى تلك الحفلات بحيث أصبحت جزءاً لا يتجزأ منها، وفي إحدى الأيام وضع قصي عصابة على عيني قبل دخول قاعة الكتب الصوتية قائلاً لي أنني سأرى بشكل أجمل.

ما من شيء شتت انتباهي يومها، لا ضوء النهار الذي كان يتسرب عادة من النافذة ولا الأشجار التي تتطاير أوراقها من خلف الزجاج ولا الجدران المزينة باللوحات.

ولذلك لم أفوت أي جزء، وكان صوت هايدي وقصي يقفز إلى عقلي ليرسم الملامح والشعور والمكان والزمان بأبهى حلة داخل رأسي دون أدنى تشويش، ومنذ ذلك الحين تعلمت أن أغمض كي أرى.

كنت أرى كثيرًا من الجمال في وجه قصي الذي كان يرتبك عندما أحرق به فيظن أنني أركز اهتمامي على ندوب وجهه.

أخبرني أنه خلال طفولته كان أصدقاءه يستهزئون منه في صمته ويزداد هرجهم عندما يتسم أو يضحك، فقد كان شكل شفتيه مختلفًا عن شكل شفاههم، لكن كلماته دومًا ما كانت أرق.

في كثير من الأحيان يكون الإنسان طيبًا أكثر تكفيرًا منه عن قبح نظرة الآخرين له.

منذ ذلك الوقت تعلم الصبر والإنصات والرفافة، وهذا كان كل ما كنت أحججه.

إن الكلمات الجميلة تسقط في شروخ القلب فتملأها، بل قد تغطي شرخًا ممتدًا من شفة قائلها حتى أنفه.

ولذلك لم أكن أعير انتباهًا كثيرًا إلى ذلك الشرخ في وجه قصي، لأن صوته كان ينبت على فمه وأنفه، ينبت كزهر بري ملون على جرف عال فلا تستطيع رؤية حواف صخوره، أنت ستراه مدخلًا ربيعًا إلى غيمة فحسب.

لقد كنت أشعر بالانتعاش في كل مرة ألجأ فيها إليه فقد كان يسمح لجروحي أن تلتئم دون أن يراها حتى.

أندرون... يخطر ببالي في أحيان كثيرة أنه حتى بعد غيابه لن أتمكن من الارتباط إلا بشخص مثله...

إن هنالك مرجعية مثلى يعود المرء فيها لاختيار شريكه المستقبلي، يمكنكم القول أن قصي هو مرجعيتي.

ستسألون جميعكم عن سبب عدم ارتباطي بقصي ذاته...

لقد تفاجأت بزواجه بعد وفاة زوجي بفترة قصيرة.

لم يكن بإمكانني معاتبته فهو لم يعدني بشيء، لم يقل مرة لي أنه يحبني، لم يعانقني ولم يلمس يدي.

لكنه في النهاية تزوج إحدى فتيات الجمعية... صبية بإمكانها رؤيته بقلبيها.

لله المحن الثامن عشر لله

جنيُّ الأمنيات

وسام

ستكتشف مع الوقت أنه لا بدّ أن تتشابه مع منزلك الذي قطنته طيلة حياتك .

مع النوافذ الزجاجية المموجة التي لا يمكنك رؤية ما خلفها بشكل واضح، إنك زجاجيُّ أيضاً لكن من الصعب حتى للضوء أن ينفذ داخلك دون أن يتشوّه هو الآخر .

ستشابه مع الوسائد التي رقت من كثرة الاتكاء عليها، والصحون التي كُسرت حوافها من سوء الاستخدام، والسكر المبلل المتحجّر في علبته الذي يُذكرك أنه حتى أحلى الأشياء يمكنها أن تُعبّر عن امتعاضها من عدم الاعتناء بها كما يجب .

ومع الدرج غير المسيّج الذي بتّ أقفز على درجاته بسرعة رغم أنني مُدرك أن حصوة صغيرة واحدة قد تؤدي بحياتي .

لكن هنالك في الأعلى كان ما يستحقُّ الركض من أجله على درج بلا سياج، كانت هنالك الحياة التي أرغب بها، والمنزل الذي أرغب أن أشبهه .

على سطح البيت المجاور في الساعة الثانية عشر من كل يوم كانت تقف وتنشر الغسيل، وكنت أقف خلف خزان الماء أنظر من ثقب أحدثته في الجدار المنخفض الذي أفوقه طويلاً بقليل أنا وسنواتي العشر، فأضطّر لأنحني ريثما تنتهي .

تتصارع عيني مع أنفي على الثقب الصغير، فعينيّ تريدان الرؤية وأنفي يرغب بحصته من الرائحة .

وفي الأيام الرطبة التي أكون محظوظاً فيها، كان يُترك الغسيل على الجبال فترة أطول وأستطيع القفز من سطحي إلى السطح المجاور لأتحسس ملمس القماش عن قرب وأدفن أنفي في ثنياته، وبالطبع كان الأمر يتكرر عندما تبيتُ صحنون المربي عدة أيام على السطح كي تصبح ذهبية تحت الشمس، فأقفز كلما أُتيحت لي الفرصة لأحصل على حصتي منه، مُرتباً المشمش الحلى من جديد كي لا يبدو أن هنالك أحداً قد عبث به.

حتى الفلفل الحار المجفف الذي كان يُنشر قبل طحنه لم يسلم مني، على الرغم من الدموع التي كنت أذرفها وأنا أتناوله إلا أنه كان لدي وجهه نظر خاصة بشأن الألم الذي يلحقه مجليمتي الذوقية وأصابعي وعيناي. كنت أفكر أنه قد كان حلاً بشكل مبالغ به في أوقات أخرى فلم يُقدّر وجوده أحد وأنا اليوم أدفع ثمن اللحظات التي ندم فيها حلاوته، وقد كان الأمر عادلاً من وجهة نظري.

قد يبدو الأمر برمته مجرد نهم لطفل صغير، لكنه ليس كذلك أبداً . . . كل ما في الأمر أنني أحاول أن أخفي داخلي ما كل قد لامسته هي.

ولا أظن أنها قد لاحظت يوماً اختفاء أي شيء، ففي حيّ كحيثنا قد يُحمل الإنسان العبء لذاكرته بدلاً من أن يشغل نفسه بإمكانية وجود شخص يتجول بين ممتلكاته بحرية، ممتلكاته البسيطة التي من غير الممكن أن تُسرق.

لا أظن أنه قد جال في خاطرها أن هنالك من يعيث بأغراضها صباحاً بعد خروج الجميع من المنزل.

من يعلم بدقة أحمر الشفاه الذي تفضّله لأنه يبدو دوماً أقصر، والثوب المنزلي الذي تحبه لأنه يُنشر على الجبال أكثر.

لا أظنها شعرت بأن هنالك من لف الشريط من جديد داخل الكاسيت المفضل الذي تسمعه وهي تنظف المنزل، فالأمر سهل على أصابعي الصغيرة أن تلفه كما كان تماماً.

لن يحول مجاطرها أبداً أنني اكتشفتُ الركن الصغير الذي تُخبئ فيه قطع الحلوى خلف الخزانة، وبذات الطريقة التي لم تلحظ فيها اختفاء أشياءها، لا أظنها لاحظت أنني كنت أضع قطع حلوى إضافية من النوع الذي تحبه ذاته .

أو كيف وصل سوارها الفضي إلى علبة مجوهراتها بعد أن كان ضائعاً لعدة أسابيع أسفل السرير

وبالرغم من عدم ملاحظتها إلا أنني كنتُ أتحين اللحظة المناسبة كي أكشف لها عن نفسي، لأكون ملاكها الصغير .

كنتُ أتسلل إلى داخل البيت الخالي وأستلقي على البساط في الغرفة بجانب المدفأة الباردة، وعلى الرغم من ذلك كنتُ أشعر بالدفء وأتحيل أنني متكئةٌ جانبها وهي تُقشّر من أجلي البطاطا الحلوة، وتمسح على شعري وأنا أتناولها، ثم تسألني إن كنتُ قد أنهيتُ وظائفني المنزلية وإن كان أحد ما قد أساء لي في المدرسة .

إن كنتُ قد لعبتُ جيداً، وإن كان أصدقائي قد أحبوا الوجبات الخفيفة التي قد قاسمهم إياها، ثم تبتسم مطمئنةً على مسار يومي وهي تمسك بين يديها سنارتين وكرة صوف لتحيك خفاً صوفياً وقفازات من أجلي .

أدخل إلى المطبخ وأتحيل أنني أشرب كوباً من الشاي معها بإحدى الكؤوس النظيفة اللامعة والتي ينساب داخلها السكر غير المتكثل، أشعر بسخونة الكأس بين يدي بينما يتجمع بخار الماء على حوافها، وأسمعها تفرغ الملعقة بالكأس مرتين، ثم توجه إلى تلة الغسيل المكومة لتبدأ بكنزتي الفضية ذات البقعة الأزلية، فتسكب عليها المزيد من مسحوق الغسيل وتنزع عنها تلك البقعة اللعينة المخرجة إنها تعلم كيف يُغسل القلب جيداً .

كنتُ أود أن أُحبسَ في بيت جارتني إلى للأبد، لكن الوقت كان يسرقني دائماً ويبدأ العد التنازلي لعودتها هي وزوجها إلى هنا فأسرع بالتسلل عبر الجدار الفاصل بين السطحين ثم أقفز على الدرج عائداً إلى منزلي، لأصطدم بكرسي والدي المتحرك الذي يرتخي عليه برقبته المائلة قليلاً رقبته المكشوفة التي تتحني باستسلام وكأنها على استعداد لتلقي أي ضربة متوقعة .

من الصعب على طفلٍ صغير أن يكون والده عاجزًا في الوقت الذي يتحدث فيه كل طفل على والده وكأنه الرجل الحارق الذي قد ينقذ الكوكب بحركة واحدة.

كم كان من الصعب أن أرى فمه المتهدل الذي سحبه الحزن نحو الأسفل ليسحب قلبي معه، وخيال ابتسامة في عينيه الغائرتين عند سؤالي عما كنت أفعله طيلة هذا الوقت على سطح المنزل، فأجيبه أنني كنت أطعم الدجاجات وأنظف قفصها.

في الطفولة تكون أسئلة الآباء فضولية لتطّقس أحوال أبنائهم لكن في مرحلة ما تصبح مثيرة للأسى وكأنها محاولة أخيرة ليقنوا متابعين لأخبارهم فقط ليشعروا أنهم ما زالوا جزءًا من حياة أبنائهم الذين كانوا يومًا ما جزءًا منهم...
إنني أعيش في هذا المنزل الخرب وحيدًا مع والدي ودجاجاتي منذ أن هجرتنا والدتي بعد الحادث الذي قد أودى بساقي والدي منذ وقت طويل ولذلك لا أذكر الكثير عنها، وعندما كنت أحاول استحضار الذكريات كان والدي يجعل الأمر ضبابيًا أكثر في ذهني، ولذلك كانت مجرد كيان أشك بوجوده أكثر مما أتيقن.

وربما هذا ما قد زاد الفضول لديّ، ففكرت أنه يمكنني اكتشاف والدتي على طريقي الخاصة.

فكرت بذلك للمرة الأولى عندما طلب منا المعلم رسم ما نرغب أن نصبح عليه عندما نكبر.

في البداية وددت أن أرسم قبعة وسلسلة، لأنني رغبت في أن أصبح شرطياً يمتلك كل الوسائل الممكنة لإلقاء القبض على أمي، كي أحبسها في المنزل لتحبني أنا وأبي.

لكنني وبقطة غير متوقعة شعرت أنها قد تهرب مرة أخرى، لذلك كان عليّ أن أفكر بطريقة لا أحتاج فيها لأن أقيدها بالسلاسل.

عندما أتى دوري ليرى الجميع رسمتي كإجابة على سؤال المعلم، وجد الجميع دفترتي فارغاً فأخبرتهم ببساطة أنني لم أقرر بعد، فتجاوزني معلمي بامتعاض، في حين أنه طلب من الطلاب التصفيق عندما رأى كمنجعة تزين دفتر زميلتي التي أرادت أن تصبح عازفة يوماً ما .

ابتسمت حينها ابتسامة نصر فقد كنت أدرك بمنتهى الدقة ما الذي سيؤول إليه حالي عندما أكبر وأن ذلك الفراغ الذي تركته في دفترتي سيترك لي مساحة واسعة لأتحرك بها كما أشاء دون أن يلحظني أحد، ولم أكرث لمحاولة المعلم في تحقير شأني لأنني لم أمنحه إجابة ترضيه كإجابة زميلتي التي تعلم أنا وهو وهي أنها لن تصبح عازفة .
فنحن غالباً نكون مالا نخبر به الآخرين أبداً . . .

في حصة العلوم تعلمت شيئاً آخر أكثر فائدة، فقد أخبرتنا مدرسة العلوم أن البشر يجربون العقاقير والأدوية بل ومستحضرات التجميل على الحيوانات قبل اعتمادها على البشر وقيسون مدى تأثيرها عند إصابتها بالجراثيم أو الفيروسات أو عند تعرضها للصعقات الكهربائية .

وعندما سألتها عن مصير هذه الحيوانات التي تخضع لهذه التجارب في النهاية، فأخبرتني أنها تتعرض غالباً للقتل الرحيم، ثم سئمت من أسألني الكثيرة عنها.... إن كانت تحب أو تكره أو تخاف أو تشعر بالاطمئنان .

ولأنه يصعب على المدرسة أن تعلمنا كل شيء فقد كان من البديهي أن أحاول التعلم لوحدي، فبدأت مع دجاجاتي وامتلكت منذ ذلك الوقت سببين وجيهين أقضي من أجلهما المزيد من الوقت على سطح المنزل .

بدأت أتأخر في إطعام الدجاجات أحياناً وعندما أرمي لها الحب أخيراً كانت تتجه نحوي بسرعة كبيرة، لكنني لم أستطع تحديد هل الحب أم الحب هو سبب هذا الاندفاع . . . هل هو الجوع أم اللهفة !

غيرت لها نوع الطعام وتركها يوماً كاملاً بدونها، حبستها لفترة أطول في أقفاصها، فصلتها عن بعضها البعض لوقت قصير ثم أعدتها من جديد . . .

كان من الصعب التمييز بين الرغبات الجسدية والنفسية لهذه الطيور، وعلى الرغم أن تجربتي لم تثمر عليّ بالكثير إلا أنها لفّنتني لنقطة شديدة الأهمية.

من يمتلك موارد احتياجاتك، يمتلكك.

ومن يعلم نقطة ضعفك يمكنه ببساطة أن يتخلص منك سواء بالقتل الرحيم أو غير الرحيم.

وبطريقة ما بدأت أفكر أن الإنسان الذي يقدم لك كل ما تحتاجه وترغب به، قد لا يقدمه لأنه شخص نبيل وكريم، بل قد يقدمه لأن ذلك يجعله متحكم بزمام أمورك... لأنه يشعره بقوته فحسب.

إن ذلك بدوره قادني إلى تجربة أخرى صممت من خلالها على العمل في إيصال الخبز للمنازل لشهر كامل لأوفر ثمن كمنجة بلاستيكية تصدر صوتاً شبه موسيقي، وقدمتها لزميلتي تلك التي سلّطت عليها الأضواء بعد أن انظفأت عني في يوم السؤال عن الرغبات.

طالما لديها رغبة في أن تكون عازفة يمكنني أن أقدم لها وهماً يشعرها باقترابها من ذلك، شيئاً يشبه التصفيق الذي حازت عليه ذلك اليوم.

هل الأمر كان كافٍ؟

بالطبع لا....

جرب أن تقدم شيئاً مادياً مؤثراً بالنسبة لشخص ما، وسيكون ممثلاً لك لفترة لا بأس بها إلى أن يعتاد على وجود ذلك الأمر المادي في حياته، وبالطبع ستختلف فترة الامتنان من شخص لآخر وفقاً لمدى احتياجاته ورغباته إلى أن يتلاشى هذا الشعور تماماً، لكن...

ماذا لو كان الأمر الذي تقدمه له أعمق!

ليس أكثر عمقاً فحسب بل وبجرعات مدروسة أيضاً والأهم من ذلك كله ألا يكون مقدماً له من مصدر آخر بذات الجودة والتفاني .

إنه من الذكاء أن تكشف الرغبات، لكن العبقرية تكمن في أن تجعل الآخر يعتقد أنها قد تتحقق من خلالك .
هنالك فرق كبير بين أن أقدم لتلك الفتاة الكمنجة فقط وبين أن أقدم لها إيماني ودعمي واستماعي بعزفها على الأوتار البلاستيكية الرخيصة .

إن الفرق شاسع بين الليرات القليلة التي دفعتها ثمنًا للكمنجة وبين الساعات التي قضيتها في إقناع الفتاة أنها قادرة يوماً على الانحناء على خشبة مسرح أمام حشد من الجماهير .

طالما أنت قادر على التحكم بخيال شخص ما فأنت قادر على التحكم به

إن التملك يكمن بتلك الصورة الذهنية التي ترسمها في عقل من أمامك والتي تجعله فيها يلامس خيال رغباته، في حين أنك أنت من يمسك حقيقته بقوة .

سرعان ما نقلت هذه الفتاة نفسها إلى مقعدي الذي كنت أجلس فيه وحيداً، باتت تشاطرنني وجباتها وتنتظرني بقلق إن تأخرتُ عن الحصة، وتأتتني إلى منزلي لتعطيني الدروس التي ضاعت علي .

بعد فترة من ذلك العطاء كله فكرت ماذا لو توقفتُ عن الإصغاء والتشجيع والإيمان والدعم وتركت لها اللعبة الموسيقية فحسب .

وبذات الطريقة التصاعدية التي قدمت بها ما ترغب به، قمت بسحبه من بين يديها تنازلياً إلى حد الاختفاء .
بقيت تملك الآلة، لكنها فقدت الأذن المصغية واليد المصفقة والإطراء، بقيت تملكها إلى اللحظة التي فقدت فيها الأمل بعودة ما ظنت أنها تمتلكه فأعادتها لي ذات يوم حيث وجدتها بأوتار مقطوعة في دُرج مقعدنا الذي غادرته .

ما من شيء قد يقطع أوتار الآلات الموسيقية أو القلب أكثر من مشاعر الغيظ والخذلان، وإنني أكذب إن أقريت بعدم اكتراثي حينها بالأم تلك الفتاة، لكن كان من الصعب أن أكتسب انطباعاتي عن التجارب الشعورية بدون أن أفحص ردود الأفعال، بالإضافة لأنه كان لدي شعور طاغ بالرضا فقد حققت لها أمنية حتى ولو لفترة وجيزة...

لم أشغل نفسي بها بعد ذلك لأن ذهني كان مشغولاً بشيء آخر حينها، مشغولاً ببيت جارتني الذي كان أحد البيوت التي زودتها بالخبز في فترة جمعي المال لأحقق حلم العازفة الصغيرة، لا بد أن عمل الخير هذا أتى أكله بوقت قصير غير متوقع، فقد ألغى جزءاً كبيراً من المسافة وجعلني أقرب من ذلك المنزل الذي حلمت أن أقطنه... وأن أشبهه.

كانت تملكني سعادة عارمة عندما أمسك اليد الحديدية لباب بيتها وأطرقها عدة مرات ثم أرفع الخبز بيدي الصغيرتين نحو الأعلى ليصبح على مقربة من يديها، ثم أسألهما إن كانت تحتاج شيئاً آخر... غالباً ما كانت تضع في يدي بضعة ليرات وتبتسم لي قائلة "شكراً صغيري وسام"، وصغيرها هذا كان يتمنى في سرّه أن تطلب أي شيء آخر، فإن ذلك يعني أن أتمكن من رؤيتها مرة أخرى خلال يوم واحد وقد كان ذلك يتحقق في بعض الأحيان عندما تطلب مني أن أحضر لها مسحوق تنظيف أو قليلاً من الطحين، ومع الوقت أصبحت تحمل من يدي الخبز وتعطيني مكانه كوز ذرة مسلوقة ساخناً أو كرة قدم صغيرة، والأروع من ذلك كانت تمسح على رأسي.

والحق يقال إن قامتي الضئيلة وقفزاتي الرشيقة ذلك الحين ساعدتني في الاقتراب منها أكثر، فقد استعانت بي ذات مرة لأقفز إلى سقيفة منزلها كي أحضر لها بضعة أشياء احتاجتها على نحو غير متوقع، وقد كانت المرة الأولى التي أدخل فيها منزلها على مرأى من عينيها ولم تكن الأخيرة.

إن الظروف قد تختصر لك المسافات لكن الأمر برمته يتوقف عليك، وعلى انتقاء اللحظة المناسبة التي تقدم فيها خدمات أكبر من مجرد وجودك المادي.

وقد أتت هذه اللحظة عندما طرقت الباب محملاً بحصتها من الخبز فتأخرتُ بفتح الباب على غير العادة، وكان صبري سيخونني لأتسلل إلى السطح كي أكتشف الأمر لكنني انتظرت ثوان إضافية وقرعت مرة إضافية ففتحت لي الباب بعينين محمرتين قليلاً تخفي حزنهما خلف ابتسامة، لامست يدي مندبيلها الندي وأنا أعطيتها الخبز، هذه المرة لم تتكلم معي، ولم تمسح على رأسي فقط شكرتني بكلمة واحدة وأعطتني ليراتي المعدنية، لم يعجبني الأمر أنني لم أحصل على حصة العواطف التي اعتدت الحصول عليها وبالطبع إن أفضل طريقة للحصول على ما تريده هو... تقديمه.

ذهبت إلى منزلي بسرعة وأحضرت القليل من المال ابتعت به لوحاً من الشوكولا ولففته بشريطة بيضاء وعدت لأقرع الباب من جديد رافعاً يدي هذه المرة بلوح الشوكولا الذي نظرت إليه ثم إليّ بابتسامة حقيقية هذه المرة. (لم أحتمل أن تكوني حزينة) ... هذه الكلمات التي أخبرتها بها كانت بمثابة عبارة افتح يا سمسم.

لا شيء يفتح قلب الإنسان لك أكثر من اهتمامك بحزنه.

فهمت حينها أن زوجها أجبرها على ترك عملها لأنه منزعج من شخص ما يعمل هناك، لكن لم أصغ للقصة بأكملها لأنني دوماً ما خشيت أن تؤثر بي القصص أنا الطفل الذي لا مناعة لديه تجاه القصص لأنها لم تكن تروى لي قبل النوم، هذا من جهة ومن جهة أخرى لو وددت أن أعرف شيئاً ما لعرفته على طريقي الخاصة.

لكنني كنت أقتن دور الجاهل جيداً... نظرت لعينها طويلاً مُظهراً تأثري بالكلمات التي أخبرتني بها دون أن أصغي لها...

إن الأمر ينجح دائماً...

يكفي أن أتحكم بغددي الدمية لتمنحاني البريق الحزين، وأن أقلب شفتي قليلاً وأن أميل رقبتني.

أن أشبه والدي...

إن أهم ما قد يقربك من شخص ما هو ألا تشكل بالنسبة له أي خطر مرتقب، عليك أن تدرك كيف توجه نظراتك وأن تتحكم بتقلصات وجهك ببساطة عليك أن تتقن فن البراءة.

مسحتُ دموعها ثم أمالت خدها على يدي المتوضعة على كنفها وأخبرتني أنها أصبحت بخير، وقفتُ على ساقها ووضعتُ يدها على خصرها بطريقة الدجاجة التي تحاول الطيران ثم صفقت صفقة واحدة وطلبت مني أن أخلع كنزتي.

لم أكن مستعداً أن تتحقق كل خيالاتي في ذلك اليوم، أنا وسام الطفل الضئيل الصامت الذي يتحدث بعينيه ويديه. أنا الطفل الذي بقيتُ متهمًا دوماً أنني زير نساء منذ سن العاشرة بسبب هذه القصة تحديداً فكانت تهمني الأولى وبالطبع لم تكن الأخيرة.

ولأنني على يقين أنني لستُ ما أخبر الآخرين به، كنت في كل مرة أستمع بذكراها.

أذكر شكل يديها الغارقتين بين فقاعات الصابون وهي تغسل كنزتي، هي التي تعلم جيداً أن ما من يدين في منزلي تعتنيان بي أو تحضران من أجلي حساء ساخناً أو تربتان على كنفِي.

أروع ما كنت أحبه فيها أنها لم تكن تسألني الأسئلة الاعتيادية التي يسألني إياها الآخرون عن مكان أُمي والتي يليها ضحكة ساخرة ولكماتٍ مني على وجوههم التي تبرز جهلي بمكانها.

لطالما شعرت أن هذا البيت الوحيد الذي أستطيع أن أكون فيه ابناً، كنت أتحيل أن أذهب إلى منزلي لأجر كرسي والدي إلى هنا، بل أتحيله قادراً على الوقوف على ساقيه ماداً ذراعيه الطويلتين ليعانقني أنا وهي.

كنت أحب ذقنها عندما تجلس بالقرب مني كي تساعدني في الكتابة، أنا الذي كنت دوماً ما أكتب الحروف مائلة وأتخطى الخط الأحمر.

وأصابعها التي تُمسّد فقاعات جلد الكتب الجديدة التي غلفتها للتو، وقراتها على جدار الغرفة المشترك بين منزلي وبيتها التي تخبرني من خلالها أن فطوري قد أصبح جاهزاً لألثمهم قبل ذهابي للمدرسة.

أستشعر تلك الحرقلة اللذيذة في ركبتي الدامية وهي تعقمها لي بالمطهرات، فهمت منذ ذلك الحين أنه عندما يضع أحدهم لك لصاقة جروح، قد لا يضعها على جلدك الخارجي فحسب.

أشهرٌ مميزة جعلتني أعيد بناء مفهوم البيت في ذهني، لكن ككل الأشياء الرائعة التي من الحتم لها أن تنتهي بجرعة اهتمام متهورة وزائدة انتهت . . .

أذكر تفاصيل ذلك النهار جيداً كأنه يحدث الآن.

أسمع صوتها المكثوم عبر الجدار والذي اعتقدت أنه يناديني، وأرى اهتزاز الباب الحديدي أمام طرقاتي وأشم رائحة صمت مصطنع من خلف الباب . . .

أعود أدراجي لكن صوتها يعود ليدور في رأسي من جديد فيدفعني لأركض على سطح المنزل بينما تحقق أجنحة الدجاجات حولي، أركض دون حذر فيتمزق طرف بنطالي وأنا أتسلل على السور، أشعر ببرودة البلاط المغسول حديثاً تحت أقدامي وباندفاع الهواء الذي يجعل ستارة غرفة نومها تتحرك نحو الخارج باتجاهي.

لا أتجرأ على الدخول، بل أكتفي بما تعكسه المرأة وتوصله لعيني وأنا خارج الغرفة.

حيث تتحرك الشراشف ككرة ثلجية على السرير، كرة تشبه تلك الكرات التي تباع في محلات الهدايا، لكن ما من راقصة باليه داخلها بل راقصان يستبدلان صوت الموسيقى بهمسات لا أكاد أسمعها.

فهمت في تلك اللحظة أنني لم آتي في الوقت المناسب وأن صوتها الذي سمعته لم يكن نداءً لآتي إليها بل نداء للأرحل.

حرّكت ساقيّ الثقيلتين بسرعة فتعثرت بربطة عنق متروكة عند الباب، فوقعت على ظهري وشعرت بلمعة في عمودي الفقري سرعان ما تجاهلتها كي أقفز عائداً إلى منزلي.

وقفت حينها بصعوبة أمام دجاجاتي وقد تملكني شعور هائل بأن أتحكم بها فقررت ألا أطعمها، أما الدجاجات فبدأت بالاحتجاج وهي ترفرف راقصة، فبدأ يثور غضبي أكثر "لا مزيد من الرقصات هنا".

بقيت إحداهن في وجهي "ألم تكفّ من تجاربك الشعورية علينا! أليس لديك أحد حقيقي لتختبر المشاعر البشرية عليه! نحن هنا قوم من الدجاج فحسب ولن نستطيع الإفشاء لك بأي عاطفة إنسانية"

لقد كان الحوار مع هذه الدجاجة ناجحاً، فقد أكدت لي أن العواطف ليست كالعقاقير الطبية، وعليّ تجربتها مباشرة على البشر.

وبناء على ذلك، وبجرعة من تهذيبي السابق قابلت جارتني في اليوم التالي وأنا أضع يديّ في جيبي كشخص يخفي شيئاً ما، متسائلاً عن ماهية الشعور الذي أستطيع إخراجه من جعبي لاختباره متأماً أثناء ذلك السرير المرتب بدقة وكأنه لم يشهد أي عاصفة ثلجية البارحة.

لقد كان المطبخ يعجّ ببخار الخضراوات المطهوه التي أرسلتني لابتاعها، أما يداها فكانتا تحركان المرق الغني بالتوابل، وشفّتاها تبردان المعلقة قبل أن تسمح لي بتذوق محتواها.

ملأتُ صحناً من أجلي، وبعد أن أكدت لها أنها تتفوق على نفسها كل مرة تركتني في غرفة الجلوس التي تعتبر الغرفة الثانية والأخيرة في ذلك المنزل لألتهم طعامي بهدوء وهذه المرة أردت أن أشكرها على لذة الطعام بطريقتي الخاصة، فقمّت بأخذ جولة في الغرفتين وأحضرت كلاً من شريط الكاسيت، السوار الفضي، قطع الحلوى المخبأة في ركنها الأزلي خلف الخزّانة، وأخيراً أخرجت من جيبي ربطة العنق السوداء.

كنت أريد أن أخبرها أنه بإمكانني أن أكون في كل مكان من أجلها، أن أجد أغراضها الضائعة وأن أقيس لقفها تجاه الأشياء لأكرر لها ما تحبه بشكل لا نهائي.

كنت أريد أن تتأكد أنه بإمكانها الاعتماد علي حتى في دفن أشد أسرارها خصوصية.

شكرتها ذلك اليوم على طريقي، لكن ردة فعلها كان حادة في وجهي.

طردتني ذلك اليوم دون أن أكمل وجبتي حتى، وبالرغم من ذلك حاولت في اليوم التالي إصلاح ما أفسدته.

ارتديت كنزتي الرمادية النظيفة وهممت بالخروج من منزلي كي أراها لكن حشداً من الجماهير كان يسد مدخل الزقاق، وقد ملأ صوت سيارات الإسعاف المكان، وكان هنالك عدداً من عناصر الشرطة يحيطون بباب منزلها.

كنت أحاول الاندساس بين الحشود فيصطدم رأسي بأرجل من هم حولي، وقد كان البعض يدفعونني للعودة إلى الخلف فأحاول إيجاد طريق جديد للوصول.

علمت أن شيئاً ما قد حصل لها وسمعت بعض الرجال يقولون أنها انتحرت، في حين تهايمست بعض النسوة أن زوجها هو الذي رتب موتها ليبدو انتحاراً.

ماتت المرأة الوحيدة التي أثرت بي بعد رحيل والدتي...

لقد كانت النقيض منها إلا أنها تشابهت معها بالرحيل وهذا ما لم أستطع غفرانه لأي امرأة... ولذلك كنت دوماً من يرحل أولاً.

لله اللحن التاسع عشر لله

المشهد دومًا جزءً من النظرة

بحر

عندما يسألك أحدهم عن المواقف التي أثرت بك في حياتك صدقني لن تكون الإجابة سهلة وستحтар كثيرًا . . .
ذلك لأننا كبشر نحفظ بالمشاعر التي نتجت عن الموقف أكثر من قدرتنا على تذكر الموقف ذاته.

لكن أشد الناس بؤسًا هم أولئك الذين يستطيعون تذكر المواقف بمذاخيرها وكل تفاصيلها، وذلك لسبب واحد
هو أن الغالبية العظمى من هؤلاء سيحتفظون بالحصة الكبرى من ذكرياتهم للمواقف البائسة والمخيفة.

بعضكم قد يتهمونهم بأنهم أشخاص على درجة عالية من السلبية، لكنني لا أتفق معكم بذلك، فإن تذكر التجارب
القاسية ما هو إلا وسيلة لتجنبها في المستقبل . . . وسيلة للنجاة على نحو غير متوقع، لكن الكارثة الكبرى تكمن
في فقدانهم السيطرة عليها فيبقوا عالقين داخلها إلى الأبد .

لكن على البشر أن يكتسبوا القدرة لاستحضار الذكريات السعيدة بمذاخيرها أيضًا دون أن يقعوا بالطبع في فخ
الحسرة.

لقد كانت المرة الأولى التي وُجّه لي هذا السؤال خلال مراهقتي من قبل فتاة تدعى ورد كانت تقضي العطلة
الصيفية في الفندق الخاص بنا .

وبعد عدة دقائق من سؤالها استحضر ذهني ذكرى لم تكن على درجة عالية من الأهمية لكنها كانت تزرع داخلي
شعورًا بالانتعاش والأمل، بل وكنت أستحضرها في كل مرة أستنشق روائح عطرية مشابهة.

لقد كان عقلي يذهب إلى بيت صديقي وائل حيث كنا نسكب الماء في إحدى الممرات الضيقة في حديقة دارهم بحيث يرتفع منسوب المياه ليغمر أقدامنا .

وعندما ترانا والدته على ذلك الحال تقوم بنثر المساحيق العطرية بحيث تتصاعد الفقاعات من حولنا وعوضاً على أن تقوم بتنظيف الأرضية تقوم بالترحلق عليها بحيث ندفع بعضنا على طول الممر فتتأثر الرغبة وتحول الفقاعات من شكلها الكروي اللامع إلى نقطة متلاشية في الهواء خلال ثانية واحدة .

وكانت تبقى تلك الرائحة عالقة بجلدنا لفترة طويلة بحيث كان يمكن لوائل أن يجدني خلال ثوانٍ عندما أختبئ منه أعلى شجرة المشمش الهندي فقط من خلال رائحتي، وعوضاً على أن أنزل للأسفل كان هو يصعد للأعلى وبدأ بقطف الثمار الشهية .

في كل مرة أشم فيها رائحة مسحوق تنظيف مشابه كان ذهني يعود إلى منزل وائل، فتملاً نكهة المشمش الهندي الحلو فمي وأكاد أشعر بذورها الكثيرة تلامس لساني .

ولأن الأشخاص في معظم الأحيان عندما يسألونك سؤالاً ما، فلا يهمهم معرفة الإجابة بقدر ما يهمهم أن تتاح لهم الفرصة ليجيبوا على ذات السؤال، أخبرتي ورد في ذلك الحين أن أكثر المواقف التي أثرت بها هي حادثة اغتصابها عندما كانت طفلة ولا يمكن أن أنسى في حياتي بريق عينيها الدامعتين عندما سردت لي القصة، ولم تنتهِ الأحاديث بانقضاء عطلتها بل بقيت على تواصل معها عبر التطبيقات الإلكترونية لمدة لا تقل عن عام .

لقد كانت تكبرني بضع سنوات ولا يمكنني القول أنني وقعت في غرامها لكنها كانت السبب في إدراكي أحاسيس لم أكن أعياها قبل وجودها، وأفكار لم أعلم أنها موجودة داخل عقلي . وبالرغم من ذلك اختفت فجأة في أحد الأيام بعد أن أخبرتي عن شعورها بالمسؤولية حول موت زوجها غرقاً في شهر عسلهما .

أخبرتني بتفاصيل كثيرة بحيث شعرت أننا لم نتحدث في غرفة إلكترونية بقدر ما كانت غرفة للاعترافات .

ولم أعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين، فلا يمكن للأمر أن تأخذ ذات المنحى دائماً فبعض الأشياء تنتهي في نهاية المطاف دون رغبة منا بانتهائها . . . لكنها تنتهي .

لفترة طويلة بقيت أخفي ورد مثل سر لا يجب لأحد أن يطلع عليه حتى قبل أن تخبرني عما قد قامت به والذي شككت بمدى صحته لفترة طويلة .

إن النتيجة دوماً متعلقة بالسبب وما يحصل حولنا يقودنا بطريق ما لممارسة حياتنا بالصورة التي هي عليها اليوم . ستظنون أنني بهذه الطريقة أقوم بتبرير كل أمر شرير لكنني لا أفعل ذلك إنني أقوم بالتفسير فحسب، فحتمًا لو لم تغتصب براءة ورد لتغير شيء في حياتها، أه ستقولون لي لماذا لم يقتل كل شخص تعرض للاغتصاب شخصًا آخر يحبه؟

لا إجابة لدي عن هذا السؤال، لكنني متأكد أن تغيير تفصيل صغير في حياة المرء كفيلاً بأن يقلبها رأسًا على عقب، إننا تقع تحت تأثير دوامة (لو) التي حدثني عنها نورسين في إحدى المرات .

جميعكم تفكرون بذلك لا محالة، فمن خلال رحلتي معكم أظنني بت أعرف ذلك التفصيل الصغير الخاص بكل منكم، لكنني لن أتجرأ على الإفصاح عنه ففي ذلك تخطٍ واضح للخصوصية، وإن المرء قد لا يتسامح كثيرًا مع معرفة شخص غريب بما قد يرغب به تحديدًا وسيواجه ذلك بالنفي على أقل تقدير .

وبتعمق بالتفكير أظن أن تغيير ذلك التفصيل الصغير لن يجعل حياتنا أفضل بالضرورة، لكننا دوماً سنتغذى على هذا الوهم .

إن للوهم ارتباط وثيق بكل من ورد ووائل .

لكن قبل أن أحدثكم عن وائل إنني أرغب أن أعود لورد لأخبركم لم قد أخفيتا لفترة طويلة .

إن ذلك مرتبط بالوهم أيضًا، لكنه وهم من نوع مختلف .

على الرغم من يقيني أنها لم تكن للحظة حببية لي رغم معرفتي إياها قبل أن تتزوج بفترة إلا أنه كان هنالك بيننا رابط سحري، فقد كانت من أولئك الأشخاص الذين باستطاعتي أن أكون أمامهم على سجيتي تمامًا، ويمكن أن تصل إلى أماكن داخلي لم يتمكن أحد من قبل الوصول إليها بسهولة.

لا يمكن للرجل الارتباط بامرأة تكبره سنًا، إن المجتمع لا يغفر أمرًا مماثلًا وسيعامله بسخرية مجتة.

إن هذا هو الوهم الجمعي الذي نخضع له مدعنين دون أن يكون خلفه سبب حقيقي، وربما ذلك السبب هو الذي جعلني أشعر أن رابطتي بها أكثر قوة.

وعلى الرغم من زواج العديد من الشبان بنساء يكبروهن إلا أن علاقاتهم لم تكن على درجة عالية من الراحة، فالرجل ما زال خاضعًا لتلك الفكرة التي تلقنها عبر عشرات من السنوات.

إنها تستيقظ في عقله فجأة دون سابق إنذار، لكنه لا يدري أنها كانت هناك منذ الأزل ولذلك يشعر أنه وقع ضحية أمر لم يستعد له جيدًا منذ البداية.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أشعر فيها بانجذاب نحو امرأة تكبرني سنًا، فبعد سنوات وخلال دراستي الجامعية حضرت صفوفًا خاصة بالنحت وقد لفتني المعلمة ليس لأنها على درجة عالية من الجاذبية فحسب بل لأنني كنت أشعر أنها كانت قادرة على خلق شيء من الحجر حرقًا.

إن تلك الموهبة قد يتمتع بها كلا الجنسين لكنني على يقين أن النساء يتميزن بها عندما يتعلق ذلك بالعاطفة.

لم أتجرأ حتى بعد إنهائي فصلها الدراسي أن أبدي إعجابي بها، كنت أتابعها من بعيد وأتفقد صفحتها الإلكترونية، وما زادني افتتانًا بها أنها قادرة على إيجاد الجمال في أكثر الأماكن بؤسًا.

بعض البشر يتمتعون بنظرة استثنائية قادرة على تحويل كل ما حولهم إلى جمال خالص، فالمشهد دومًا جزء من النظرة.

وإن ذلك بقدر ما قد يبدو لطيفاً بقدر ما يمكن له أن يكون خطراً على الشخص نفسه أكثر من أي أحد آخر .

كم من مرة قد وقعتَ في الغرام لأنك كنت ترى الأشخاص وفقاً لنظرتك الخاصة لا وفقاً لحقيقتهم ؟

بكل الأحوال لم أُنَجِّراً على محاولة التقرب منها لإيماني أن النساء يقعن أيضاً ضحية للوهم الجمعي .

أفكر أحياناً ما هي الطريقة التي يصل فيها الإنسان لاتخاذ القرار فيما يخص شريك حياته .

ما هي اللحظة التي يحدد فيها أنه يميل إلى السمرات مثلاً، أو كيف تكتشف الأتشي أنها قد تشعر بارتياح أكبر فيما لو تزوجت إنساناً يفوقها سنّاً .

السنا متأثرين منذ الأزل بالرأي الجماعي، ففي سرنا نرغب بأن نخضع للقوانين العامة مهما أبدنا تمردنا على ذلك .

إن هذا الأمر بطريقة غريبة يحولنا إلى أشخاص يختارون شركاءهم وفق (كاتالوج) خاص قبل لقاءهم، إننا نفكر بطول سيقانهم وعرض أكافهم وأوزانهم ولون عيونهم وبشرتهم وأديانهم وطوائفهم وأعمارهم قبل أن نلتقيهم حتى .

معتقدين أن ذلك يحصر خياراتنا بجانة أضيق ويجعلها أكثر دقة، ضارين بعرض الحائط ذلك التنوع الجميل الذي كان من الممكن أن نناله، ومتناسين أننا نرغب بما يرغب به جميع من حولنا فقط لأننا واقعون تحت سطوتهم .

إن لدينا معايير صارمة تجاه من نحب، وندفع بطريقة ما تجاه أولئك الذين يشبهوننا بحيث يصبح الأمر أشبه بارتباط المرء بذاته .

بل الأدهى أننا نكذب حول ذلك بتمويه خلف غطاء مجتثنا عن شخص لا يختلف عنا في جوهر الأمور .

لكن ما هو الجوهر حقاً المعتقدات والتوجهات والأفكار المسبقة الصنع .

أرايتم إننا نقع بذات المصيدة مرة أخرى . . . أليس هذا أمر مضحك !

أتعلمون . . . أشعر أحياناً أن يوفال نوح في كتابه العاقل كان محقاً جداً عندما شبه الأفكار بالفيروسات والجراثيم .

فبإمكانها أن تصيبك وتكاثر داخلك كمعيل لطيف ساذج، بل والأسوأ من ذلك قد تعطل خلاياك المناعية مسيرة إياك للدفاع عنها دون أن تشعر حتى تدمرك تمامًا .

لكن لتكتمل السخرية فإن عدد الخلايا الجرثومية قد يفوق عدد خلاياك الحية، بل إن أجسادنا ملتحة بهذه الكائنات المجهرية كجزء لا يتجزأ منا .

والأمر ينطبق على الفيروسات الفكرية أيضاً، ستصبح جزءاً منا شيئاً أم أبينا .

مع الوقت ستكتشف أنك كنت تقضي حياتك وأنت تتبع قوانين لا تعلم من الذي قد سنّها لكن ليس بإمكانك مخالفتها أبداً، بل ستحاول الدفاع عنها بكل ما أوتيت من قوة وكلّك يقين أنها تتوافق مع المنطق والحس السليم . عندما كنت في عمر أصغر عانيتُ من التمر لفترة طويلة في المدرسة وقد كان ذلك لأسباب عديدة أحدها أنني كنت أفضل حصة الفنون على حصة الرياضة وقد كان ذلك أمر لا يمكن للمجتمع غفرانه .

لا يمكنك كصبي محترم أن تغفو في سرير وردي ذي شرشف مزهرة مثلاً، أو أن تلعب بألعاب خاصة بالفتيات أو أن تبدي اهتماماً خاصاً بالألوان والورود وعجينة السيراميك ورقص الباليه .

وإن صودفَ وقمت بذلك ستُخفي متعتك بكل تلك التفاصيل الصغيرة كمن يخفي جريمة يخشى أن يكتشفها أحد ما، وقد يدفعك تعلقك المبالغ بها لأن تدمرها بعنف مستهجن أمام الغرباء وقد تهاجم أولئك الذين امتلكوا الجرأة على إبداء اهتمامهم بها .

سيزعجك كثيراً أن يملك أولئك القوة التي لم تمتلكها أنت في ممارسة شيء لم تستطع حتى أن تفكر به أمام شخص ما .

إن كرهك لشيء ما ليس بالضرورة أن يكون السبب الوحيد لمهاجمتك إياه، بل قد يكون حبك المبالغ به سبباً في ذلك . . . إلا أن الحالة الثانية لا يمكن إلا أن تنطوي على كم كبير من الخجل والخوف، ولذلك لا يمكنك إلا الإذعان للسلطة التي تفوق قدراتك لشعورك الطاغية بأنها الطريقة الوحيدة التي تمنحك الشعور بالقوة .

إن ذلك قد يفسر لك سبب قيامك بالكثير من الأمور دون أن تسأل أو أن تحتج، فالرغبة بامتلاك القوة الوهمية ستغلب في معظم الأحيان على الرغبة بالحرية.

لكن القربان الوحيد للفوز بالقوة الوهمية والحق المطلق والصواب الأكيد هو أن تحاصر أولئك الذين تجرأوا القيام بنقيض ذلك . . . أن تهشمهم نفسياً وأن تسقط القيم الأخلاقية عنهم قيمةً تلو الأخرى وأن تعذبهم حتى يعودوا لطريقك فقط لأنك لم تتمكن من أن تسلك طريقهم.

وبذلك يمكنكم إسقاط ذلك على أي فكرة تجول في خاطركم ربما تكون أكثر عمقاً وخطورة من كل ما ذكرته لكنني ركزت على تلك النقطة التي عشتها طيلة حياتي.

نشأت في عائلة نسائية، كنت الشاب الوحيد بين عشر نساء، أمي وخالتي وشقيقتي الثمانية.

لقد كان الغرباء يرون أن خصل شعري التي تغطي حاجبي أطول من المعتاد مقارنة بالصبية الآخرين فكانوا يرون أن ذلك يسبغني بصفات لا تليق بي.

وكانوا يشعرون باستهجان غريب من أصابعي التي لم تتلون يوماً بالشحم والغبار والطين إنما بالطحين والألوان البراقة وعجينة السكر، ولذلك فقد قرروا أنني سأكون أكثر ميوعة واتكالية وأقل حزمًا.

كانت النسوة يمسحن على شعري ويبدن رأيهن بقصته معلقات: (الآن يصبح أكثر ذكورة بشعر أقصر!)

فتجيبهم خالتي: (المهم أن يكون دوماً أكثر إنسانية) ثم تقوم بسحبي من يدي بعيداً عن نظراتهن الفضولية.

في المدرسة كان الأمر يتكرر . . .

(ألست رجلاً؟) إنه سؤال مضحك قد يطرحه عليك صبي لا يتجاوز طوله متراً واحداً.

وعلى الرغم من طول قامتي اليوم إلا أنني ذلك الحين كنت ضئيلاً بحيث كان وائل يظهر في كل مرة من العدم كي يدافع عني، ولم يكن ذلك الدفاع جسدياً فحسب بل كان يدافع عن خياراتي الشخصية.

إن تلك الصداقات التي تنشأ منذ الطفولة نشعر تجاهها بالأمان لأنها تلامس براءتنا على نحو خاص، لذلك

سيغمرك الاطمئنان بوجود أولئك الذين كنت في حضرتهم طفلاً يوماً ما .

أذكر في إحدى المرات أن وائل عاد بقميص ممزق وجبهة مجروحة فقط لأن أحد الصبية قام بتمزيق لوحة قد رسمتها، وكانت المعلمة قد علقها على لوحة الشرف .

لقد استمرت علاقتي بوائل بذات القوة منذ الطفولة وكنا قد تشاركنا في العديد من المعارض .

كنت أنا أقدم موهبتي بينما يقدم هو دعمه وتأييده . . . كان يوفر كل المواد الأولية وصالات العرض ويغطي إعلانات المعارض الفنية وقد كان ريعها يعود دائماً للأطفال .

بعد مرور عدة أشهر على الحرب بدأت أشعر بتغيرات لم يكن من الممكن أن يلحظها أحد غيري .

لا بد أنكم جميعاً مررتُم بأمر مماثل ولو لمرة على الأقل في حياتكم .

إنها اللحظة التي تشعر فيها أن صديقك ما زال بقربك لكنه بعيد . . بعيد جداً، لقد بدأ بإخفاء أمور لم يعتد أن يخفيها عنك . . . ليس هذا فحسب بل أصبحت تشعر أنه يعتمد إخفاءك عن أولئك الذين احتلوا عالمه الجديد وكأنه أصبح خجلاً من حقيقتك . . . وكأننا وجودك أصبح مصدر إحراج له .

إنه يسترك كعيب لا يستحق الظهور والأدهى من ذلك اعتقاده بأنك لا تشعر بكل تلك التغيرات محاولاً تمويه الأمر .

لكنك ستشعر بذلك في اللحظة التي يتوقف اسمه عن الاقتران باسمك، ووجوده عن الاقتران بوجودك .

الصور التي تجمعكما ستصبح أقل، مدة محادثاتكما ستغدو أقصر، أما الأحاديث فستكون أقل عمقاً .

انتقادات كثيرة لفكرك ولملابسك ولأسلوب حياتك وكأنه فجأة يكشفك للمرة الأولى، على الرغم من أنك على هذه الصورة منذ الأزل .

لقد كان يعزّ على قلبي كل ذلك لأنني في كل مرة كنت أرى فيه الطفل وائل الذي قد يمزق بزته المدرسية ليدافع عني صباحاً والذي ينزلق بكل براءته بين فقاعات الصابون معي مساءً .

لقد تحول من ذلك الطفل المدافع عني إلى الرجل الذي يتحين الفرصة لشن هجوم ضدي، وقد كان لقاءنا يبدأ بأن يدير اللوحات تجاه الحائط وينتهي بهدائه لي كي أتوقف عن تشخيص الوجوه والأجساد البشرية.

لقد تقبلت فكرة أنه قد توقف عن مشاركتي في المعارض لكن ما لم أستطع تقبله هو محاولته إجباري على أن أحذو حذوه ولم أعتقد للحظة أنه من الممكن أن يقوم بإيذائي فيما لو رفضت ذلك.

حصل الأمر في الليلة التي تسبق رأس السنة حيث كان قد خبأ أحد أصدقائي إحدى اللوحات الأثرية في منزلي وهو مدير المتحف الذي تعرض قبل أسبوع من تلك الليلة لإغارة بغية تخطيط محتوياته من قبل المتشددين، وقد كان من المفترض أن أقوم بتسليم اللوحة للجهات المختصة في تلك الليلة كي يتم حفظها في مكان آمن حيث قدت شاحنتي إلى المكان المتفق عليه بعد رسالة وصلت لجهازي المحمول.

كان الثلج قد شكل طبقة سميكة على الأرض ولذلك تمكنت من رؤية آثار عجلات لسيارة ما.

لا بد أنه وصل إذن، لكن أين اختفت سيارته بحق الآلهة!

قمت بتسليط الضوء من حولي عليّ أرى المكان الذي ركن فيه سيارته، وقد تتبععت علامات الدواليب على الثلج، وجدت في نهاية المطاف السيارة وقد كان مدير المتحف مُقيداً داخلها ومكتم الفم.

اقتربت من النافذة بحيث تشكلت طبقة كثيفة من بخار الماء على زجاجها وحاولت فتح الباب لكنني أثناء ذلك تلقيت ضربة من الخلف، لم تكن تلك الضربة شديدة القوة لكنها أفقدتني توازني وصدمتني بسيارة مدير المتحف التي بدأت بإطلاق صوت الإنذار وأضاءت المكان من حولنا.

كان ذلك المشهد الأخير الذي استخدمت فيه كلتا عيني وقد ظهر أمامي شخص ملثم ولم يكن بالإمكان أن أخطئه أبداً، إن تلك العينان مألوفتان بحيث يمكنني أن أميزهما من بين مئات العيون، على الرغم من أنني لم ألحهما سوى لثوانٍ معدودة فقد ضربني مرة ثانية بعقب بندقيته بحيث أصاب عيني.

تلويت من الألم وبالرغم من ذلك استجمعت قوتي ودفعته فوق أرضاً وقد سقط لثامه وكان بإمكانني تمييز وجهه بعيني غير المصابة.

كان مستلقياً على الأرض الثلجية فيما كانت قطرات الدم النازفة من عيني تتناثر بالقرب منه. ابتعدت عنه وبذلت كل طاقتي الممكنة لأحمي اللوحة الموجودة في شاحنتي من أشخاص ربما يتربصون بها فأغلقتها بشكل محكم ثم عدت لأحرر مدير المتحف من السيارة.

فككت قيده ونزعت اللصاقة عن فمه، فأخبرني أنهم كانوا على علم بأنه كان سيسرد اللوحة مني الليلة ولذلك تبعوه إلى هذا المكان ليتمكنوا من سرقتها وقد تمكن هو من التخلص من أحدهما بعد أن صدمه بسيارته لكن الآخر بقي طليقاً بحيث استطاع تقييده وتكميمه.

فأخبرته أنه لم يكن بنيتهم سرقة اللوحة إنما تحطيمها تماماً، وأكدت له أنها ما زالت في شاحنتي وعلى خير ما يرام.

سألني عن مدى سوء إصابتي، لم أتمكن من إجابته فقد علمت حينها أنني فقدت عيني إلى الأبد.

عندما عدت إلى المكان الذي تركت فيه ذلك الملمم أدركت أنني لم أفقد عيني وحدها بل فقدت وائل أيضاً.

لقد ذهب بعيداً جداً بحيث لم يعد بإمكانني الوصول إليه أبداً.

لله الحن العشرون لله

رحلة الحج إلى القلب المقدس

زين

أفرغ فنجانك والتقط معطفك

يحدث أن تستيقظ صباحًا وتنظر في مرآتك، فتلاحظ الكثير من الأمور وأنت تنظف أسنانك.

ستوجه العديد من التعليمات لذاتك . . .

عليّ البدء باتباع نظام غذائي صحي.

لا بدّ أن أخفي الشعرات البيضاء الجديدة.

من الممكن أن أزور طبيب التجميل ليعيد إليّ شيئاً سبق وقد امتلكنه دون أن أستطيع تحديده.

هذا الشحوب سينتهي بمقابلة صديق تأخرت عن لقائه.

لا بد من الذهاب للصلاة اليوم، هنالك باباً مغلقاً سبق أن عبرته فقط حينما كنت أصلي.

سأقضي عطلة العيد في منزل والدي، إن يداي فارغتان أكثر من اللازم.

قد أعدُّ طبقاً لذيذاً اليوم وأدعوا الجيران لمشاركتي، إنني جائع لشيء لا يمكن تذوقه.

عليّ الذهاب في رحلة بعيدة لأجد ذاتي . . .

وبذلك وجدت نفسي داخل إحدى القاعات الخاصة بالمعزل الذي قصده وأنا أستمع لصوت غليان الماء

داخل إبريق الشاي وقد حملة المعلم ليملاً إحدى الفناجين الخزفية ترحيباً بقدومي.

كان الرذاذ الحار يتطاير على حواف الفنجان، (توقف، لقد امتلأ) قلت له .

لكن المعلم لم يتوقف عن صب الشاي حتى عند امتلاء الفنجان، فتدفق السائل ليملاً الصينية، وبعد أن سالت القطرة الأخيرة من الإبريق نظر المعلم إليّ قائلاً: أنتِ كهذا الفنجان تماماً، ممتلئة بآرائك وأفكارك ومشاعرك الخاصة، فكيف لك أن تكتسبي المزيد أفرغي فنجانك .

كيف لي أن أفرغ فنجانني ؟ تساءلت في تلك اللحظة . . . ومنذ ذلك الحين بدأت بتكوين نظريتي عن (الإنسان الفنجان) .

أصبحت أتخيل كل من أراهم عبارة عن فناجين، وعلى الرغم من اختلاف ألوانهم وأحجامهم وأشكالهم، إلا أنهم دوماً ما يتعشرون بما يحتونونه . يفضلون البقاء في مكانهم كي لا يخسروا قطرة واحدة على الرغم من أن فقدانهم لتلك القطرة قد يتيح لهم فرصة الامتلاء بقطرة أخرى لذينة أيضاً .

في مذهب الزن هنالك تقدير خاص للشاي والطريقة التي يقدم بها، ولا يتوقف الطقس على احتساء المشروب الأخضر الساخن فحسب بل على تقدير الكوب المقدم لنا وجهود الذين قدموه، إننا نمتن لأولئك الذين زرعوه ولقطرات الندى على الأوراق الخضراء اليبانة وللذين قطفوه وجففوه وطحنوه، وتلقى ذلك كهديّة من الكون . من طقس الشاي تعلمت أن أتلقى الأمور كما هي، وأن أستقبلها برحابة كهديّة قدّمت لي دون أن أنتظرها . وعلى الرغم من أنه يمكن لأذاننا ولأطباقنا أن تُكسر، كما أن ألواننا وأصبعتنا قد تبهرت مع مرور الوقت إلا أننا نملك ما هو أثمن بكثير، إننا نمتلك القدرة على الامتلاء من جديد .

فكرت تلك اللحظة بالطريقة التي كان يعاقبنا بها آباؤنا أو أساتذتنا بامساكنا من آذاننا وقرصها، إننا فناجين حقاً ابتسمت، فبادلني معلمي الابتسامة قائلاً: "يمكنك شربه بامتنان لإفراغه"

في الأيام القليلة التالية كتبت المسؤولة عن تنظيف قاعة التأمل الرئيسية والتي يطلق عليها اسم (زندو) .

لقد كانت قاعة واسعة ذات أرضية خشبية تحتوي عددًا من الوسائد التي يجلس عليها المريدون لممارسة التأمل.

كنت غارقة بين مساحيق التنظيف وأنا أدعك الأرضية عدة مرات ذهابًا وإيابًا، أمسح الغبار وأنظف الزوايا. لم أعتقد لوهلة أنني قطعت كل تلك المسافات للقيام بمهام كهذه، لكنني كنت أنتظر أن تبدأ الدروس الحقيقية والتمارين الخاصة كما أن قيام جميع المريدين بالأعمال بشكل متعاقب كان يعزيني قليلًا.

نظفي الزوايا، والتقطي معطفك عن الأرض.

كان المعلم يطل عبر باب القاعة لأسبوع كامل قائلاً لي تلك الكلمات ثم يرحل دون أن ينتظر مني أي إجابة. كنت أبحث حولي وأنا راكعة على ركبتي مستديرة حول نفسي دورة كاملة. . . (ما من معطف في القاعة) ! ثم أتجه للزوايا وأؤكد أنه ما من أوساخ متراكمة فيها، أهتم اهتمامًا خاصًا بالشغرات والتجاويف وأولي وقتًا إضافيًا للنوافذ الزجاجية التي تطل على حدائق المعتزل من كل الاتجاهات.

أشعل عيدان البخور وأملأ الفوانيس بالزيت وأرتب الوسائد بعد أن أنفضها وأؤكد من عدم وجود فوضى في المكان، ثم أملأ المزهرية بالماء العذب والأزهار الموسمية والأغصان الخضراء، فالتأمل يتأثر بالحيط كما يتأثر الحيط بالتأمل.

"إن أكثر ما يمكن تقديره في الزن هو المساحة الفارغة". قال لي المعلم عندما أطل من باب قاعة التأمل، وهذه المرة لم يرحل بل اقترب مني وأمسك المسححة وبدأ بمساعدتي بالتنظيف.

شعرت حينها بالخجل لأنه كان يساعدني في المهمة الوحيدة الموكلة إلي والتي شعرت أنني لم أقم بها على أتم وجه.

لقد كان مستندًا على ركبتيه وقد صب اهتمامه على بقعة لم أكن أراها، ودون أن يحول نظره عنها قال:

"على الرغم من اهتمامنا بتنظيف منازلنا والأماكن التي تخصنا . . . إلا أننا نتجاهل أكثرها أهمية .

في الوقت الذي نكس فيه الأرض، ونلمع الزجاج ونزيل الفوضى، ننسى قلوبنا ونترك شباك العناكب معششة فيها .

وعلى الرغم من أنك قد تسرحين شعرك، فلن يخطر ببالك أن تسرحي شعورك . . .

وربما قد تضعين مساحيق على وجهك خوفاً من التجاعيد إلا أن قلبك قد يبدو كحبة عنب مجففة .

إننا نهمل كل ما لا ينظر إليه أحد سوانا بينما الزن يهتم بإزالة الفوضى التي تحجب اتساعنا وجمالنا الطبيعي .

نظفي الزوايا والتقطي معطفك عن الأرض .

أسألي نفسك ما هو الشيء المرمي بإهمال في بيتك أو حياتك، التقطيه حالاً وضعيه في مكانه الصحيح .

هل هو قطعة ثياب؟ حلم قديم؟ حب لم يتحقق؟ التقطيه فقط وضعيه حيث ينتمي .

ذلك اليوم أكملت تنظيف أرضية الزندو فيما كنت أفكر في الطريقة التي قد ألتقط فيها معطفي .

من منا لم يترك داخله حباً قديماً مرمياً على الأرض، إننا نعثر به في كل مرة نحاول المضي قدماً، بل ونخشى أن

نستقبل أحدهم داخل صالة قلوبنا، نرتبك عندما يلاحظ أحدهم الفوضى التي حاولنا مراراً أن نخفيها، الأمر

يشبه أن تكس الغبار أسفل السجادة . . . سيأتي يوم ولن تستطيع إخفاء المزيد من مشاعرك السلبية .

على المرء أن يسامح من أحبه ولم يحبوه . . . ومن لم يحبهم أيضاً، إنها الطريقة الوحيدة لتجاوزهم .

فإن لم يفعل ذلك سيتكدسون داخله وسيقفزون فور دخول شخص جديد وسيطير غبار مشاعرنا السلبية

ليختلق به ضيوفنا الجدد .

إننا مدينون بذلك لأنفسنا، بأن نجعل مساحتنا الداخلية بلا فوضى لاستقبال ضيف جديد .

هذا ما يقوله لك الزن . . . آه لقد ذكرت لكم هذه الكلمة كثيرًا دون أي تعقيب عليها .

البعض يعتقدون أن الزن ديانة تهدف إلى تقديس بوذا وتجييله، فيما يظن البعض الآخر أنه مذهب موارد هدفه الأساسي الاستغناء عن الله .

لكن الحقيقة مختلفة تمامًا، ففي الزن لا إنكار لله ولا إلحاح على وجوده، كما أن الزن لا يعترف بعبادة التماثيل بل ويعتبر وجود بوذا مجد ذاته لا أهمية له . . . فيمكن للإنسان أن يعتنق ما شاء من معتقدات وأديان وسيوافق ذلك مع الزن .

في المعتزل صادفت أشخاصًا من ديانات وعقائد مختلفة، بعضهم لم يكن يدري لأي دين يتبع وبعضهم الآخر لم يكن يكثر، إلا أن أمرًا واحدًا كان يجمعهم .

البعض كانوا يسمونه البحث عن الحقيقة، فيما يطلق الآخرون عليه البحث عن الله، وقد تجد فئة تسميه إيجاد الذات .

ولم يكن يتناقض أي مما يمارسونه في المعتزل مع طقوسهم وشعائهم، فالزن ممارسة للتطهير والتنوير يمكن لك أن تمارسه وأنت تأكل وأنت تغسل أطباقك وأنت تشذب حديقتك وأنت تصلي في معبدك .

هذا عن الزن . . . لكن ماذا عن الزازن؟

الزازن نشاط يسمح لك بالتناغم مع إيقاع الكون، ويعني التأمل جالسًا .

بعد الانتهاء من تنظيف الزندو، كنت أضع الوسائد في مكانها فيتوزع المريدون للجلوس عليها لممارسة التأمل .

من المفترض في الزازن ألا تتكى على حائط أو على كرسي وأن يكون عمودك الفقري منتصبًا فهو وسيلتك للوصول بين أرضك وسمائك .

إن الجلوس بطريقة اللوتس يعلمك عدم الاعتماد على شيء أو شخص ما، وإنما الاعتماد على قوتك واتزانك الأصليين.

وإن هذا ليس سهلاً، فقد نشأنا ونحن نعتمد على الآخرين، على أمهاتنا، آبائنا، أحبائنا، أصدقائنا . . . لذلك في كثير من الأحيان ننهار دون القدرة على النهوض من جديد حين خسارة أحدهم.

عند ممارسة التأمل نضع اليد اليمنى أمام السرة والراحة نحو الأعلى وتوضع اليد اليسرى فوقها ويتلامس الإبهامان، في هذا التلامس توحيد للسواد والبياض، للخير والشر، للأنوثة والذكورة . . . إنها عملية احتواء لتناقضاتنا دون استثناء أي منها.

لأن صديقة ليس التأمل بالسهولة التي قد يبدو عليها، فنحن نجلس بلا حركة مُطلعين على كل ما في داخلنا، وإن صعوبة التأمل الحقيقية تكمن برفضنا الأجزاء غير المرغوبة والصراع معها.

ما من شخص وصف هذا الأمر بدقة أكثر مما فعل فرانز كافكا عندما قال: (إن اضطراب الإنسان ومشكلاته تنشأ من عجزه عن البقاء وحيداً مع نفسه في الغرفة دون شيء ليفعله).

ولذلك نحاول تشييت انتباهنا عن ذواتنا، نتابع التلفاز لساعات طويلة، نبكر نشاطات مشتركة، ونلتصق بأجهزتنا المحمولة لأنها تمنحنا ذلك الإحساس الخادع بأننا لسنا وحيدين تماماً، إننا نفعل كل ذلك كي نهرب من أنفسنا.

هل فكرتم يوماً بأننا نتابع الأفلام والمسلسلات للانغماس بحياة الشخصيات كي تناسى حياتنا قليلاً!

وبذلك يمكن أن يكون الملل هو عدم القدرة على تحمل عالمنا الداخلي دون إضافات خارجية.

وعلى عكس ما يشاع إن الهدف من التأمل ليس قمع الأفكار والمشاعر، بل السماح لها بالمرور دون قلق.

كل ما يجب أن يشغلك هو أنك حي هذه اللحظة ولا خيار أمامك سوى الالتفات نحو الداخل وممارسة العودة إلى ذاتك .

لم أتمكن من ممارسة التأمل لدقيقة في البداية، كان من الصعب ذلك لأنني كنت أرفض أجزاء كثيرة داخلي . وكانت عينايا نصف المغمضتين تهربان مني في قاعة التأمل، تلاحقان دخان البخور فأشعر برغبة في حك أنفي، تنظران لقطرات الماء المتناثرة على طاولة الخيزران وأفكر أنه كان ينبغي لي أن أنظف بشكل أفضل، وأن أختار أغصاناً يابغة أكثر فإن هذه ذابلة قليلاً . . . كان من الممكن أن أتم مهمني على أتم وجه فلم لم أفعل ذلك !

ما الذي كان من الممكن أن أقوم به بشكل أفضل أيضاً ؟

ذلك المشروع الذي قدمته خلال دراساتي الجامعية قبل عدة سنوات، وتلك الصديقة التي حاولت كثيراً لكنني لم أساعدها للحفاظ على صداقتنا، كما كان بإمكانني أن أعطي بصحتي وأن أهتم بجسدي أكثر .

كم من مرة بدأت بمعاينة ذاتكم قليلاً من أجل أمر لا يستحق، وانتهيتم بأن تلوموا أنفسكم على كل خطوة في حياتكم .

إن غواتاما يطلق على ذلك اسم (عقل القرد)، إنه ذلك الجزء المتدمر والمتسلط والذي لا يمكن إرضاءه بسهولة، ومهما بذلت من جهد سيستمر بإطلاق الأحكام عليك وسيخبرك أنه كان بإمكانك أن تبذل المزيد بعد .

قد يعود بك إلى سنوات بعيدة جداً ويذكرك بمراحل سبق وقد انتهت وسيقفز بك من فكرة لأخرى متمكناً من إيجاد رابط عجيب بينها فقط ليؤكد لك أن ما فعلته لم يكن كافياً .

وبمرور الوقت يمكن لهذا القرد أن يجلسنا داخل سجن بلا قضبان ويعثرنا متى شاء بقشرة فكرة ما .

لا يمكن القول إنه قرد واحد بل كنت أشعر أنني محاطة بقطيع من القردة .

القرد الغاضب، القرد النهم، القرد المتدمر، القرد الساخر، والقرد المستشف .

إن هذا الأخير مخادع حقاً، يضع نظارة على عينيه ويتكلم بنبرة هادئة ومقنعة فيبدو بمظهر المتفهم حتى يتمكن منك مُفسحاً المجال للقرود الغاضب الذي يبدأ بتسليق العقل لركله.

لا يمكننا لوم قردتنا أبداً، فنحن من قمنا بتربيتها وسمحنا لها بالتمرد، ولذلك من الطبيعي أن تقفز حتى في الزندو، لأنها ستعتبر التأمل إقلاقاً لراحتها وعائقاً لممارسة مواهبها.

لقد كان بإمكانني رؤيتها وهي تمد ألسنتها في اللحظة التي طرق فيها المعلم الجرس مرتين إنذاراً بانتهاء التأمل، ولم يكن بيدي حيلة لإيقافها.

ابتلع كرزتك بهدوء

هنالك مقولة لأحد معلمي الزن يقول فيها: (عندما أشعر بالجوع أكل، وعندما أتعب أنام).

وبالرغم من أن هذه المقولة تبدو على درجة من البساطة إلا أنه لا يمكن إدراكها سوى من خلال تجربتها بعمق.

كم من المرات التهمنا طعامنا فقط لأن وقت الغداء قد حان؟ أو بسبب شعورنا بالملل أو الاكتئاب؟

وكم من مرة حاولنا التهرب من آلامنا وأحزاننا بالنوم!

إن جوهر ما نقوم به في المعتزل هو العيش في اللحظة الحاضرة، عندما نأكل نستلذ بالنكهات والملمس داخل

أفواهنا، وعندما نداعب حيواناً أليفاً نتحسس فروه وتتناغم مع طمأنينته، وعندما نسقي الورود فإننا نصب اهتمامنا عليها... لا الماء فقط.

إننا نقوم بكل ما يبدو أننا نمارسه _من الداخل أيضاً_ مستمتعين بكل شيء لحظة قيامنا به.

إلا أن هنالك العديد من الأمور التي يمكن أن تشوش الإنسان... ذكرياته، آلامه، وأحلام يقظته.

كنت في تلك اللحظة أسأل نفسي "لم أنا" وبالرغم من انقضاء الأمر، إلا أن المرض ترك أثرًا لا يمكن أن يُمحى في صدري، فقد التهم جزءًا مني!

لقد كان كل ما فيّ يحتاج ويستفسر عن السبب الذي نلت من أجله هذا العقاب.

هذا ما كنت أفكر به عندما كنت في المطبخ وأنا أغسل الكرّز، عوضاً عن التفكير بجمال قطرات الماء المتجمعة على حبات الكرّز الناضجة، ولونها الخمرى القاني، وملمسها الناعم بين يدي.

دفعاً قوياً ومتقطعاً من الماء جعل الصحن ينزلق من بين يديّ، فكسّر الطبق وأنا أهمّ بغسله من الصابون.

شعرتُ بهبوب ريح خفيفة ناتجة عن خفقان ثوب غواتاما الأزرق الذي اقترب مني ليغلق الصنبور، وحتى بعد توقف دفع الماء استمر بالنظر إلى الحوض مسلطاً تركيزه على فقاعات الصابون، ثم شبك يديه خلف ظهره طالباً مني لمس إحدى الفقاعات، فلمست فقاعة كبيرة انعكس عليها عدة ألوان من الطيف فما لبثت أن تلاشت تماماً كأنها لم تكن.

"إن المشاعر كفقاعة الصابون . . . عليك لمسها لتلاشي" قال لي.

كيف يمكننا لمس المشاعر؟

بأن نراقب فحسب . . . أن نصغي، دون أن نظن أن لهذه المشاعر سلطة لا نهائية علينا، فنصبح سجناء داخلها.

أنت حزينة؟ حسناً . . . احزني ثم دعي الحزن يمر . . . راقبيه وهو يمر.

أشعرين بالفرح هذا جيد جداً، لا تقمعي أي شعور لكن لا تسمحني له أن يخذلك بوهم أبدية.

لم أنا؟

ـلم لست أنت!

إن هذا ليس بسؤال بل هو احتجاج، واحتجاجنا نابع عن إصرار عميق بأنه ينبغي للأمور أن تسير على طريقتنا فحسب، لكن الكون لا يعمل بهذه الطريقة.

كل ما علينا فعله هو أن نتلقى الضربة دون أن نكره أحدًا بما في ذلك أنفسنا، بذات الاستسلام الذي تتلقى فيه حدثًا سعيدًا.

لا ثواب ولا عقاب . . . لا ربح ولا خسارة.

علينا أن نسترخي وأن نسلّم بأنه ما من فوضى في هذا العالم، إنها الصورة التي ينبغي لها أن تكون.

لقد عشنا حياتنا ونحن نظن أن هنالك أمرًا خاطئًا في هذا الكون وأن الحياة دومًا غير كافية، معتقدين أنه بإمكاننا التحكم بالظروف والأحداث والبشر، وبالطبع كان ذلك يؤدي دومًا بصحتنا النفسية لأنه من غير الممكن ذلك.

إن عشت مع أحلام يقظتك ومتطلباتك الخاصة فستفصلين عن الحياة وستحيين خارجها، ستحيين داخل وهمك كشبح متخاصم مع كل شيء، ستكرهين الألم وستعلقين فقط بالمتعة وبذلك لن تحيي أبدًا.

إن السرطان حاول التهام جسدك وفشل . . . لكن انتبهي من سرطان روحك.

ـسرطان روحي؟

ـأجل، لكل إنسان سرطانه الروحي الخاص . . . قد ينتج عن انقسام على الذات، أو نبذها أو لأسباب كثيرة أخرى، لكن على المرء اكتشاف سرطانه الروحي ليتمكن من علاجه.

حمل غواتاما طبق الكرز وذهب تاركًا بين يدي ذلك الطبق المكسور الآخر وفقاعات صابون تلاشت بمعظمها ويدين نديتين بالماء.

مسحت وجهي بما تبقى من ماء على يدي، وشعرت للمرة الأولى أنني ألمس ألمي الأكبر.

إن أعظم ألم يمكن أن نواجهه هو ألم الانفصال والوحدة وكأننا منسيين في كون لا يكثر لأمرنا، معظم حياتنا تدور حول ذلك وما يلبث هذا الشعور أن يخفي بوجود أصدقائنا وأحبائنا، فنشعر أننا مهمين ومؤثرين وجديرين بالاحترام، نجد هدفاً ونمنح معنى لكل ما يحصل.

لكن لحظة انتهاء كل هذه المشاعر وفقدان هؤلاء الأشخاص تتلاشى طمأننتنا بقسوة، وتبدأ الشكوك بنخرنا من الداخل من جديد، ونفقد المعنى والهدف من جديد.

ذهبت إلى حيث كان غواتاما جالساً في إحدى قاعات المعتزل، كان يلثم الكرز بتلذذ مغمض العينين، وسرعان ما قاطعه اثنان من المريدين وكان يبدو عليهما شيء من التوتر والغضب وعلى عكس معظم المريدين في المعتزل الذين كانت ثيابهم مرتبة ومكوية جيداً كانا يدوان وكأنهما خاضا معركة ما.

ـ ما هو المذهب الحق أيها المعلم؟

قال أحد المريدين بطريقة حاول أن يكتم بها نبرته الحادة ولم يستطع، فيما لزم الآخر الصمت متأهباً للحصول على الإجابة وهو يشدّ على قبضتيه.

بقي غواتاما متربّعاً على الأرض وقد دفع طبق الكرز إلى التلميذين الذين جلسا محدقين برأس المعلم وكأنهما ينتظران الإجابة من هناك.

أمسك غواتاما إحدى الثمرات ولوح بها أمام المريدين:

بإمكاني أن أخبركما أن هذه هي الفاكهة الأذ والأعظم، وإمكاني أن أدعو كل من لا يحب الكرز بانعدام حسي في الذوق وبشّى النعوت القاسية، كما يمكنني أن أعزو كل مشاكل هذا العالم إلى عدم منح الكرز حقه

من التقدير، وأنه يمكن التخلص من الجوع والفقر والاحتباس الحراري وإيجاد علاج للسرطان فيما لو قُدِّرَ التركيز كما يجب.

وبإمكاني أن أتهمكما بالعمى لعدم تمكنكما من رؤية القدرات السحرية للتركز وأنه به وحده سنتمكن من حل كل مشاكلنا.

الأمر مشابه عندما توجهان إليّ سؤالاً كهذا، فأتما تنتظران إجابة محددة... لأن كل منكما يرغب بأن يثبت أنه على حق.

إن التركيز يمثل الفكرة... يمثل المذاهب والطوائف، العادات والتقاليد، المظهر والممارسات الشخصية، إنه يمثل كل الانتماءات.

ما قد تظن أنه شهى ولذيد وسليم ومنقذ للحياة سيجده شخص آخر أنه خاطئ ومقرز ومدمر للحياة. في كل مرة تحاول فيها التسلط على حياة الآخرين والتفاضل عليهم بأي من آرائك الشخصية وظنونك التي تعتبرها مطلقة المصادقية... استبدل رأيك بكلمة كرز وتخيل نفسك وأنت تستهزئ بأخيك لأنه لا يجب التركيز ثم تنبذه وتجنب الحديث معه حتى يعدل عن رأيه وإن لم يفعل ستجد أنه من حقك أن تضع مسدسًا في رأسه حتى يحترم نفسه وينضم لحزبك الكرزي.

صدقني ستضحك كثيرًا على نفسك، وإن كنت ذكيًا ستلتهم كرزتك بهدوء وستكمل طريقك بسلام.

بعد حوار دام عدة دقائق بين المريدين والمعلم كنت أفكر هل اقتنع هؤلاء المريدين بما قد قاله المعلم... ماذا لو كان بإمكان أبناء قريتي سماع ذلك، هل كانوا ليغيروا معاملتي قليلًا.

ليس بإمكاننا إيقاف الضجيج في الخارج لكن يمكننا إيقاف ضجيجنا الداخلي حتمًا . قال غواتاما وكأنه عرف ما أفكر به، ثم تابع:

لا يمكنك أن تعبري نفسك ضحية وتسقطي أرضاً مذعنة لذلك، إن البشر سيجدون أسباب كثيرة كي لا يحبوا بعضهم، سيبتكرون أسباباً جديدة ومناسبة تماماً، متجاهلين السبب الحقيقي .

إن الإنسان يجهل أن كل شخص يمثل أمامه ليس إلا جزء آخر منه، وأنه بوجود هذا الشخص سيتمكن من رؤية نفسه بشكل أفضل قليلاً، وأن ما يرفضه في الآخر هو ما كان يخبئ منه ويرفضه في نفسه .

تذكرني يا زين دومًا أنه عندما تحبين نفسك ستحبين الآخرين ولن تكثرني للطريقة التي يختلفون بها عنك، ولن تزعجك معاملتهم السيئة لك، ستقدرين أنهم يتشاجرون مع أنفسهم من خلال شجارهم معك . . . حينها لن تشعرني بالنبذ أبدًا . . . لأنك ستفهمين أنهم ينبذون أنفسهم فحسب .

حبيبك، أصدقاؤك، أبناء قريتك تخلوا عنك من أجل اختلاف ما ؟ . . . إنهم لا يفعلون ذلك حقًا، بل يحاولون التخلي عن ذلك الجزء داخلهم الذي قد يؤيدك، ووجودك سيدكرهم به حتمًا .

سرطانك الحقيقي سيلتهم روحك لحظة انقسامك على نفسك .

إننا في كل لحظة نريد ولا نريد، نرغب ونعرض، نفرح ونحزن، نؤيد ونخالف وإننا نتعامل مع ذلك كله على أنها متناقضات لا يمكن الجمع بينها فننقسم وتحتيز لأحدها وننسى أن هذه المتناقضات كانت وستكون متلاحمة وسترافقنا طيلة حياتنا .

لا يمكن اختيار الصواب دون الخطأ، ولا الصحة دون المرض، ولا اللذة دون المعاناة .

لا يمكنك فصل أمور متلاحمة بجوهرها، فهذا الانقسام سيكون عشوائيًا وغير منصف . . . إنه سرطان حقًا .

أسألي نفسك ما الذي تعتبرينه مرضاً في حياتك ؟ كيف تعاملين معه ؟ وما الدواء المناسب له ؟

حاولي إيجاد ما تقاومينه بشدة، اجلسي معه بثبات ورجلي به، عاتقيه بعمق، توقفي عن مقاومته . . . ثم
اسمحي له بالرحيل .

همّ بالتهام كرزة لكنه أبعدّها وكأنّه تذكر شيئاً ما:

لا تنسي أن تمارسي تمرين القلب المفتوح يازين .

من خلف غواتاما ظهر أحد قردتي، حرك نظارته من على عينيه وقفز سريعاً إلى كفتي وقد لف ذيله حول
عنقي هامساً بأذني:

"كلام غواتاما صحيح، لكن . . ."

آه إنه القرد المستتقف، إنني في وضع لا أحسد عليه .

افتح يدك

كانت المهمة الموكلة إليّ عصر ذلك اليوم هي نقل بعض الحبوب عبر مركب إلى المعتزل، فقد كان المعتزل قائماً
على جزيرة صغيرة لا تبعد كثيراً عن اليابسة والتي كانت غابة مترامية الأطراف .

قمت بربط مركبي بالقرب من باب خشبي منتظرة لاستلام حمولة الحبوب من أحد الأشخاص في وقت محدد .
لقد كان ذلك الباب غريباً حقاً، فالأبواب عادة تتواجد في الجدران، لكن ما من جدار في هذا المكان .

كان هذا الباب أشبه بإطار يمكن من خلاله رؤية المعتزل وهو يطفو على سطح المياه الصافية التي تنعكس عليها
غيوم ناصعة فيبدو المعتزل وكأنه غارق بين هذه الغيوم، وقد نُقش على تاج الباب من الأعلى:

"حالما تمر عبر هذه البوابة، ستمشي بحرية عبر الكون ."

كانت الأوراق الخضراء تتحرك مع كل نسمة هواء لتغطي حروفاً من تلك العبارة.

_ اम्मمم جميل هذا الذي تقومين به، تنظيف وطهي ومسح أراضٍ وغسل خضار وأخيراً انتظار تجار القمح والشوفان. . . . قال قردي الساهر الذي ظهر دون سابق إنذار.

_ هل تقترح القيام بأمر آخر؟

_ طبعاً. . . القيام بالتأمل، لم يكن ينقصنا إلا هذا التأمل.

من أعلى البوابة هبط قردي المتذمر: بالمناسبة أنت لا تجيدينه، كما أنك تعرفين ذلك حق المعرفة.

لطم القرد الغاضب القرد المتذمر على رقبته: هل تريد أن تساعدنا للوصول إلى الطريقة الصحيحة!

فرك المتذمر رقبته بينما ارتسم الألم على ملامحه: لا فبإمكانني أن أجِدَ دومًا شيئاً لأنذمر من أجله، الضوء ساطع، الوسادة غير مريحة، ألم في الرقبة، موقف محرج حصل قبل خمسة عشر عاماً، إنني خبير في ذلك.

بواسطة ذيله المعلق بإحدى الأغصان هبط قردي النهم وهو يحمل موزة بين يديه: ما هذا الزنُّ الذي تدعيننا لاعتناقه، هل هنالك طعام محرّم فيه؟

_ إنه ليس دين، بل أسلوب حياة. . . ولا وصايا فيه ولا شروط مسبقة. انعكس الضوء على نظارة المستشف وهو يقول ذلك.

أكملت الجوقة الآن. . . قلت لنفسي.

وضع يده على كتفي ثم تابع: ما رأيك أن أساعدك بتمرين القلب المفتوح يا زين؟

اغرورت دمة في عين القرد المتذمر: تريد أن تساعدنا لتخلص منا! نحن نحبها ولن نرحل.

_ فلتذهبوا جميعاً الآن وليبقى صديقي النهم. أعطى المستشف أمراً للجميع:

لأنه أمر جيد أن تحبي نفسك، لكن ألسنا جزءًا من نفسك يا زين .

لم ينتظر إجابتي وتابع، مشيرًا إلى القرد النهم الذي نظر إليّ بسذاجة:

لَا يمكن للإنسان البقاء وحيدًا .

ومن الذي

– دعيني أتابع . . . أنت تحاولين اتباع طريقة غريبة ظنًا أنها قد تتقذك، أتذكرين كيف انفضّ الجميع من حولك،

وعاملك بقسوة، سيفعلون ذلك دومًا في كل مرة لن تتبعي فيها طريقهم .

ستخبريني ببعض نظرياتك وتمارينك الغريبة عن الكرز والفناجين . . . لا لا توقفي، وتذكرني أنك ستعيشين

وحيدة وستمتين وحيدة، لن تجدي الحب أبدًا وسيتم هجرك دومًا لأنك غريبة الأطوار .

قلب القرد النهم شفته بينما امتلأ فمه بلقمة لم يتلعتها: أهذا صحيح؟

لكني أرغب بالاحتفاظ بالجميع، إن هذه مهمتي هنا .

أن أحفظ بالأشخاص والأفكار والأشياء الضرورية والفائضة، أن أملأ يديك بها دومًا وأن أجعلك تتعلقين بها

ففيها تكمن لذتك .

تخيلي ألا أذكرك بالإبريق القديم المكسور الذي تتقليته معك من بيت لآخر، أو ألا أذكرك بنكهات الطعام الدسم

والشهية التي تملأ أحشاءك حد التخمة .

آه يا صديقتي إنك تظلمين نفسك بكل ما تقومين به اليوم، فبإمكانك النوم والاسترخاء بعيدًا عن هذا المكان

المتعب .

أما أنا فسامارس شغفي بجمع الأشياء، وإياك أن تخبريني عن تمرين المعطف فهو لم يرق لي على الإطلاق .

تدخّل القرد المستتف من جديد:

الحياة تشبه لعبة ماريو الإلكترونية أتذكرينها ؟

إننا نجمع النقاط والأشخاص والعلاقات والمال، علينا في هذه الرحلة أن نشبع رغباتنا وتخلص من الألم.

أجبتُه: لكن ماريو يصدّم رأسه بقسوة للحصول على هذه النقاط. . . . لا بد أنه يعاني ارتجاجًا في الدماغ أو
الماء في الرأس على أقل تقدير؟

ظهرت شرارة في عيني النهم وكأنه اكتشف أمرًا متأخرًا: الرغبة، عليك أن تشبعي رغباتك.

بل علينا أن نرحل فتاجر الحبوب لن يأتي. صاح القرد الغاضب دون أن يُظهر نفسه.

تحركتُ لأفك رباط المركب المثبت بالقرب من الباب ولاحظت أن العبارة لم تكن منقوشة على جهة واحدة
فحسب بل على الجهتين!

إن الأمر لا يتعلق بالجهة إذن، لا يتعلق بالمعتزل بمجد ذاته، ابتسمت عندما تقاطعت تلك الفكرة مع قول زني
قديم:

(ترك أحد الرهبان بيته لكنه ليس على الطريق، هنالك آخرون لم يغادروا بيوتهم قط لكنهم على الطريق).

وضعت يدي اليمنى على قلبي بينما كانت يدي اليسرى ممسكة بالمجذاف، شيء ما همس داخلي بصوت
خافت:

" الطريق لا يمر عبر السماء، الطريق في قلوبنا".

إن كلمات كهذه لن يكون مصدرها أحد قردتي حتمًا، ففي اللحظة التي طفا فيها المركب على سطح الماء
بدأت الضوضاء مرة أخرى.

إن المركب صغير وضيق . صاح القرد المتذمر وهو يبعد قردًا آخر ليفسح المزيد من المجال له .

وهكذا تحركنا باتجاه المعتزل من جديد على سطح المركب الذي يحملني أنا وقردتي الخمسة بينما كان رذاذ الماء يتطاير من حولنا وفي كل مرة يحتلفون بها كانت تتناثر القطرات على وجنتي .

حاولت تجاهل إزعاجاتهم مستمتعة برشقات الماء المنعشة، وتذكرت أنه كان من المفترض أن أمارس تمرين القلب المفتوح ذلك الحين .

إن هذا التمرين يعتمد على إنشاء قائمتين، قائمة بكل العطايا التي مُنحت لي اليوم، وقائمة بما قد قدمته أنا من عطايا للآخرين .

عطايا الكون	عطاياك
الشمس اللطيفة	كان من المفترض أن أعود بالحبوب من أجل تحضير الغداء للمريدين في المعتزل . . . لكنني لم أفعل .
الماء العذبة	
الفاكهة اللذيذة	
إبسامة إحدى المريدات التي دعيتي لاحتساء الشاي مساءً	
الأشجار الخضراء طيلة الطريق	
العبارة المنقوشة على البوابة	

يمكن لهذا التمرين أن يصدم الإنسان بمقدار عطائه، فقد تعتقد أنك تقضي يومك بتقديم العطايا لمن حولك، لكن الأمر ليس أكثر من مجرد وهم نغرق فيه لأننا نتوقع أن نحصل نحن دومًا على العطايا لا أن نقدمها، هذا ما كان يخبرني به المعلم ويبدو أنه كان على حق .

عندما وصلت للمعتزل كان غواتاما بانتظاري لأنه أراد استخدام المركب للذهاب إلى مكان ما، وسألني وهو يمسك أحد الجذافين:

ـ ما الذي أحضرته معك يا زين ؟

أظهرت له راحتا يدي وقد رفعت كفتي نحو الأعلى:

لقد عدتُ فارغة اليدين . . .

قال وقد استقر في المركب وهو في وضعية استعداد تامة للتجذيف:

ـ إنه أمر رائع أن يعود المرء بيدين فارغتين .

للأيدي الفارغة قوة هائلة، فالأيدي المملئة ستكون مغلقة ولن نستفيد منها بأي شيء، فمع الوقت سنكثر

ممتلكاتنا وتقسو يدينا....

لقد عدتِ بيدين فارغتين . . . هذا رائع، على الأقل ستستطيعين العناق.

كانت القردة تختبئ خلف بعضها البعض محاولة الابتعاد عن رذاذ الماء المتناثر من المجذافين اللذين حركهما غواتاما بقوة .

استحضار الأشباح الجائعة

التقيت بالعديد من الأشخاص في المعتزل، نساء ورجال يمتهنون مهناً مختلفة ويمارسون طقوساً مختلفة وينتمون لثقافات مختلفة .

لقد كان المعتزل أشبه بخلية نحل كبيرة يمكنك أن تشعر بنشاطها في اللحظة الأولى من اجتيازك للبوابة الثانية .

حيث يمكن لك أن ترى بعض المريدين وهم يشذبون الحدائق، ينقلون الحصى، يحرقون الأرض، وينقلون الشتلات من مكان لآخر .

فيما يقوم آخرون بإطعام الأسماك في البرك الداخلية وينظفونها من الأوراق، وفي الداخل كانوا يتقاسمون المهام أيضاً ما بين تنظيف وطهي.

عندما أنهى مهامي كنت أنضم لسما في المطبخ، والتي كانت المسؤولة الرئيسية عن تحضير الطعام في المعتزل أما باقي الميردين فكانوا مجرد مساعدين لها.

كانت سما في أواسط الأربعينيات ذات شعر أشقر قصير يختفي تحت قبعة الطهو، فيما يظهر خصرها الدقيق بجذر من مريلة المطبخ وكان طولها الفارع يساعدها على التقاط الأواني على الرفوف العالية دون حاجة للمساعدة.

أخبرتني سما أنها قبل وصولها للمعتزل كانت تعمل كعارضة أزياء، ولم أستغرب ذلك فقد كان وجهها من النمط المألوف وجمالها ما زال طاعياً حتى الآن.

كانت تقطع الجزر في حلقات دائرية، بينما تحدثني:

لقد مارست المهنة لأكثر من عشر سنوات.

ما الذي جعلك تتوقفين؟

في مهن مشابهة أنت لا تتوقفين من تلقاء نفسك، بل ستشعرين مع الوقت أنه تم استبدالك وصولاً للحظة التي لا يعود لك مكان فيها.

وما الذي أتى بك إلى هنا؟

لأكون صادقة . . . إن منصة عرض الأزياء هي التي قادتني إلى هنا مباشرة.

تخيلتها وهي تسير بكعب عالٍ على المنصة حيث يلتصق ثوبها الزاهي تحت الأضواء وفي نهاية المنصة كان هنالك موقد وحلة بانتظارها، إلا أنها قاطعت خيالاتي:

إنها أشباحي الجائعة، فقد كنت أرغب بالحصول على كل شيء وللأبد .

عند ذكر هذه الكلمة انبثق قردي النهم من العدم ممسكاً بطبق أرز ومتأملاً وجه سما باهتمام:

الرغبة بأن أكون أجمل وأكثر رشاقة دوماً .

لقد كنت دوماً في سباق مع نفسي، إلا أن هذا النوع من السباقات لا يريح فيه أحد أبداً .

كنت أشعر دوماً أنني بحاجة لمزيد من الضوء لأنال الرضا، وحتى عندما أغرق بالضوء أشعر أن الأمر لم يكن كافيًا، فأبذل المزيد من الجهد دون أي جدوى .

مع الوقت تصبح مساحيق التجميل غير كافية وإن المرأة ترى ذلك قبل أن يلاحظه أي أحد آخر فتحاول تدارك الوضع .

أتصدقين أنني في إحدى المرات قمت باستخدام مقدم مادي لعقد لم أوقعه لتسديد فاتورة طبيب التجميل، وحينها وقعت في مشكلة واضطرت للتوقيع بعد أن اعترفت لمدير أعمالي بما قد قمت به .

كنت في بداية العشرينيات آنذاك فقال لي مدير أعمالي مصدوماً " لكنك لست بحاجة حتى الآن لأي إجراء تجميلي " .

لا يمكن اختصار الإدمان بالسجائر والمخدرات والسكر والمشروبات الروحية، إن لكل شخص إدمانه الخاص .

لقد أصبحت مدمنة على البقاء بصورة محددة رسمها المحيط لي، لقد كنت أسيرة لرغباتهم ولحدودية نظرتهم ولم أكتشف في تلك اللحظة أنه لا يمكن للإنسان أن يتوقف بالزمن، فالأمر لا يشبه التقاط صورة بكاميرا والبقاء فيها على الحال ذاته إلى الأبد .

لقد كنت أحاول تصحيح شيء لا يراه أحد غيري، شيء من غير الممكن إصلاحه أبداً عند وقوعه الحتمي .

وبذلك خسرت كثيراً، فلم أكن قادرة على التمتع بما لدي، ومن المنطقي ألا تعود المتعة ممكنة بعد فقدانه.

مسحتُ على رأسي الحليق من الخلف وقلت بتردد:

_ غواتاما يقول لي دوماً أن الطريقة التي تنظرين بها إلى نفسك هي قضبان سجنك الشخصي وليس ما أنت عليه فعلاً.

_ هذا صحيح.

أتعلمين... لقد كنت أتقياً معظم الطعام الذي أتناوله خلال اليوم، فقد كان لدي إحساس بالذنب تجاه كل لقمة إضافية، وعند حد معين تصبح جميع اللقيمات إضافية.

أما اليوم فأنا هنا أطهو الطعام في معتزل بعيد عن الأضواء والمساحيق والمثالية. بل وأتأذى بما أطهوه من مأكولات دون إسراف في تناولها.

أهتم بتحويل الطعام للوحة فنية لذيذة، فإن لم يتمكن الغذاء من سحر النظر والشم فهو لا يكون جيداً بما فيه الكفاية، فليس الغرض من الطهي التهام الطعام بل الخوض بتجربة حسية حقيقية.

إن الطاهي فنان أيضاً فهو يحقق روح الطريقة بالتشهير عن ساعديه وممارسة فن النكهات والروائح.

إنني اليوم أرى نفسي كما أنا حقاً، دون أن أقع في وهم التجاعيد الإضافية والأرطال الزائدة والنجاح المنقطع النظير.

إن أكثر ما يخذلنا في هذا العالم أنه يجب أن ندخر أنفسنا للجهود العظمى لتحقيق مكانة ما، موكلين غيرنا للقيام بالمهام العادية.

هنالك عمال يرتبون منازلنا، ومطاعم تطهو طعامنا، ومغاسل تنظف وتكوي ثيابنا.

أما نحن فننشغل بالأمور المعقدة التي تمنحنا الشعور بالإنجاز، وعلى نحو غير متوقع تستمر معاناتنا .

ففي اللحظة التي يُقدّم لنا الإطراء نعلم أن هذا الإطراء ليس لنا بل لإنجازاتنا، وعندما لا يقدم لنا الإطراء نغرق في دوامة أن ما تقدمه غير كافٍ وغير مرغوب .

قد تكون الآثار الجانبية للدواء أكثر خطرًا من المرض نفسه . . . كذلك الذين يطلبون الجدد .

هنالك قول زني قديم يقول (أن تشعر بعمق الزن ليس هي القضية، بل أن تفعل ما يجب فعله كتناول الشاي والذهاب إلى النوم) .

ابتسمت وهي تضع إحدى الحلل على الموقد: بالمناسبة ما رأيك أن نحتسي الشاي؟

أومأت لها برأسي، وبطريقة ما شعرت أن كل ما قالته مسني بشكل شخصي على الرغم من اختلاف التجربة إلا أن سما حملت وجهًا يشبهني .

إننا نقابل أنفسنا في كل مرة نقابل فيها شخصًا آخر وإن كنا محظوظين سنحصل على الإجابات .

وضعت سما الفناجين الخزفية أمامي، الفناجين ذاتها المستخدمة دومًا في المعتزل، قلبتُ الفنجان بين يدي ريثما تغلي الماء وقد كانت علامته التجارية مطبوعة في قاعه .

انتهت سما أنني كنت أحاول قراءة ما كتب في القاع، فقالت:

_(راكو) وتعني الفرخ باليابانية .

سكبت سما الشاي في الفنجان الأول بهدوء، ثم الفنجان الثاني:

_نخب الفرخ إذن .

أُمسكتُ فنجاني من أذنه وأنا ابتسم ابتسامة ساخرة بينما كانت قردي تبذل جهدها لاستحضار أشباحي الجائعة، جميعهم يدفعون القرد النَّهم نحو الأمام.

لكنني في تلك اللحظة وأنا أرتشف الشاي سألت نفسي ما الذي أريده حقاً، وما الذي يمكن للمقتنيات تلبية؟ من هو الشبح الجائع داخلي؟ أين يعيش؟ ما الثمن الذي أدفعه لتسديد فاتورة مقتنياته؟

لم أحاول رفضه أو نبذه... بل سألت نفسي ما العيب بما أملكه الآن؟

كوب شاي لذيذ وصديقة لطيفة وبقايا غروب يتسلل بطريقة ساحرة من النافذة.

حسناً هذا يكفي.

العقل الأبوي

الرغبة الرغبة...

فكرت وأنا أنظف أرض الزندو بعد التأمل المسائي بالحديث الذي خضته مع صديقتي سما.

وهذه المرة لم يحضر أي من قردي بمن فيهم ذلك الذي تعرفونه جيداً.

تظهر الكثير من الأمراض النفسية بسبب كبت الرغبات ورفضها، إننا ننظر لأنفسنا أننا أسمى من رغباتنا دوماً بل ونعاملها على أنها الجزء الأكثر قتامة منا.

على الإنسان ألا يحتقر شيئاً في ذاته، فالتعامل مع الرغبات على أنها غير موجودة سيجعلها قابلة للانفجار في أي لحظة، فالحل هو بالاعتراف بوجود الرغبة.

في الزن هنالك ضرورة لمعرفة وتلبية الحاجات الطبيعية عند ظهورها دون التعلق بها، أو التلهف للمزيد منها.

إننا نتعامل مع الأمر ببساطة، فنحن بحاجة لكمية من الطعام وأشعة الشمس والماء والصدقة.

قلت لنفسي بعد أن أغلقت باب الزندو وهممت بالعودة إلى غرفتي عبر الساحة الرئيسية.

دخل الهواء النظيف رثتي بينما رفعت رأسي للسماء لرؤية النجوم والقمر . . . لا بد أن الساعة قد جاوزت التاسعة والنصف بقليل إلا أن الهدوء كان يعم المعتزل، فالجميع هنا يخلدون للنوم باكراً بهدف عدم التأخر عن ممارسة التأمل الصباحي، ولولا انهماكي في التنظيف لكنت الآن مستلقية في فراشي.

رأيت خيالاً يتحرك بالقرب من قاعة الطعام، اعتقدت في البداية أنها سما وناديت مرتين باسمها، لكن الخيال لم يجنبي وبقي راکماً على ركبتيه، هذا ما تمكنت من رؤيته بواسطة ضوء القمر الذي انعكس بريقه الفضي على الساحة الرخامية الواسعة.

أما الفانوس الزيتي في يدي فلم يساعدني كثيراً في الرؤية لأن المسافة التي تفصلني عنه كانت بعيدة، وكان صدى خطواتي المترددة في جنبات ساحة المعتزل هو الصوت الوحيد الذي يمكنني سماعه يتخلله صوت أنفاسي .
(قد يكون إحدى المريدن) . . . حاولت تعزية نفسي بهذا الهاجس .

عند وصولي للمكان الذي استلقى فيه الخيال غمر الضوء الأصفر ذلك الجسد فبدا واضح المعالم، كان شاباً بشباب ممزقة حيث تظهر عدة جروح في صدره ورأسه الحليق فيما يغطي الدم أجزاء كثيرة من ثوبه الأبيض الممزق.

همس بصوت لا يكاد يكون مسموعاً:

—ساعديني أرجوك.

—هل أنت مجنير؟ ما الذي حصل لك؟

قلت له بينما ساعدته للاتكاء على كتفي، حيث طلب مني أن أقوده إلى غرفته، والتي صدف أن كانت قريبة من غرفتي، ولم يكن هنالك أي أحد داخلها .

وضعته في فراشه ثم أعددت كمادات ماء لخفض درجة حرارته، فيما نظفت جراحه والتي لم تبدو لي عميقة جداً، وقمت بتغطيته .

—إنني ممتن كثيراً لك .

قمت إلى المطبخ وحضرت كوباً من الأعشاب العطرية ثم قدمته للشاب الذي بدت على ملامحه المعاناة وهو يحاول الجلوس، وشكرني على الكوب الساخن .

—أنا زين .

قلت له وقد تملكني الفضول لمعرفة المزيد عنه، فحاول مجارأتي:

—أصدقائي يطلقون عليّ اسم ساتوري .

—هل تنتمي إلى هذا المكان يا ساتوري؟

—نعم، لكن ليس منذ فترة بعيدة .

—وما الذي قد حصل لك، وما سبب هذه الجروح في جسدك؟

"ألم يحن موعد نومنا" صاح قردي الغاضب، فيما تأوه ذلك الشاب أثناء ذلك ثم قال:

—إنها قصة طويلة .

لقد كانت تلك العبارة الحاجز الذي يعني أنه من الممكن أن يخبرني بتلك القصة لاحقاً، أو ربما لا يفعل .

عدت إلى غرفتي بعد أن اطمأنتت على حاله وبالرغم من أنني كنت متعبة جداً إلا أنني لم أتمكن من النوم مباشرة.

إن أكثر ما قد شغلني ذلك الحين هو الفضول الذي تملكني تجاه ذلك الشاب، وتساءلت لماذا لا نشعر تجاه أنفسنا بذات الفضول، لماذا لا نركض لإنقاذ ما تبقى منها، مسرعين بتضميد جراحنا!

لماذا نتعاطف مع آلام الآخرين بينما نشعر تجاه آلامنا باللامبالاة أو الخجل أو الضعف على أقل تقدير!

لماذا نكون حكيمين ومرحابين ومتسامحين مع الغرباء أكثر مما نفعل ذلك مع ذواتنا!

لماذا لا نمتلك عقلاً أبوياً تجاه أنفسنا، يمكنه أن يتقبل أننا قد نخطئ وقد نصيب، دون أن يستثينا من رحمته بصورة أبدية!

ألا نستحق أن نشترى الهدايا من أجلنا، أن نحضر طبقاً لذيذاً خاصة ونلتهمه على مائدة مُعدة للشخصيات الهامة، أن نعانق أنفسنا دون أن يتسلل ذلك الإحساس بأننا مثيرون للشفقة إلى الداخل!

في الأيام القليلة التالية كنت أقوم بمهامي وتمريني وأنفقد ساتوري كلما أتحت لي الفرصة أقدم له الطعام وأزوده بالماء وأساعده بالتنقل، وقد كانت صحته تتقدم مع مرور الوقت.

في أحد الأيام كانت قد اندملت معظم جراحه وبدأ وجهه أكثر إشراقاً فطلب مني قضاء بعض الوقت بالقرب من إحدى البرك الداخلية.

لم تكن تلك البرك عميقة وكان يمتد فوقها العديد من الجسور، أما البركة الكبرى في المعتزل فكانت مغطاة بستر زجاجي مقسى يمكن من خلاله رؤية الأسماك وهي تسبح بحرية.

جلسنا أنا وساتوري تحت إحدى الأشجار القديمة بينما كنا نغمر ساقينا بماء إحدى البرك ونطعم الأسماك فئات الخبز وقد كانت تدور محتكةً بجلدنا بين الفينة والأخرى.

ـستستغربين لو قلت لك أن هذه الجروح في جسدي سببها التخلي عن بعض الأشخاص في حياتي .

قال ذلك دون أن ألح في السؤال ودون سابق إنذار .

ـهل هم الذين فعلوا بك ما فعلوه؟

رمى قطعة خبز في الماء:

ـلا أستطيع تحميلهم كافة الذنب، فإن لي يد في ذلك .

شعرت برأس سمكة يحكك بقدمي فرفعتها من الماء بحركة لا شعورية، بينما مسح ساتوري قطرات الماء التي

تناثرت على وجهه جراء حركتي المفاجئة متابعًا:

أتعلمين ذلك الشعور عندما تحبين شخصًا ما وتعلقين كل آمالك عليه وتستثمرين كل مشاعرك وطاقتك في تلك

العلاقة، ثم تفشل العلاقة بعد ذلك يخذلك ويرحل .

بعد علاقة كهذه يصبح المرء أقل ثقة بالآخرين، أقل شغفًا واندفاعًا وفي حالات أكثر يأسًا قد يفقد الرغبة

بالانغماس بأي مغامرة جديدة .

هذا ما قد حصل معي، لقد ظننت أنني أحاول الحفاظ على نفسي، كنت أعتقد أن ذلك التخلي الذي أمارسه

سببه قوتي الداخلية، وكان هنالك شعورًا يغمرنني بالراحة لأنني لست عالقًا في غسل أحدهم .

لكن ما ظننته قوة، جعلني بتلك الحالة التي قابلتني عليها .

إن هنالك خيطًا رقيقًا بين ما نظن أنه إدمان على غسل الآخرين وبين تقبلهم برهم وحلوهم معًا .

كما أن هنالك خيط رفيع بين أن يفرغ المرء يديه وبين أن يتخلى عن الجميع ويغرق متوقعًا في أناه .

وقبل انتهاء فترات الحيز بقليل استأذن ساتوري للذهاب إلى غرفته، لم أكن فهمت كل ما قاله لكن لم يكن بوسعي الضغط عليه لقول المزيد، فقد كان التأمل المسائي قد حان.

كانت المرة الأولى التي أمارس فيها الزاين بصفاء، حتى أنني لم أفكر بالكلام الذي قاله لي ساتوري أثناء تأملي، ولم أقلق بشأن الأطباق المكسورة، أو بشأن الحواف المغبرة، أو الأغصان الذابلة، بل لم أقلق حتى بشأن سرطاني أو ثديي المبتور.

وفي اللحظة التي فتحت عيني فيها بعد انتهاء تأملي وقعت عيناى على ساتوري فقد كان يجلس أيضاً في إحدى الزوايا متربعا، كانت عيناه ما تزالان نصف مغمضتين، كان ظهره منتصباً وصدره يعلو وينخفض بهدوء وبطء. كان مستغرقاً لدرجة لم ينتبه فيها أن وقت التأمل قد انتهى، ولم أشأ أن أعكر صفوه.

انتهت تلك اللحظة أنه ما من قردة حولي، كان هنالك قشرة موز ونظارة مرميتان بلا مبالاة فحسب.

ترى هل سأشتاق لشقاوتهم!

اسقي أزهارك الداخلية.

(عندما تأتي نرحب . . . وعندما تذهب لا نلحق بك).

إن الوجود هنا ليس إجبارياً، ويمكن للجميع الرحيل متى شاؤوا.

إننا لا نمنعهم، ولا نضغط عليهم، ولا نملؤهم ذنباً بل نشكرهم لهدية حضورهم لدينا.

لا وصايا في هذا المكان ولا شروط مسبقة، فكل شخص مدعو لاكتشاف الأغنية التي بداخله وغنائها، إلى أن يجد كل شخص طريقته للتعبير عن حبه لله وللكون وللحياة.

لا أعلم كم من الوقت قد قضيته في المعتزل، لكنه كان كافيًا لأشعر أنني أحد أبنائه المرحبين بأي إنسان جديد .

كانت الأمور تزداد تحسنًا ليس بالنسبة لي فحسب بل بالنسبة لساتوري أيضًا، كنا نقضي أوقاتًا ممتعة وأحيانًا مدهشة، ننظف معًا، نذهب برحلات بالقارب الخشبي، نطعم الأسماك ونسقي الأزهار ونسقى الحدائق .

وما كان يبدو عبثًا ثقيلًا في الأيام الأولى بات نشاطًا يوميًا منعشًا، كالزazen .

كنت في البداية أتوقع أن يأخذني التأمل إلى النجوم واستغرقت وقتًا لأدرك أن النجوم هي هنا تمامًا مع كل نفس أتنفسه .

إن وظيفة الزن رفع الستار عن الأعين لإبصار الأشياء الجميلة التي كنا نراها دومًا دونما اكتراث .

حتى أنني لم أعد أقيم التمارين التي أمارسها . . .

هذا صواب وذاك خطأ، ذلك لأن الرؤية بهذه الطريقة تجعلنا نحاول إصلاح ما حولنا . . . لكن من الذي قال أن هنالك خللاً ما !

"إن ذلك قمة في الغطرسة فمن نحن لنحكم على أنفسنا أو على كل هذا الخلق المذهل الماثل أمام أعيننا وكيف يمكن لرجال ونساء يدعون أنفسهم متدينين أن يدعوا إلى حب الله ومع ذلك يرفضون جزءًا هائلًا من الخلق !

أن تكون متدينًا يعني أن تكون محبًا ورحيمًا، فلا فائدة للخشوع والتراتيل والشموع إن كان العقل مليئًا بالغضب .

في الزن نحن لا نصف الله بل نختبر اللغز العظيم في عظامنا ولحمنا وقلوبنا متحولين إلى كائنات بسيطة غير مؤذية .

قد يشعر البعض أنه وللوصول إلى سلامهم يجب أن يرفضوا حياتهم أو سمساراهم، (والسمسارا هي العالم

الظاهري، هي دورة الوجود المتكررة لتفاصيل حياتنا اليومية بما فيها من صراعات ونزاعات وأشواق

وخيبات)، فيما قد ينضم الآخرون إلى جماعات مختلفة ويبدوون بالصراع مع بعضهم البعض لأن أحداً لا يرى ما يتمكنون هم من رؤيته.

إن ذلك يذكرني بقصة الشاب الذي اكتشف المرأة للمرة الأولى وظن أنها صورة لوالده المتوفى في شبابه وقد كان يخفي سره الثمين في العلية بعيداً عن زوجته التي لم تكن تحب والده، كان يقضي ساعات طويلة في العلية لأن هنالك العديد من الأمور التي لطالما رغب بمناقشتها مع والده ولم يتاح له ذلك.

وما كان من بقاءه الطويل في العلية إلا أن يثير الريبة لدى زوجته التي تسلفت في إحدى الأيام ووجدت المرأة وقد انعكس عليها وجهها، فعندما عاد زوجها عاتبه وتشاجرا طويلاً، فقد كان كلُّ منهما يرى أمراً مختلفاً عن الآخر.

هو يرى والده، وهي ترى امرأة ظنت أنه يخونها معها.

ولذلك احتكما إلى راهبة كي تفصل الأمر بينهما، والتي سرعان ما أصدرت حكمها بمجرد النظر للمرأة فقالت لهما: (إنها راهبة).

"إن شقاء الناس أنهم لا يعيشون في العالم بل في عالمهم الخاص"

قلت لنفسي وأنا أسقي الأزهار التي كانت تتمايل تحت قوة دفع الماء، ثم تعود وتنصب بذات العنفوان والقوة والجمال من جديد.

كنت أسير على الطين الندي حافية القدمين وفي تلك اللحظة شعرت برغبة لأن أشارك الأزهار حمامها البارد. غيرت اتجاه دفع الماء الذي اندفع نحو الأعلى لامعاً تحت أشعة الشمس، وتحت تأثير ثقلها كانت القطرات المنعشة تهبط للأسفل فتساب على وجهي وتبلل أهدابي وشعري بينما كنت أدور حول نفسي بذات الطريقة التي تحوم فيها الفراشات حول الورود.

في تلك اللحظة لم أكن أسقي نفسي كوردة فحسب، بل كنت الفراشة التي تدور حول الوردة أيضاً .

لقد كنت أسقي الجمال داخلي، أسقي الصفاء والسلام والحبّة.

إنني مبتلةٌ وسعيدة ومنعشة ومشرقة . . . وذلك لا يحتمل الصواب أو الخطأ .

لم يكن في تلك اللحظة أثر لقردي وأنا أرشق الماء نحو العشب لكن كان هنالك سوطاً محتباً بين الأعشاب، لا بد أنه كان يخلص القرد المتذمر .

عندما توقف الماء عن التدفق تذكرت حروفاً سمعتها في أحد أركان المعتزل:

"أن تدرس الزن يعني أن تدرس النفس، وأن تدرس النفس يعني أن تنسى النفس وأن تنسى النفس يعني أن تتحد بالأشياء جميعاً".

فعل اللاشيء

إن هنالك تقدير دائم للفنانين، لأولئك الذي يملكون حناجر ذهبية أو ريشات ماسية أو الذين يحولون الحجارة إلى منحوتات ساحرة، لكن فنان الحياة مصطلح غريب على الرغم من أننا جميعاً نولد كهناين حقاً .

إن فنان الحياة لا يحتاج إلى أداة ما للتعبير عن فنه، لا يحتاج ريشة أو إزميلاً أو حتى حنجرة، فالمرء لا يحتاج للخروج من ذاته فموهبتة وبراعته ووسائله تأتي معه عند ولادته .

وكل ما عليه هو الدخول في الشيء نفسه ورؤيته من الداخل، وأن يبحث عن حياة تكون فيه الحياة مجد ذاتها عملاً فنياً .

الجسد هو المادة الموازية لقماشة الرسام وخشب النحات وكرمان الموسيقي، هو المادة التي يصوغ بها الإنسان عبقرته الإبداعية على هيئة تصرف وسلوك، فيمتلك القدرة على تحويل الحياة الرتيبة إلى فن حقيقي.

يمكن أن يكون الفن طبقاً شهياً، أو حديقة نضرة، أو زهوراً منسقة، أو عقلاً أكثر سلاماً.

كان فنانو الحياة وأولئك الذين يسعون لاكتشاف فنهم الخاص مجتمعين في سهل يدعى سهل النور وقد نصبت فيه عدد من الخيم البيضاء وسط الأعشاب الغضة، وزينت تلك الخيم بحبال ضوئية تلتصع من مسافات بعيدة حيث يمكن رؤيتها من سطح المعتزل بوضوح ليلاً.

كان هذا السهل معداً للاجتماعات بين المريدين والمعلمين، لتبادل الخبرات وطرح الأسئلة ولعرفة الذات بشكل أفضل أو للاتحام بالطبيعة فحسب.

كنت قد توجهت أنا وساتوري للقاء غواتاما الذي ترك المعتزل منذ ذلك الحين عندما صعد المركب، وكنت على يقين أنني سألقاه في سهل النور.

كانت النسمات اللطيفة تحرك شقائق النعمان والأعشاب الخضراء في السهل، أما الشمس فكانت تتوارى وتظهر ذلك النهار بين الغيوم الكثيفة، وكان صوت المتأملين يصدح وهم يرددون سوترا اللوتس مشاركين بإيقاع الكون أثناء تأملهم.

أما غواتاما فكان يجلس في إحدى الخيم البيضاء وقد انعكس الوهج الأبيض على وجهه وازداد نوراً في اللحظة التي ابتسم فيها عند دخولي الخيمة.

— ماذا يا زين... هل يمكن لكل ما تجربته أن ينهي العلل الجسدية؟ سألني غواتاما وقد حضن يدي بين يديه.

— نعم لكن كنتيجة ثانوية، أما النتيجة الأولية فهي إنهاء التوترات الذهنية... أجبت.

هز رأسه وقد ارتسمت حول عينيه وفمه المزيد من التعبيرات:

ـمن منظور الزن هنالك ثلاثة أنواع من الأفعال، أفعال جسدية وأفعال لفظية وأخرى عقلية، قد نظن أن الأفعال الجسدية هي الأكثر أهمية، فنحن نعتقد أن ضرب شخص ما أسوأ من إهانة لفظيًا .

لكن وفقًا للكارما إن الفعل العقلي هو الأعظم أهمية، فالعقل يسبق جميع الظواهر وهو الأهم لأن كل شيء من صنع العقل .

قام غواتاما بصب محتوى فيجان كان أمامه في إناء فخاري واسع مملوء بالماء، وسألني: ما الذي تريته؟

قربت رأسي أعلى الإناء وأجبته: إنها موجات اهتزازية حصلت بسبب ارتطام القطرات بسطح الماء .

ـوما الذي سيحصل لها بعد عدة ثوانٍ؟

ـستختفي .

ـكل ارتطام واصطدام ومعاناة ستنتهي إن سمحنا لها بذلك بذات الطريقة التي توقفت تلك الدوائر عن الظهور على سطح الماء .

إن معاناتنا تكمن بردود أفعالنا العنيفة تجاه ذاتنا وكل ما حولنا، ولو انتهت ردود الأفعال هذه لانتهد المعاناة .

توقف عن الكلام فشعرت أنه عليّ أن أفسح مجال الحديث لساتوري، التفت للخلف حيث توقعت أن يكون لكنني لم أجد أحدًا، وخارج الخيمة كان هنالك العديد من المريدين لكن ساتوري لم يكن أحدهم .

ـما الذي تبحثين عنه؟ سألني غواتاما .

ـإنني أبحث عن ساتوري، إنه أحد المريدين الذين التحقوا مؤخرًا بالمعزل .

ضحك غواتاما كثيرًا وظهرت في فمه بعض الفراغات الناتجة عن خسارته لأسنانه .

لم أعلم سبب ضحك غواتاما، لكنني تابعت في اللحظة التي انخفضت فيها وتيرة ضحكاته:

لقد سبق أن التقيت به وهو مصاب بجراح وملقى أمام قاعة الطعام في المعتزل.

وقد كان حليق الرأس ولديه جراحًا في صدره؟

تمامًا .

ما من شاب في المعتزل يحمل هذا الاسم .

كيف استطعت أنت وصفه إذن؟

لأنه لا بد أن يشبهك .

تأملني وأنا جالسة أمامه بثوبي الأبيض ورأسي الحليق بينما كنت أضع راحتي يدي على صدري .

إن ساتوري في اليابانية تعني الصحوة . وساتوري كان صحوتك .

لقد كانت صحوتك محتفية في البداية، وعندما وجدتها كانت دامية ومنهكة وغير قادرة على النهوض، لكن ما

أن تمكنت من الدخول لكهفك المظلم لمواجهة كل مخاوفك وعيوبك وأشباحك الجائعة بدأت صحوتك

بالتعافي

نهض غواتاما وقبل أن يخرج من الخيمة ردد بضعة كلمات .

هل لديك صبر على الانتظار

حتى يهدأ عقلك ويسكن

ويستقر الماء ويصفو

هل لديك صبر على الانتظار حتى يظهر الفعل الصحيح . . . من تلقاء ذاته

كان الهواء يحرك قماش الخيمة بينما تقدم جسد غواتاما في العشب الأخضر ليندمج بسهولة النور .



كُتبت سارة ذلك اليوم:

مما لا ريب فيه أن الإنسان بحاجة لتبرئة ذاته من آثامه أمام نفسه وهذا يتطلب جهداً كبيراً يفوق جهده المبذول أمام الآخرين ليبيد حسن نيته وطبعه وأخلاقه.

وإنه لمن السهل خداع عشرات بل مئات الأشخاص بذلك، فبإمكانك أن تظهر كرمك أمامهم وتزيد من صدقاتك وإن لم تشأ أن تبذر مالا كثيراً فبإمكانك أن تشبههم فحسب وسيساحوك.

يكفي أن تقصد الأماكن التي يقصدونها، وتقرأ الكتب التي يقرؤونها وتوافقهم الرأي حول أشد الأفكار إثارة للجدل، وترتدي زياً لا يختلف كثيراً عن أزيائهم، معلناً عن نيتك بأن تشبه كل من حولك فلا شيء قد يثير الرغبة بالغفران عند شخص ما أكثر من رؤيتك تحاول الاقتداء به وأن تدعن لمبادئه وتصبح أولوياتك كأولوياته. فإنك بذلك تتحول من شخص يشكل خطراً إلى نسخة طبق الأصل، ولا يمكنك أن تلومهم فأنت قطيع في هذا العالم قد يهلع ويصاب بالتوحش عند اندساس فرد مختلف داخله، سواء أكان قطعاً من الغزلان أو الذئاب أو البشر، فالأمر سياتي لا بل هو أكثر صعوبة عند البشر الذين إن أمعنت النظر إليهم ستجد تحت جلدهم كائنات لا تشبه ما يظهرونه لك ومع ذلك عليك أن تشبههم لتندس بينهم.

أما التحدي الأكثر صعوبة هو أن يغفر الإنسان لنفسه هو الذي يميز كذباته وتقمصاته جيداً ولا يستطيع أن يخدع ذاته بسهولة، لكنه قد يحاول تضخيم آلامه عابثاً بجراحه القديمة كي تنزف من جديد، وحينها قد يستمتع وهو يقطر دماء لأن نزيفه سيسمح له بإخفاء أمر شديد الأهمية.

ستختلط دمائه بدماء من طعنهم في ظهرهم أو في أعماق نقطة من قلوبهم وحينها يمكنه براءة أن يفتح كفيه مظهرًا أن لا سلاح بين يديه ومظاهرًا بأن كل ما يحيط به هي دماؤه، دماؤه فحسب.

لم يسمح وسام يوماً لجروحه أن تلتئم طلباً لهذه اللذة الماكرة، فقد كان يصنع من كل امرأة يقابلها أمه التي يكرهها، وكان يزداد تحدياً حالما يشعر أن التي قابلها لا تشبه والدته فيصّر على تحويل سلوكها ليأخذ المنحى الذي يمتقه فقط كي يجد مبرراً لإيذاها .

لقد كان يتغذى على أمنياتهن وأحلامهن، فيحقق ما يستطيع منها أو يخدعهن بقدرته على ذلك .
تاركاً كل واحدة منهن لتساءل عن الخطأ الذي اقترفته كي تعجز عن الاحتفاظ بالحلم الذي امتلكنه، مكيلةً التهم إلى نفسها .

كيف لا يفعلن ذلك وهو الذي لا يبدو أمامهن إلا بمظهر المثلث لتفاصيلهن وأحلامهن، إلى طفولتهن وحزنهن وسعادهن ويحاول جاهداً أن يكون جزءاً من كل ذلك .

ولن يدور بخلد إحداهن أنه يقوم بذلك فقط من أجل لحظة لذة واحدة، لحظة يشعر فيها بأهميته وقوته المتمثلة بقدرته على إنهاء كل ذلك وقت يشاء مع تأكده من إبقاء مكانه شاغراً في قلوبهن، فقد كان يجاهد دوماً للظهور بأفضل صورة ممكنة .

لكنه من جهة أخرى يجهل بأنه لا يهجرهن بل يهجر أمه التي تركته صغيراً، إنه لا يحرمهن الأمان الذي أشعرهن به بل يبذل جهده ليحولن إلى ذلك الطفل الذي كانه دوماً ولم يستطع أن يتحرر منه .

ولا يمكن تخيل كم يمكن للإنسان أن يبذل من جهد لجعل الآخرين يعانون الذي عاناه فقط لأنه لم يتحرر من آلامه .

أما مشاعر الفتيات اللاتي كنّ مسرحاً لتجاربه الشعورية كما يروق له أن يسميها فلم يكن لها أية قيمة تذكر، لقد كان يمر عليهن كمخبري يحقق فترانه بمادة ما ليدرس تأثيرها فحسب، ولذلك لم يذكر شيئاً عن ناي التي كانت تبسم ابتسامة مائلة طيلة فترة استماعها لاعتراقاته، ولو لم تخبرني هي بشكل منفرد عما قد حصل ما كنت لأتكن أنها إحدى تجاربه لأنه لم يوحى لأحد من حوله بذلك، لا بحديث ولا إشارة ولا إيماءة .

وبالرغم من كل ذلك سيغفر وسام لنفسه دومًا فما هو بنظر ذاته إلا ذلك الفلفل الحار الذي حدثنا عنه معترفًا
بأثامه عن طيب خاطر كأنها لم تكن، متجاهلاً كل نساء فترة شبابه.

فكل النساء اللاتي امتلكن بصمة حقيقية في حياته قابلهن في طفولته المبكرة أما اللاحقات فلم يكن إلا لتأكيد
نتيجة كان قد اقتنع بها سابقًا.

أنهت سارة الكتابة على الوجه الأول للورقة ثم قلبتها لتدون:

ملاحظة ثانية

لم يتحدث وسام كثيرًا عن والده، ولم يبدِ دافعًا كبيرًا من مشاعر الحب أو الشفقة تجاهه بل مرّ على ذكره بشكل
عابر فقط ليؤكد على دوره هو كضحية مظلومة بلا سند حقيقي منذ الصغر، غير راغب بنقل أضواء البؤس في
حياته إلى شخص آخر. وإنني أظن أن ذلك قد راق له بطريقة ما لأنه تمكن من صقل ذاته لاحقًا ليعتمد على
نفسه بشكل كلي، مستفيدًا من ذلك الضعف في ملامح والده والذي كان يتقمصه في الأوقات التي ينبغي له فيها
أن يكون مسالمًا ومستكينًا.

إن ضعف الآباء وذلم وهوانهم إما أن يخلق أبناء مستضعفين بذات الصورة أو شرسين شراسة لا يمكن التكهّن
بخطورتها.

ملاحظة ثالثة:

لا بدّ أن الخبرة الجنسية الأولى التي عاينها عندما تسلل لمنزل جارتها قد حفرت صدمة عميقة داخله وأزعجته
لأنه لم يكن يرى فيها إلا الأم التي تمنّاها لتعتني به، وبذلك تحولت في نظره إلى امرأة لا تختلف كثيرًا عن والدته التي
خانت والده وتركته من أجل رجال آخرين.

فشعر بأنه قد تم هجره مرة أخرى إثر ذلك فأبعده الاشمزاز والشعور بالخذلان بعيداً، لكن ما أثار استغرابي أنه عاد مرة أخيرة إلى منزلها بعد تلك الحادثة التي مال لتصويرها على أنها كرة ثلجية باردة وهو وصف أبعد ما يكون عن علاقة حميمة بين شخصين.

لا بد أن هذه الكرة تدرجت كثيراً في عقله لاحقاً لتكبر أكثر وأكثر لكنها بقيت شديدة البرودة خالية من أي دفء، فهذا الشاب غير مهتم باستغلال أجساد النساء بل هو حتماً مهتم بشيء آخر، لكنه يصطنع النقيض ليبدو بالصورة التي يحاول الظهور بها دائماً.

ملاحظة أخيرة

إنني على يقين أنه لم يثق يوماً بشخص ما ولم يُسر في هذه الاعترافات أو غيرها عن كل ما يشغله من أفكار ومشاعر واختلاجات نفسية، ولو كان لدي الفرصة لاستخدام مصطلح الحقيقة على شخص واحد في هذه المجموعة لكان وسام حتماً وبكل تأكيد.

إن كمية قليلة من بنوتال الصوديوم كافية لإظهار شخص يثير الدهشة أكثر مما قد فعل هذه الليلة.



وبهذه الملاحظات المخطوطة على ورقة بيضاء غلفت سارة شريط الكاسيت الذي يحوي اعترافات وسام، أو ما كان يحلو له فقط أن يعترف به، أليس هو الذي قال: (نحن غالباً نكون ما لا نخبر به الآخرين أبداً)!

أما وسام فقد كان يتسم تلك الليلة بنصر وهو ينظر للسماء من نافذة غرفته في منزل الضيوف مفكراً بكل ما حصل طيلة الاعترافات وقد كان يشبك أصابعه ملامساً فمه بأطراف سبابتيه.

لحسن حظه لم يقيم بهذه الإيحاء أمامهم فقد كان من الممكن لسارة أن تشعر بإخفائه لشيء ما، أو ليس للحظ ارتباط بذلك، فالأمر كله قائم على التدريب وقراءة عشرات الكتب عن لغة الجسد.

هو لم يلمس شفثيه أو يحك أنفه والأهم من ذلك لم يحف فمه بيديه وهو يسرد لهم قصة جارتة، بل كان واعياً لكل الحركات التي كان يقوم بها منتبهاً لعيونهم المتسعة وأفواههم الفاغرة قليلاً، فبعضهم كان يلامس ذقنه بسبابته وإيهامه وآخرون كانوا يتسمون ابتسامة مائلة.

كان يعلم أنهم كانوا يقيمونه، يزدرونه ويستهنئون به، وربما كانوا مندهشين لما قد باح لهم به.

إلا أنه راضٍ عن نفسه تماماً فقد تعلم عبر حياته الكثير من الدروس واستنتج العديد من الاستنتاجات الهامة لاسيما من القصة التي أخبرهم إياها .

تعلم أنه عندما نهتم بالآخرين علينا أن نقوم بذلك دون أن نخبرهم، فإن أردت أن تكون جنياً للأمنيات الصغيرة عليك أن تكون غير مرأي، ففي اللحظة التي تخبر الآخرين أنك قمت بشيء ما من أجلهم لن تعود مُحققاً للأمنيات الصغيرة... ستكون جنياً مرئياً مخيفاً فحسب.

ربما لأنهم يخشون من ضرورة وحتمية رد الجميل، أو لأنهم لم يتوقعوا أن تكون قريباً إلى ذلك الحد بحيث أصبحت تتجول في حياتهم دون إذن منهم وأنه بإمكانك الظهور والاختفاء متى شئت .

إنه غير مكترث تماماً لأفكارهم عنه إلا أنه مضطر لإخفاء بعض الأمور فقط كي يتمكن من الاستمرار .

تُرى ما الذي كان من الممكن أن يقوموا به لو علموا حقيقة ما فعله ذلك الطفل الخبير بكشف الأسرار .

إن هنالك الكثير من الأسرار التي باحت بها الجمادات في ذلك المنزل، وكل ما عليه أن يصغي لها بهدوء فقط....

فعبارة "أنا أحبك" التي يقولها الدب المستلقي على سرير الزوجية الخاص بجارتة لا يمكن أن تخفي العبارة الحقيقية "أنا لا أشعر بالأمان معك... أنا لا أثق بك".

لقد كان اكتشاف ذلك سهلاً فعوضاً على أن يضغط على يد الدب قام بتمزيق ذلك الخيط الأبيض في بطنه فظهرت حزمة من المال أخفتها الحارة عن زوجها .

وقد أخبره كيس الأرز في الدرج الثاني على يسار الفرن في المطبخ سرّاً أكثر أهمية عندما رأى بين حباته البيضاء ظرف دواء مرقم بأيام الأسبوع، وكذلك فعلت تلك البلاطة المتحركة التي أخفت تحتها هاتفاً محمولاً قديماً وصامتاً .
أما خزانات الملابس فقد وشت بأن رجل هذا المنزل لم يلبس يوماً ربطة عنق حتى في يوم زفافه، لقد كان من أولئك البسيطين الذين لديهم الكثير من الهموم الخائفة بحيث لا يحتاجون لما قد يحبس المزيد من الهواء عنهم .
إن الأطفال يعلمون الكثير من الأشياء وذلك لأنها تحدث أمامهم وأنت غارق في طمأنينتك وكلك ثقة بأنهم لن يدركوها . . .

كل ما قد قام به الطفل وسام أن أخرج تلك الأسرار من مكانها . . . ووضعها جميعها أمام جارته في اليوم الذي طردته من منزلها، لكنه احتفظ ببعضها ليظهرها أمام زوجها بشكل لاحق .
ربطة العنق والمال في بطن الدب المحشو ومانع الحمل والهاتف المحمول . . .

هو لم يقتلها، لكنه رتب لقتلها فحسب! ترى هل سيسيّهم إن عرفوا ذلك! هل التخطيط لقتل الجسد أكثر خطورة بالنسبة لهم من قتل الروح أم ماذا؟ فكر بذلك وهو يحبس خنفسة مضيئة داخل كأس ماء بلاستيكي كانت تتحرك على الزجاج أمامه .

أغلق النافذة وأسدل الستائر واضعاً الكأس المقلوب على الطاولة المجاورة لسريره بعد أن أحدث فيه ثقباً صغيراً، ثم أغمض عينيه .

إنه يملكها الآن، يملك ضواها الذي كان سيخسره لو قضى عليها بضربة واحدة ولذلك لن يفعل! لقد تعلم درساً لا يمكن أن ينساه من تجربته الأولى في مخبره العاطفي .

نهض من سريره فجأة وكأنه تذكر أمرًا ملحًا ثم أخرج من جيبه تلك القائمة التي تحمل أسماء نساءه وعند السطر الأخير كتب الاسم الذي لطالما قام بشطبه.

(ناي) كتب تلك الحروف الثلاثة على الورقة، ثم وضع القلم جانبًا وأعاد الورقة إلى جيبه مرتبًا عليها مرتين.

كتب اسمها لأنها انتشلت جسده من الماء في رحلة الهروب، لقد حقق لها أمنيته، لقد سمح لها بإقناذ شخص ما على سطح هذا الكوكب، لقد مكثها من إنقاذه ولذلك أصبح بإمكانه الرحيل.

قام وسام بفتح النافذة مرة أخرى وقد شعر بنشوة الانتصار وهو يطرق حواف الكأس برؤوس أصابعه، فبدت الخنفسة أكثر تحبُّطًا داخل الكأس وبعد ثوان قليلة سمح لها بالهروب خارجه.

اصطدمت الخنفسة بزجاج النافذة عدة مرات قبل أن تتمكن من الهروب وقد كانت تبدو مرتاعة. سوف تبعد عن أولئك الكائنات التي حاول أحدها إنهاء حياتها قبل قليل، وستكون أكثر حذرًا في المرات المقبلة.

قطعت الخنفسة الهاربة مسافة بدت لها طويلة جدًا واستغرقت عدة أيام قبل أن تستقر على زهرة الـ Night Sky وقد بدا وهجها أكثر جمالًا على بتلات تلك الزهرة.

ستصبح هذه البقعة التي بدت بعيدة عن الخطر ملجأها الجديد، ففي هذا المكان يوجد العديد من الأشجار والكثير من الأزهار وناصيتان رخاميتان لم تدري الخنفسة الهدف منهما إلا أنه كان يحلو لها أن تدور حولهما لتقفز في إحدى الأزهار المحيطة.

قضت الخنفسة وقتًا رائعًا وآمنًا لعدة أيام وقد كان الهدوء يعم مسكنها الجديد حتى اللحظة التي نبحت فيها لوسي من خلف زجاج النافذة بصوت عالٍ.

كانت لوسي تضع قائمتيها الأماميتين على النافذة من الداخل بينما يتدلى لسانها على الزجاج منشده بصوت تلك الخنفسة، وبالرغم من أن هذه الحركة كانت ستثير انزعاج سارة لأنها ستضطر لمسح الزجاج عدة مرات جيداً ليعود نظيفاً إلا أنها لم تكن متفرغة لتوبيخ لوسي على فعلتها، فقد كانت منشغلة بتقديم الحلوى لضيوفها .

في الحقيقة هي لم تقدم لهم الحلوى والشوكولا الساخنة فحسب، بل قدمت لهم طبقاً رئيسياً غير متوقع .

وقد كان آدم هو الطاهي الرئيسي لهذا الطبق، إنه طبق خاص ومميز يمكنهم من خلال تجربته تكرار حياتهم بطريقة مختلفة .

لقد كان آدم ماهراً بإضافة مشاعر لذيدة لإغوائهم، فبحوضهم هذه التجربة من الممكن أن يتذوقوا سعادة غير متوقعة وأن يتخلصوا من ألم قديم لطالما قض مضجعهم .

وقد أضاف توابله الشهية عندما أخذهم بجولة سحرية في المختبر، وكان بإمكانه ملاحظة ملاحظتهم المدهشة بكل ما حولهم . . . بالحاسوب العملاق والأسطوانة المتوهجة بل إن بعضهم حاولوا لمس الأوراق الممتلئة بالمعادلات الرياضية .

وقد كان شبه متأكد أنهم سيشاركون في تلك التجربة وأنهم سيدلفون إلى الثقب الدودي واحداً تلو الآخر ليتمكن هو من متابعة خطاهم على الحاسوب كما وضع لهم .

وبعد انتهاء تلك الجولة صعدوا الدرج الحجري المفضي إلى المكتبة ثم توجهوا إلى الصالة واتخذ كل منهم مكاناً له وبالرغم من جلوسهم معاً إلا أن كل شخص منهم كان يعيش في حيزه الخاص .

كانت ناي تساعد سارة في نقل الأطباق من المطبخ إلى صالة الجلوس، لكنها توقفت لثوانٍ معدودة عندما رأت

طبقاً من بسكويت الزبدة على المنضدة الرخامية في المطبخ حيث التمعت البلورات السكرية على سطحه، بينما عبت رائحة قالب حلوى أضيف إليه قشر برتقال طازج وقد كان آدم يزينه بوضع عدة شرائح من البرتقال على سطحه.

تسمرت ناي في أرضها عدة ثوانٍ قبل أن تحمل قالب الحلوى إلى الصالة.

لوهلة شعرت أن القالب ضخم جداً... أكبر حتى من كل حقول البرتقال في قريتها وشعرت أنها صغيرة جداً بحيث يمكنها أن تركض مسافات طويلة على ذلك القالب... إلا أنها ستصل حتماً إلى المكان الذي ستعاق فيه والدتها.

لقد شعرت أن الأمر سيكون أشبه بإعادة تشغيل.

يمكنها أن تغمض عينيها بسلام فتعود والدتها ويعود مشمش وربما تمتلك قلباً جديداً قادراً على النبض من جديد بطريقة مختلفة.

فكرت أنها بحاجة لتتخلى عن الحذر، فبالرغم من أنه يبقئها على ضفة آمنة إلا أنه يحرمها لذة الشغف والمغامرة والتجارب الجديدة.

تأرجح القالب بين يديها تلك اللحظة بالرغم من أنها حاولت أن تمشي ببطء وحذر وكادت أن توقع القالب عندما اقتربت من حائط الذكريات، فما كان من سارة إلا أن أخذته من بين يديها ووضعتها على الطاولة الأقرب إلى أيل التي أخذت نظرة عابرة على قطع البرتقال الطازجة في الوقت الذي كانت تفكر بشيء برتقالي آخر.

ماذا لو كانت نظرية قصي صحيحة! هل يمكن للكون أن يعيدنا بلا خدوش أو جروح أو حروق، هل للكون طريقته في منح كل إنسان فرصة ليكون نجم بحر فعلاً!

كانت أيل تقرب شفيتها من الكوب وتوهم من حولها أنها ترتشف الشوكولاته الساخنة، إلا أنها كانت تقوم بذلك فقط ليشعروا أنها تشاركهم شيئاً ما، بينما كانت تشد على الكوب براحتي يديها .

كانت تطبق عليه ضغطاً دون أن تشعر حتى وقد كان ذلك مجرد انعكاس للضغط الداخلي الذي تعاني منه إنها مترددة!

ماذا لو عاد زوجها من جديد لحياتها . . . ماذا لو كان أكثر قسوة معها فقط لأنها قامت بقتله في هذه الحياة . تذكرت اللحظة التي نزعت الأنايب المغذية من جسده وقناع الأوكسجين عن وجهه .

لقد بدا لها مرعباً حتى في تلك اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة، كانت عيناه شاخصتان بينما كان يد أحد ذراعيه ليمسك بها إلا أن قواه الواهنة لم تمكنه من ذلك .

لو كان الكوب أقل سماكة لكسر بين يديها لا محالة، لكنه ما زال يقاوم الضغط .

ترى هل بإمكانها أن تحصل على ما رغبت به وخسرته من خلال التجربة التي ستخضع لها .

فكرت بنجوى وأخواتها ووالدها، لكن قصي احتل الحيز الأكبر من أفكارها، ربما بإمكانها أن تحظى بحبه الذي حرمت منه . . . ربما في حياة أخرى لن تكون صريحة إلى ذلك الحد الذي قد تعترف له بإنها لها حياة شخص آخر .

فكرت . . . هي لم تقتل زوجها، هي ساعدته على اكتمال موته المحتم فحسب فقط كي تستطيع الحياة .

غمر أيل شعور مفاجئ بالضيق ولاحظت أنها ستكسر الكوب إن بقي بين يديها فتركه وقامت بإشعال سيجارة أملت أن تساعد على الاسترخاء .

وأخذت تردد داخل نفسها أنها ستكون نجمة بحر برتقالية مكتملة، لا شيء ناقص خارجها أو حتى داخلها

بينما تقرت الأرض بقدمها عدة مرات.

تصاعد الدخان من سيجارة أيل ولفّت هالة دخانية نورسين التي كانت تجلس بالقرب منها، والتي بدت كتمثال ساكن تمامًا إلا أن عقلها كان يضحج بالحركة التي لم تمكنها حتى من سماع السؤال وجهه أحدهم لآدم في تلك الأثناء . شيء ما كان يغريها حول فكرة الأكوان المتوازية، إنها تشبه القصص التي كتبتها فيما مضى بنهايات مختلفة قبل أن تهتدي للسيناريو الأخير الأمثل .

كان قلبها يخفق وتمتت لو بإمكانها في تلك اللحظة أن تدلف إلى داخل الأسطوانة المضيئة تلك لتلتقي سريعًا بـ مريم .

لقد تخيلت نورسين نفسها تلك اللحظة بإحدى أثواب الساتان الرقيقة والقصيرة وهي تمشي بهدوء في تلك المتاهة . إنها تعرفها جيدًا ومن غير الممكن أن تضع ضمنها، لقد كان طريقها واضحًا ومهدًا وكأنها لم تكن متاهة منذ البداية، بل مجرد طريق سلس ومرجح يمكن أن تسير فيه دون أن تعلق في منحنياته .

في نهاية ذلك الطريق كان سرير مريم الأبيض ينتظرها وقد كان ذلك السرير كبيرًا بشكل غير متوقع بحيث تمكنت من الاستلقاء عليه .

إنها مستسلمة وهادئة وما من شيء يعكر صفوها، كانت تحاول لمس النجوم اللامعة المتأرجحة أعلى رأسها بأطراف أصابعها إلا أنه خلال دقائق ظهر رأس في مجال رؤيتها .

لقد كان رأس مريم التي كانت تضحك بسنيها اليتيمين بينما يسيل لعابها على ذقنها .

لقد كانت مريم ضخمة جدًا بحيث يمكن لها أن تحمل أمها وتعانقها لو شاءت بذات السهولة التي قد تحمل فيها لعبة بين يديها .

تعالى إلى مسمع نورسين صوت قرع أقدام متسارعة تطرق طرقات المتاهة، فنهضت من السرير الأبيض لتستعلم عن مصدر الصوت فرأت شخصاً يركض نحوهما بأسرع ما يمكن له .

لقد كان يركض ويركض ويركض محاولاً الوصول إليهما .

إنه والد مريم .

شعرت نورسين براحة لأنه كان يعاني بغية الوصول إليهما، وبالرغم من فرحها بمعاناته إلا أنها تمتنت أن يصل في وقت ما .

تمددت ابتسامة نورسين رويداً رويداً حتى باتت ضحكة مكتملة أثارت انتباه أصدقائها فالتفت جميع الرؤوس نحوها .

شعرت بالحرج قليلاً إلا أنها تجاوزت ذلك الشعور فما فكرت فيه كان يستحق حتى لو بدت أضحكة في نظر من حولها .

لكنها كانت قد فوتت جزءاً هاماً أثناء أحلام يقظتها عندما سأل حليم آدم عن مدى جودة السيناريوهات المتاحة المنتظرة، وفي تلك اللحظة لم يخفي آدم الحقيقة عن حليم فأخبره أنه ما من شيء قد يضمن أن حياتهم الجديدة قد تكون أفضل أو حتى أسوأ .

عندما سمع حليم ذلك ابتسم ابتسامة ساخرة وخرج من أنفه زفير قوي بحيث ارتد رأسه نحو الخلف .

وبالرغم من أنه هو الذي وجه ذلك السؤال لآدم إلا أنه فعل ذلك كعقوبة من الفضول، فهو لم يكن حقاً مكترثاً للإجابة .

فقد كان مقتنعاً أنه ما من شيء ليخسره، وأنه عاش السيناريو الأسوأ على الإطلاق .

ربما في حياة أخرى سيتمكن من الحصول على المزيد من الأشياء .

مسكن أفضل، عائلة محبة، معاملة الُطف .

ترى هل يمكن لحياة حقيقية أن تغلب على جودة خيالاته، فقد تخيل طيلة حياته كل ما يمكن أن يتم بأبهى صورة ممكنة .

نظر إلى ذراعه في تلك اللحظة واستحضر كل الأفعال التي كان من الممكن أن يقوم بها بسهولة أكبر فيما لو امتلك ذراعين . . . لا سيما عناق أحدهم .

إلا أن ذاكرته لم تستحضر شخصًا واحدًا جديرًا بالعناق .

شد بيده السليمة على ساقه بحيث حاول إيلاء نفسه، ليشئت اتباعه عن ذلك الألم النفسي الذي تملكه .
حسنًا لو اكتسب ذراعًا جديدة سيعانق دبه باربي بعد أن يقوم بقطب أذنه الممزقة، تلك الأذن التي لطالما باح لها بالآلمه حتى تمزقت .

أما وسام فقد تناهى إلى سماعه صوت من نوع آخر، إنه رنين خاص ومميز .

رنين أساور والدته وهي تحرك من أجله السكر في كوب الحليب على وجبة الإفطار .

إن كوبًا واحدًا من الحليب وعناق دافئ كان من الممكن أن يبقيه داخل منزله إلى الأبد دون أن يتسلل إلى الشقق المجاورة باحثًا عن دفء منزلي الصنع .

كانت سارة الوحيدة التي لاحظت ملامح الاستجداء التي ظهرت فجأة على وجه وسام .

ترى هل يمكن للكون أن يقدم له كوبًا من الحليب بالفانيليا كعربون صلح عما مضى ليصبح شخصًا آخر مختلف تمامًا .

ازدرد وسام لعابه وعندما قرب كوب الشوكولا الساخنة وتذوقه صُدم لأنه كان يتوقع نكهة أخرى مختلفة .

كان ينتظر ذلك الملمس الخفيف والحريري للحليب وأزعجه ذلك الملمس الثقيل والحلو فقام بإعادة كوب الشوكولا إلى الطاولة والذي اصطدم بزجاجها مما أثار انتباه بحر.

لقد كان بحر أكثرهم حيرة فبالرغم من أنه من الممكن أن يكتسب الكثير من الأمور في حياة أخرى إلا أن ما من أحد قد يضمن له فقدانه لأمر أكثر أهمية.

فكر بعائلته الحنونة، بالفندق الذي ترعرع فيه، بوالده الذي لم يقابله، بموهبته، بمعلمته التي أعجب بها يوماً ما، فكر بورد وبصديقه وائل أيضاً.

ماذا لو كانت الحياة الجديدة فرصته كي لا يخسر وائل... ماذا لو لم يخسر عينه!

لكن ماذا لو فقد مقابل ذلك أحد أفراد عائلته!

إنه لا يعلم الآلية التي قد يعمل بها هذا الكون حقاً... هل هو عشوائي أم منتظم بصورة فائقة العدل.

كان جذع بحر منتصباً بينما كان يلامس ذقنه بيده محاولاً اتخاذ قراره أما قدماه فكانتا متجهتين إلى حيث كان يفكر... نحو غرفة المكتبة.

وعلى الكرسي القريب من بحر كانت تجلس زين وهي تتأمل حائط الذكريات أعلى المدفأة إلا أنها في الحقيقة لم تكن ترى أيًا من الصور المعلقة فقد كان ذهنها مشغولاً بالكثير من التساؤلات.

"ماذا لو لم يكن هنالك حرب في الكون الموازي لكوننا هذا؟" فكرت زين وهي تمسك قطعة بسكويت بيديها.

لكن ماذا لو قامت حرب أخرى أكثر شراسة!

قبضت على الطبق بقوة.

ماذا لو كان جسدها معافى منذ البداية... هل كانت حياتها لتأخذ منحى آخر!

ألم تكن المعاناة هي من أوصلتها إلى ما هي عليه اليوم؟

إن طريق الألم أوصلها إلى أمر ما فائق الأهمية.

أوصلها إلى السلام والصفاء والتوازن. . . أوصلها إلى نفسها !

لقد اكتسبت القدرة ليس فقط على مراقبة العالم الخارجي بل على مراقبة عالمها الداخلي أيضاً .

وضعت الطبق أمامها وأخذت رشفة من الماء الذي انساب داخلها فاسترخى وجهها الذي علتة ملامح الانتعاش .

إنها في هذا العالم وفي أي عالم آخر ستكون على ما هي عليه الآن، فالأمر كله يدور حول جوهرها .

أما سومر فقد كان جالساً على الكرسي الأبعد عن الحلقة الوهمية التي يتوضع ضمنها الأصدقاء .

كانت راحتا يديه منقبضتين وكأنه يلکم شيئاً ما .

لقد كان يلکم في سره (صفر اثنان ثلاثة)، كما هو متوقع .

ترى ما الذي قد يحصل لو تكررت حياته بتلك الصيغة التي لا يرغب أن تتكرر أبداً !

ماذا لو تمحورت حياته من جديد حول الأسلحة والدماء وأجهزة اللاسلكي والشاي عديم النكهة .

تخيل نفسه في تلك اللحظة ببزته العسكرية يقتحم مزرعة من الفراولة، بينما يهرس الثمار الهشة تحت حذائه دون

أن يكثر للعصير الأحمر الذي بدأ يغمر ساقيه مقترباً من اللاسلكي المثبت على خصره والذي كان يصدح باسمه

(صفر اثنان ثلاثة) طالباً منه التحرك نحو الشمال، وقد كان يصغي للتعليمات دون أن ينحرف عن المسار حتى

اللحظة التي سمع فيها صوتاً آخر، صوت أنثوي مألوف وهادئ، فبدأ يحث الخطى في الاتجاه المعاكس حيث كان

يصدر صوت ليلي محاولاً القفز بعيداً عن الثمار الناضجة ليتجنب إفسادها .

في تلك اللحظة تلاشت تلك الرؤية من ذهنه واقترب بكرسيه نحو الأمام وقد ارتخت يداه تماماً، كان قد قرر ما يجب عليه القيام به فعلاً .

أصبحت تلك المجموعة تشكل دائرة مكتملة هذه المرة وهذا ما كان بإمكان الخنفسة المضيفة أن تراه من الأعلى لحظة تحليقها باتجاه الثريا الكريستالية المتدلية من منتصف الصالة .

كانت الخنفسة الخائفة قد دخلت عبر إحدى النوافذ محاولة الابتعاد عن لوسي التي نبحت عدة مرات عندما لاحظت توهجها .

لقد اقتربت تلك المسكينة دون أن تدري من مصدر خوفها وباتت قابضة مع لوسي في غرفة واحدة .

في أحيان كثيرة نطن أننا قطعنا مسافة بعيدة عن شيء ما، لكننا وبصورة غريبة تقترب منه أكثر .

إننا لا ندرك حقاً موقعنا من هذا الكون أو إلى أين تتجه، وقد يؤدي بنا طريق ما إلى مكان غير متوقع، وقد نتخذنا خططنا التي ظننا أننا رسمناها بإحكام .

إن هذا الكون واسع، أوسع بكثير، وأغرب بكثير مما نظنه .



لله اللحن الحادي والعشرون لله

المرّة الأولى قد لا تكون الأولى حقاً

دو

في كون موازٍ لكوننا، كان هنالك عصفور صغير يتأفف من بندقية صيد تلاحقه في الأجواء، ولأن لصديقنا العصفور باعٌ طويل وخبرة كبيرة في الهروب من الصيادين احتسّى في حقل يرتقال ليربح جناحيه قليلاً وليجد ما يسد به رمقه.

لا يعلم صديقنا المتذمّر كم هو محظوظ مقارنة بالعصافير الأخرى التي تعيش في كون موازٍ الحرب فيه سيدة الموقف، حيث تضطر العصافير للهرب من الصواريخ والرصاص المتفجر والقذائف أيضاً.

لا يعلم النعمة التي تملأ سماءه الواسعة وتبارك جناحيه الصغيرين . . .

ولأن هذا العصفور لا يدري شيئاً عن الأكوان المتوازية، سيمارس حياته الطبيعية ككل الأشخاص الذين ليس لديهم أي فكرة عنها.

حط العصفور على شجرة تمتد أغصانها المتفرعة ملازمةً زجاج النافذة، نافذة من هذه يا ترى؟

نافذة ناي

في هذا الكون الموازي حيث يعم السلام تلك البقعة الجميلة من الأرض جلست ناي قرب نافذتها وهي تنظر لوالدتها التي تتفقد الأشجار لتقطف البرتقال الناضج.

لا شيء ألد من هذا الخليط الحلو الحامض بالنسبة لناي إلا ابتسامة والدتها وهذا العصفور الجميل الذي يحاول نقر برتقالة بمنقاره الصغير.

إن هذا الصباح رائع لا صداع فيه ولا خوف ولا ألم، كما أنها على موعد مع صديقتها التي دعته لحضور معرض في يقيمه أحد أصدقاء زوجها .

ارتدت ثيابها بهدوء، صفت شعرها بطريقتها المعتادة، وخرجت من المنزل مرتدية حذاءها الخمري بعد أن طبعت قبلة على جبين والدتها .

استمتعت بكل المناظر التي شاهدها من نافذة الحافلة لمدة نصف ساعة أو أكثر بقليل، ثم ترجلت منها ومشت في الشارع الذي من المفترض أن يقام فيه المعرض .

نظرت إلى الغيوم والسماء الهادئة والشمس الخجولة فاصطدمت أثناء ذلك بشاب ذي عينيْن مجذبتين واسعتين منحتاه سحرًا خاصًا، فاعتذرت منه وقد احمرت وجنتاه .

كم بدت ساذجة أمام ذلك الشاب الجذاب الذي تقبل اعتذارها بخيال ابتسامة بينما كان يمسد ذقنه الكثة ليكمل طريقه بعد ذلك نحو مجهول ما .

أكمل طريقه ولم يلتفت إليها وهي أيضاً لم تلتفت إليه على الرغم من أن كلاهما شعر أن الآخر مألوف بالنسبة له، وكأنهما عاشا معاً بضعة تفاصيل وخليطاً من المشاعر في حياة أخرى .

كل ما كان يشغل ناي بعد تلك اللحظة أن تجد صالة المعرض، أخرجت بطاقة الدعوة من حقيبتها عندما رأت حشدًا من الأشخاص المتجمعين أمام باب زجاجي دوار .

لقد كانوا يتحركون بهدوء وانتظام وسرعان ما وصلت ناي إلى ذلك الباب واندججت بمجرّتهم المنتظمة، لكنها توترت قليلاً فهذه هي المرة الأولى التي تعبر فيها باباً مماثلاً، شعرت بضيق عندما حُصرت بين اللوحين الزجاجيين إلا أن ذلك الشعور زال لحظة دخولها الصالة الرخامية التي انعكست عليها الأضواء، وخلال لحظات بدأت بتأمل

الجدران التي عُلق عليها عدد من اللوحات بحيث كانت تفصل مسافة لا بأس بها بين كل لوحة ومجاورتها، إلا أنه كان جلياً للعيان تفرد إحدى اللوحات في صدر المعرض فقد كان عدد المهتمين بها كبيراً .

لقد رُسم في اللوحة ملاكين متقابلين حيث يسند كل منهما ظهره إلى شجرة وارفة تغطي أوراقها الزوايا الخارجية للوحة وقد كانتا شجرتي برتقال، وكان الرسام تمرّد على رمزية التفاح المعهودة .

كان أحد الملاكين يمسك قيثارة بين يديه ممرّاً أصابعه على أوتارها فيبدو اللحن مرئياً في اللوحة . . . مرئياً بصورة غريبة، فقد تشكل عن القيثارة جسد فتاة حسناء التقت في أعلى اللوحة مع رجل كان اللحن المنبثق عن ناي ينفخ فيه الملاك الآخر من روحه .

وقد كانا قمة في الإبداع بحيث يمكن للناظر أن يشعر بنعومة جلدهما وانسدال شعرهما ويُشده بريق أعينهما . ومض الضوء للحظات في المعرض واتجهت عيون الحاضرين إلى الأعلى لذلك لم ينتبه أحد إلى رفة رمش المرأة في اللوحة وعوضاً على أن تستمر بالنظر إلى وجه الرجل اللحني بدأت تنظر بشكل جانبي ونحو الأسفل قليلاً بحيث كان اتباعها مسلطاً على فتاة كانت تتقدم بهدوء باتجاه عالمها الزيتي .

لقد لفتت تلك الفتاة نظرها بطريقة غريبة فقد كانت تشبهها كثيراً، فتسريحة الشعر هي ذاتها حيث ينسدل الشعر الأحمر بصفيرة طويلة على جانب واحد، كما هنالك بعض النمش على أنفها ووجنتيها، أما شفاهها فمخضبتان بحمرة طبيعية .

في حين كان لباسها مختلفاً فالمرأة في اللوحة ترتدي ثوباً من الشيفون الوردي الشفاف المتطاير من حولها، أما تلك الفتاة التي تنظر للوحة فقد كانت ترتدي تنورة سوداء وحذاء خمرياً وتضع على كتفيها معطفاً كريمي اللون بحيث لا تدخل ذراعيها في المكان المخصص لهما .

وعلى الرغم من الاختلاف في الزي العام إلا أنه لا يمكن للناظر أن يخطئ الشبه بينهما بما في ذلك رجل اللوحة اللحني الذي أسرّ لامرأة اللوحة بذلك في اللحظة التي ومضت فيها الأضواء من جديد .

لكن حتى فتيات اللوحات لن يرغبن بأن يخبرهن أحد بأنهن يشبهن امرأة أخرى حتى إن كانت تلك الحقيقة صارخة، لذلك عادت للتحديق به من جديد لكن بنظرة صارمة أكثر فصمت تمامًا متيحًا لها فرصة الإصغاء للأحاديث التي تدور في الجوار، وبذلك سمعت السلام الحار والكلام الذي دار بين ناي وصديقتها التي بدأت تجيل النظر في الصالة بحثًا عن الرسام لتقدمه إلى ناي.

إنها تعلم جيدًا سبب رغبة صديقة ناي بأن تُعرفها على الرسام فقد أسرّت هذه الصديقة لزوجها منذ قليل أن ناي الفتاة المناسبة حتمًا لبحر.

وخلال ثوانٍ وجدت تلك الصديقة بحر وجمعه مع ناي فدار بينهما حديث عميق منذ اللحظة الأولى حاولت فتاة اللوحة تجاهله لأنها كانت مغناظة.

مخطوطة تلك الأتشي التي سبق بحر في غرامها فهو ينظر للمرأة على أن تحفة فنية لا تتكرر هذا ما فكرت فيه فتاة اللوحة على عكس ذلك الرجل اللحن الطافي أمامها والذي وجد شبيهة لها خلال ثوان معدودة.

إنه يبدو عاشق ولهان بها فقط لأنه لا يستطيع تحويل نظره عنها إلا أنها وحدها تعرف حقيقته، أما البشر فلهم ظاهر الأمور فقط!

ارتعد وجه الرجل اللحن عند إدراكه ما يدور في رأس امرأته، لا بد أن أمامه ليلة طويلة من التذمر، إنه لم يقصد أن يقلل شأنها، فمن غير الممكن أن يفكر بغيرها من الأساس.

ترى كم من الألوان سيبدل في سبيل أن تغفر له من جديد!

ومض النور في الصالة لعدة ثوانٍ إلا أن ناي رصدت حركة مريبة في اللوحة هذه المرة فقالت لبحر:

—أظنني رأيت عينيه تتحركان.

ضحك بحر بثقة لشعوره بأن موهبته الرفيعة هي التي أنتجت لوحة تكاد تنطق وتتحرك وقال:

—من المستحيل ذلك، ربما أنت متعبة.

فتحت ناي فمها قليلاً واقتربت من اللوحة لتؤكد أكثر ولم ترَ أي شيء غريب فأجابت بحر بعد ذلك:
_أجل ربما .

_ما رأيك أن أدعوك لاحتساء كوب من الكاكاو في مكان مميز .

في الأحوال العادية ما كانت ناي لتوافق على دعوة كهذه من اللقاء الأول، ولكن صادقة مع نفسها إن إشادة صديقتها ببحر لم يكن السبب الأساسي لقبولها تلك الدعوة بل كان السبب أمراً آخر لم تعيه جيداً في تلك اللحظة، كما قد لفت نظرها أنه لم يدعها لشرب القهوة .

كانت امرأة اللوحة تنظر بازدراء إلى ناي متسائلة أي امرأة هذه التي قد تقبل دعوة رجل بعد أقل من ساعة من معرفته . قاطعها الرجل اللحني بفكرته (لكنه بحر ليس مجرد رجل عادي) .

هذه المرة انطفأ الضوء تماماً في الصالة ولا داعي للقول ما الذي قد حصل حتى مالت اللوحة قليلاً نحو ذلك الجانب الذي ينبثق فيه اللحن من الناي .

وعندما أصلح الفنيون الكهرباء قام وائل بتعديل اللوحة من جديد على الحائط، ونظر إليها بابتسامة ملؤها الفخر والسعادة عندما أخذت الوضعية الصحيحة على الحائط .

إنه سعيد لأن صديقه بحر قادر على خلق جمال مماثل في صدر من يرى فنه وفخور بأنه الممول الرئيسي لإيصال ذلك إلى أكبر عدد ممكن من الجماهير، لكن تلك اللحظة استحوذت عليه رغبة عارمة . . .

فكر أنه لن ينقل تلك اللوحة إلى المعرض الذي يستعد منذ الآن للتحضير له، بل سيعلقها في مكان بارز من منزله، سيبتاعها من بحر كأبي زبون عادي وسيحتفظ بها إلى الأبد فقد كانت تمنحه إحساساً مختلفاً عن كل ما رآه في حياته .

لقد كان منشغلاً بتلك الفكرة بحيث لم ينتبه أنه غطى ساحة الرؤية عن رواد المعرض، وعندما شعر بذلك انسحب نحو الخلف فاصطدم كفه بأحد الأشخاص، فما كان منه إلا أن التفت نحو اليسار معتذراً لتلك المرأة رافعاً كفيه

كأنه يحمل كرة وهمية بالقرب من بطنها المنتفخ.

لقد كانت المرأة حاملاً وعلى ما يبدو أنها تجاوزت الشهر السابع من حملها لكنها لم تكترث لاصطدام ذلك الشاب بها كثيراً فهو لم يؤذيها على أي حال.

شبكت يدها بذراع شخص لا يمكن لأحد أن يخطئ بأنه زوجها وسأته:

ـ كرم، ما رأيك بهذه اللوحة؟

قال كرم وقد فتح عينيه قليلاً أكثر من المعتاد:

ـ إنها رائعة.

ـ سمعتُ رواد المعرض يقولون أنّ عنوان اللوحة (أصل الإنسان موسيقى).

رفع كرم رأسه متأملاً بكل تفاصيل اللوحة ممرراً إصبعه في الهواء دون أن يلمس قماشها ثم عقب:

ـ أظن أنني سأبتاعها، يمكن أن تغير أجواء الصالة لدينا تماماً... ألا تظنين ذلك يا ورد؟

إلا أن وائل كان قد سمع حديثهما وأخبر كرم أن اللوحة قد حُجزت بالفعل، وذلك خيب أمل ورد التي مسحت على بطنها مرتين وكأنها تعزي طفلها بفقدان لوحة تأملت أن يراها يوماً ما.

على بعد عدة كيلومترات من صالة العرض كان كل من ناي وبحر يجلسان على طاولة في مطعم الفندق الخاص بهجر.

لو كنا دقيقتي الملاحظة فيمكن أن نرى في زرقة عيني بحر وجه ناي وهو يتألق تحت الغيمة المضيفة والتي تتدلى منها أحجار كريستالية.

لامست ناي فنجان الكاكاو الساخن ووضعت فيه ملعقة سكر إضافية على الرغم من أنها لم تكن قد تذوقته بعد، أما بحر فحوّل نظره عن وجهها لشعوره بأنه أخرجها قليلاً متأملاً فطيرة التفاح في طبقه التي قام بقطع جزء منها بشوكنه.

وأثناء نظره إلى ذرات القرفة المتناثرة كان يتخيل ناي وهي تجلس على الأرجوحة المعلقة في حديقة الفندق الخلفية بالقرب من دالية العنب، كان يتخيلها بثوب يشبه ثوب المرأة في لوحته بحيث يتطاير الشيفون الوردي حولها في كل مرة يدفعها فيها .

كان يسمع ضحكاتها ويراها تشرق من بين الجبال الضوئية ويرى كعبيها الناعمين يحتكان بالأرضية العشبية قليلاً .
أحياناً إن الخيالات الأولى التي تتابنا حول شخص ما قد تثير استغرابنا بجرأتها وثقتنا بها لكننا نبذل ما بوسعنا حتى نحققها دون أن نعلم السبب الحقيقي خلف ذلك .

إن تلك الأحاديث التي تبدأ عميقة قد تكون مستندة على معرفة لم ندركها .

إن النكحات والأحاسيس والأفكار التي لم نختبرها في حياة ما قد نختبرها في حياة أخرى .

لله اللحن الثاني والعشرون لله

التلوين مرض النساء المزمّن

ري

على إحدى القنوات التلفزيونية نُقل بثٌ مباشر لحفل توقيع رواية ذاع صيتها مؤخراً في أوساط الشباب والمتقنين، ليس فقط لأن الرواية على درجة عالية من الروعة بل لأن كاتبها حسناء بشكل ملفت بحيث شغلت صورها العديد من أغلفة المجلات مع عناوين من نوع (عندما يجتمع الجمال مع الموهبة والذكاء).

وقد تجاوز عدد النسخ المباعة لروايتها الأخيرة المليون نسخة وترجمت لأكثر من عشر لغات مع الاستعداد لتصوير أحداثها كفيلم سينمائي، وبناءً على ذلك احتلت هذه الكاتبة المرتبة الأولى في قائمة النساء العربيات الأكثر تأثيراً للعام، لا سيما أنها كانت عضواً فعالاً في العديد من الجمعيات الخيرية وقادت حملات واسعة لإقناذ ما يمكن إقناذه في مجاهل الأزقة الفقيرة.

وقد تلا التوقيع لقاء شفافاً كشفافية أكام الفستان الذي ترتديه الكاتبة المشهورة والذي يُظهر رقعة معصمها وبهاء كفتيها، وأثناء إجابتها على الأسئلة الموجهة إليها كانت الكاميرا تتجول بين ملاحظها الدقيقة فتسلط الضوء على شفيتها الحمراوين اللتين تتحركان ببطء شديد وثقة، ثم على عينيها السوداوين الملتمعتين عند أي سؤال حساس أو مثير لماضٍ لا ترحب الكاتبة بالإفصاح عنه. لكن المذيع وعلى الرغم من أنه كان أحد المفتونين بها إلا أنه كان محترفاً ومراعياً لضرورة الخوض في الأعماق أيضاً، وهو الذي كان معتاداً على القيام بذلك لرفع نسبة مشاهدة برنامجه الذي يلتقي من خلاله بنجوم مميزين في مجالات مختلفة.

لكن والحق يقال لم يكن مكثرًا لنسب المشاهدة هذه المرة بقدر ما كان يحاول إشباع فضوله عن تفاصيل حياة كاتبته المفضلة، وعلى الرغم من حرفيته العالية إلا أنه قضى ساعات طويلة ليعدّ مقدمة افتتاحية لبرنامج، لكن وللأسف بدت هذه المقدمة كنوع من الغزل التافه، خاصة مع ملاحمه التي غمرتها مسحة من البلاهة، وقد أدرك هو نفسه ذلك خلال الثواني الأولى من مخاطبته ضيفته بضوء القمر الذي يسحر القلوب، ومحاولته اللاحقة لشرح ذلك مما جعله يبدو ساذجًا، فتناثر العرق على جبينه وهو يبين أن اسم (نورسين) يعني ضوء القمر وليته لم يفعل فقد بدا الأمر أكثر سوءًا، وبالطبع لم تكن تلك المشكلة الوحيدة التي تخللت المقابلة التي ستنتهي بفضيحة.

في كل الأحوال تدارك مقدمنا الوضع وبدأ بتوجيه أسئلة عن طفولة الكاتبة التي كانت جيدة باختيار مصطلحاتها لتعبث بعقل من يستمع إليها بحيث يخيل له أنه يعيش معها لحظة بلحظة، فيشم رائحة الأعشاب وزيت الزيتون في بيت المؤونة الذي تخفي تحت إحدى بلاطاته دفترها السري إلى أن اكتشفه أخوها في أحد الأيام.

وقد قضم مذيعنا باطن فمه عندما استشعر نكهة الدم المالح التي ملأت فم كاتبتنا المحبوبة عندما ضربها أخوها لأنه ظنها تكتب رسائل عشق إلى شاب ما، وقد تم حبسها في بيت المؤونة بجانب علب البقوليات والزيتون والمخللات دون دفترها بالطبع كي يتم الضغط عليها للاعتراف بشيء لم تقم به حقًا، إلا أنها كانت قد أخفت نسخة أخرى مثبتة على حجر الجدار الداخلي لبئر الماء.

في تلك الأثناء اشرب أعنق المذيع وكأنه يمد رأسه داخله البئر ليخرج منه دفترها العزيز الذي خاطرت بإمكانية سقوطه في الماء عوضًا عن وقوعه بين يدي أحد أفراد عائلتها، وقد كان من الممكن أن يغرق الورق الأبيض مجروفه الزرقاء في ماء البئر فتشربه العائلة بأكملها دون أن تدري ذلك حتى.

كانت الفكرة تغري نورسين بأن تدعهم يشربون قصص الحب التي كتبتها، ليرتشفوا مشاعر الأبطال ومعاناتهم فتصبح عائلتها مرهفة حاملة قادرة على إبصار نجاحها في المستقبل القريب، فيتوقفون عن السخرية منها وهي تلف على جسدها ستارة غرفتها التي تتصورها ثوبًا لائقًا يمكن استضافتها وهي ترتديه في مقابلة تلفزيونية لتناقش

قضية نجاحها وتحديها لكل الظروف القاسية لتصبح ما هي عليه اليوم ولتستطيع التحدث بكل طلاقة مرددة (الكليشييه) المعتاد بأن كتبها بمثابة أطفالها الذين ولدوا من عقلها ونضجوا في قلوب القراء المرهفين، مما جعلها تستغني عن الرغبة بالأئمة التي لا تملك الوقت أو الجهد لتفكر بها حاليًا.

ألا ينبج الإنسان ليضمن استمراره في الحياة، ليضمن بقاء جزء منه بعد وفاته؟

حسنًا هي تضمن استمرارية وجودها من خلال قصصها ورواياتها، فشكسبير بقي خالدًا لا بسبب سوزانا وجوديت وهامنت إنما بسبب روميو وجولييت وهاملت ومكبث، هذا ما عبرت عنه الكاتبة مصرحة بعدم رغبتها بالإنجاب على الأقل في الفترة الراهنة.

وعندما سُئلت عن الزواج، فقالت أنها لا تفكر به حاليًا لكنها غير قادرة على العيش بدون حب في حياتها وإن لم يكن موجودًا ستخترعه حتمًا لتعيشه بكل شغفه وعذابات، سترسمه وتلونه كما يحلو لها أن يكون، وهنا جاء استفسار المذيع عن سبب تسمية إحدى مجموعاتها القصصية بـ (التلوين مرض النساء المزمن)، مستشهدًا بأحد النصوص التي جاءت في قصة حملت ذات العنوان:

(إنّ لبعض النساء موهبة عميقة في التلوين، لا يلوّن وجوههنّ وأظافرهنّ وشعرهنّ فحسب، بل يتقنّ تلوين الأفعال والأقوال والقلوب).

إنني على يقين أن هنالك امرأة في كل شارع ترسم قلبًا لرجل ميت وتطبع على شفّته ابتسامة، تحرك يديه المرتخيتين حول خصرها، بل وتفرح بعناقه!

رغم أنها لو أذابت قوس قزح فوق قلبه لن تغطي قباحته.

(التلوين مرض النساء المزمن)

وعند ذلك سأل المذيع نورسين إن كانت هي مجد ذاتها مصابة بهذا المرض، وعن مدى خطورته مسنداً سبابته على صدغه كأنه يحاول الشروع بتقييم أمر ما، بينما تنهدت تنهيدة قصيرة مجيبة عن الشرط الثاني من السؤال بأنه مرض شديد الخطورة، وعلى الرغم من أنه يبدأ ببراءة كشرح عابر ولكنه ينتهي بانعدام في الثقة وخيبة عميقة جارحة.

وعلى الرغم من أنها لم تجب عن الشرط الأول إلا أن المذيع استطرد (ألا يصيب هذا المرض الرجال أيضاً؟)، ثم أطبق كفه الأيمن على البطاقات التي يحملها في يده اليسرى بعد أن أجابته إجابة طويلة تبرئ من خلالها نفسها من أي تحامل على الرجال، فأردف المذيع أنه على يقين بأنها من الكاتبات القليلات اللاتي يركزن على ما يجري داخل عقل الإنسان أكثر من اهتمامها بصبغياته وغدده، (لكن ماذا عن النساء اللاتي يلون أنفسهن بطريقة خادعة بحيث يوقعن من حولهن في شرك معقد... أهناك من كلمة تحبين توجيهها لهن؟)، ولم يكمل الإعلامي جملة حتى علت ضجة من بين صفوف الجماهير المحتشدة وبدأ بعض الأشخاص بالتحرك كأنهم يفسحون مجالاً لعبور شخص ما، وقد حاول المذيع تدارك الأمر إلا أن الضجيج كان يرتفع أكثر فأكثر ليبدو أوضح، وقد كان صوتاً لامرأة تصرخ: (فلتجيبه أيتها الكاتبة العظيمة، أو انتظريني قليلاً لأضع مرآة أمام وجهك كي توجهي الرسالة كما ينبغي لك أن توجهيها).

كانت المرأة المجهولة تتحرك بسرعة بين الحواجز البشرية لتصل إلى هدفها المنشود، بوجهها المستشيط غضباً وصوتها الذي يتأرجح بمجدة موجهة العديد من التهم والشتائم بحق الكاتبة مرددة بين الفينة والأخرى (أخبرين عن النساء المتلونات يا خاطفة الرجال)، رافعة سبابتها عالياً لترسم بها دائرة وهمية لتشرح للحشد أنه من بين كل الرجال لم تجد الكاتبة الرقيقة رجلاً إلا زوجها لتجعل منه بطلاً لحبها، ومن بين كل الأطفال الذين أنقذتهم من الفقر والجوع لم يتسع قلبها الكبير لترأف بطفلها المسكين، وأن تسمح لها بأن تعيش حياة هائلة في كنف والدها.

ولو كان هنالك حساء ساخناً في ذلك الاستديو أو حتى أسيداً حاراً لسكبته هذه المرأة المجهولة على تسريحة الكاتبة المصقولة جيداً، فهي من ذلك النوع من السيدات اللاتي يتخذن وضعية الهجوم لا الدفاع عن عائلاتهن . وسرعان ما انسحبت الكاتبة خلف الكواليس تاركة طاقم الاستديو منهمكاً بتغطية البلبلة التي نُقلت على الهواء مباشرة، دون أن تبرر الموقف الذي حصل ودون أن تنفي التهم التي وجهتها إليها المرأة المجهولة .

وخلال ساعات قليلة بدأت برامج الفضائح بتناول تلك القصة والتحري عن تلك المرأة التي اقتحمت استديو المقابلة، بل وبدؤوا بنشر صور تجمع الكاتبة برجال مختلفين في أماكن مختلفة محاولين التكهّن بهوية ذلك الشخص الذي كانت الكاتبة واقعة بحبه لدرجة استحوذت على حصة عائلته من الحب .

وقد تساءل بعضهم لم لم تضع نورسين نفسها مكان تلك الزوجة المسكينة، وكيف تمكنت من الارتباط برجل متزوج وكيف حرمت ابنته الصغيرة من حنانه ومنعت عائلته من الاستقرار !

أما نورسين فقد جلست على حافة سريرها واضعة سبابتيها على صدغيها محاولة الضغط على موضع الألم، لقد كانت تعلم جيداً أن للرجل الذي تحبه عائلة منذ البداية، لكن الذي سبب هذا الصداق لها فهو وصول الأمر للصحافة وبذلك لم تبدُ فقط غير مناصرة لبنات جنسها، بل بدت منافقة أيضاً لأنها لطالما حاولت نصرتها في قصصها ورواياتها .

أمسكت هاتفها المحمول وطلبت رقم حبيبها، وقد كانت عيناها شاخصتان حتى اللحظة التي سمعت فيها صوته المتوتر، لكن ما أن تدفق صوته عبر الهاتف غمرها شعور غريب، وعلى عكس ما هو متوقع كانت مشاعرها بعيدة كل البعد عن العار .

لقد شعرت بالتفوق ! وغمرتها لذة غريبة لأنها كانت طاغية ومؤثرة، ولم تدرِ هي نفسها مصدر هذه المشاعر أو حتى سببها وإن ذلك أثار استغرابها أكثر . . .

لله اللحن الثالث والعشرون لله

القلب الصحيح في اليانصيب الكوني

مي

هل أحبيته؟

كان هذا هو السؤال الذي وجهته نجوى لأيل قبل أن تأتي النادلة لتسكب الشاي في الفناجين الإنكليزية الكلاسيكية.

كان الشاي بدرجة حُمرة المثلّى ينساب في البياض العميق وقد تطاير بخاره بعيداً نحو الأعلى إلى أن توقفت النادلة عند ملازمة سطح الشاي لتلك الزهرة المرسومة على الحافة الداخلية للفنجان.

سألت الفتاتين إن كانتا بحاجة لشيء آخر ثم انحنى باحترام مبتعدة وعند عودتها إلى المطبخ بإبريق الشاي فكرت بالمناوبة الليلة التي ستضطر لقضاؤها كي تسدد القسط الأخير من ثمن الغسالة.

وأثناء ذلك ارتجفت يدها قليلاً فتناثرت قطرات من الشاي الحار على مئزرها، حاولت ألا تشعر من حولها فتألمت بصمت وما أن وضعت الإبريق في مكانه دسّت يدها في جيب المئزر لتطمئن أن البقشيش بخير.

لقد قدمت نجوى لها إكرامية كبيرة بحيث استغربت النادلة من أن هنالك شخص ما قد يدفع كل هذا المال ليحصل على قطعة حلوى وكوب شاي فقط.

سندت ذقتها بيدها وهي تتأمل الفتاتين من خلف باب المطبخ الموارب قليلاً.

كانت نجوى تبدو لها سيدة لطيفة وقد جاوزت الثلاثين بعدة سنوات ذات تسريحة بسيطة إنما منمقة، وقد سحرها لطفها بحيث قررت أنها أجمل من مرافقتها على الطاولة، ولم يكن شعورها بالامتنان السبب الوحيد لتغيير حقيقة الأمور فحسب، بل كان لملامح أيل الحزينة يدٌ في ذلك أيضاً.

إن الحزن يسلب القليل من الجمال بل في الحقيقة الكثير منه .

كانت قطعة الحلوى الخاصة بأيل على حالها بحيث لم تنقص منها لقمة واحدة في حين كانت نجوى قد التهمت نصفها تقريبًا لذلك لم يكن من المنطقي أن تسأل نجوى أختها فيما إذا أحببت الحلوى .

لقد كان سؤالها عن أمر آخر تمامًا لكن النادلة قاطعت الحديث بقدموها فأجابتها أيل بعد مغادرتها:

ـ لا يمكن أن أكون قد أحببته، فأنا لم أعرفه جيدًا .

ـ يمكن أن نسمي ذلك انجذابًا إذن .

ـ هذا ما كنت قد أخبرته به قبل شهرين .

ـ أخبرته أنك معجبة به ؟

ـ نعم .

ـ أعلمين أنه لاطفني قبل عدة أشهر، لكنني ولسبب ما أبعدته .

ـ ثم أخبرته بعد ذلك أنك معجبة به ! ما هو السبب ؟

ـ لا أعلم، لكن أشعر أنني أتصلب حينما ألتقي بشخص قد ينال إعجابي، إنني أتخذ وضعية دفاعية وكأنه سيحاول التهام قلبي دفعة واحدة .

الأخطأت بإخباره أنني كنت منجذبة إليه فيما بعد !

ـ كان عليك أن تسمح لي به بتقديم ما في جعبته لتحسمي الأمر أنت لاحقًا .

ـ إن المضحك في الأمر أنني بدأت بالاسترخاء عندما حوّل تفكيره عني .

ـ ما الذي قاله لك عندما أخبرته بانجذابك نحوه ؟

ـ قال لي أنه لا يستطيع الارتباط بامرأة لا يمكن أن تسترخي أمام إطرائه، والحقيقة أنني كنت أنكمش على نفسي

في كل مرة يدي إعجابه بي بحيث أصبح كحبة عنب مجففة خسرت كل عصاراتها، حبة عنب من يراها لن يصدق أنها كانت طازجة ولامعة يومًا ما على دالية خضراء .

_ما الذي قد جذبك له؟

_إنه وسيم وابتسامته تجعل قلبي يتوقف عن النبض لوهلة، يشغل منصبًا اجتماعيًا مميّزًا ويخطف الأنظار بحديثه .

كل ما أفكر به أنني سأحب أن أكون جزءًا من حياته .

_لا هذا غير صحيح . . . الذي جذبك أنه ابتعد عنك وأنت لم تحتلمي ذلك، وبالمناسبة عندما تخين أحداً ما لن تقومي بوزن مواصفاته بالميزان .

ستسألين نفسك لم أحبته لكن الجواب الحقيقي لن يتعلق بما يملك، بل بما يجعلك تشعرين به .

إن الأمر غير مرتبط بشهادته الجامعية وأمواله بل بإحساس الأمان الذي سيمنحك إياه، ستحيينه عندما يتمكن من إزالة شعورك الدفاعي عن قلبك .

ليس عليه أن يكون مناسباً لتساوى كفة ميزانكما بل عليه أن يكون مُكَمِّلاً، هذا هو المصطلح السليم .

_أعلمين عندما رأيت صور خطوبته ما الذي شعرت به؟

_شعرت أنه لم يعد متاحاً فحسب .

_بل قارنت نفسي بها، ما الذي جعلها تمتلك قلبه! وبدأت أشعر أن ما لدي ليس كافيًا .

_أيل لا تكوني غبية، أنا متأكدة دون أن أراها أنك أجمل منها لكن يا حلوتي الجمال ليس معياراً في حصولنا على علاقات مريحة .

يجب أن تشعري بالسعادة لا أن تُحبطي بسبب خطوبته، ببساطة شديدة هو لم يتمكن من لفت انتباهك منذ البداية فلا تتخيلي أنه كان بإمكانك تغيير منحى الأمور .

توقفي عن تفحص مدى تناسق قوام خطيبته وإحصاء شهاداتها، فظنك أنك تليقين به أكثر منها نابغ عن شعور لا يمت للحب بصلة.

فهو لم يلق بك منذ البداية وهذا لا يجعل منه شخصاً سيئاً لا بل على العكس، لكنه بذل ما يملك من جهد وإن هذا الجهد لم يجعل قلبك يفتح بحيث تسترخين أمامه تماماً، في حين أنه كان كافياً بالنسبة لها لتقع في غرامه دون مقاومته... هذا كل ما في الأمر.

تخيلي لو ارتبطتما كم من الجهد الصناعي كان سيبدله ليحقق ذلك!
والآن أرجوك تناولي قطعة الحلوى وتجاوزيه تماماً.

كم كانت الحياة ستكون سعيدة فيما لو توقفت الفتيات عن الإعجاب بمن يغادروهن من الرجال فقط لأنهم غادروهن.

ـ أظنين أنني مازوشية؟

عليك أن تكوني صادقة مع نفسك فحسب، إنك لم تحتلمي فكرة أن تكوني على هذا القدر من الجمال والكمال وألا يحارب هو للفوز بك.

ـ أظنين ذلك؟

ـ طبعاً ولهذا بدأت بمقارنة نفسك مع خطيبته.

ـ بالمناسبة لم يبدُ سعيداً في صور خطوبته، لم تكن عيناه تشعان بطاقتها المعتادة.

ـ لا تقرري مصير الأشخاص بناء على مشاعرك الخاصة.

وبالمناسبة لا داعي لتأخري في إخبار أختك عن مستجداتك العاطفية، فأنا أشعر بها.

قالت نجوى ذلك وهي تدس لقمة من الحلوى في فمها.

وعلى مسافة قريبة منهما كان هنالك شاب يجلس مع مجموعة من الأطفال ويساعدهم بكل رحابة صدر
وهدوء على تناول حلواهم.

كان يشعر براحة من نوع خاص مع هؤلاء الأطفال، لأنهم كانوا يرونه على حقيقته دون إبطاءه حتى .
لقد كان يضحك معهم من كل قلبه بحيث التفت أيل ونجوى نحو طاولته، فأوماً لهما بتحية خجولة من بعيد .
إن نجوى وأختها من عائلة فاحشة الثراء بحيث لا يمكن لأحدهم تخيل أن ذلك الثراء سببه ورقة يانصيب
عشوائية، ولقد كان لنجوى وأيل دوراً في تمويل الجمعية التي يعمل لصالحها، إنهما تساهمان حتى في إسعاد قلوب
هؤلاء الأطفال بالنكهات اللذيذة التي يتذوقونها .

كانت أيل تساعده بشكل ميداني على الرغم من أنها لم تكن مضطرة لذلك، وقد كان مفتوناً دوماً بلطفها
وجمالها وحيويتها لكنه كان يعلم أنه منجذب لها لسبب آخر تماماً .

كان قصي يظن أن ذلك كله مرتبط بطاقة المرء، وبالنسبة له إن تلك الطاقة قد تجعله محبوباً في لحظة غير
متوقعة . ومن غير الممكن التحكم بهذه الطاقة فهي تنخفض وتعلو من تلقاء نفسها .

وهي السبب في وقوع أحدهم بالغرام دون أدنى شك، هذا ما كان يظنه قصي الذي كان يحاول إخفاء فمه
بيده بجرعة لا شعورية عندما ابتسم لأيل وهي تغادر المكان، حيث انتصبت وارتدت معطفها فوق الثوب
المخمل الذي كان يكشف قليلاً من ظهرها ورقبتها، كانت بشرتها ناعمة ورقيقة وقد عادت الحمرة لخديها بعد
جلستها تلك مع نجوى .

إن قصي يعلم كل شيء عن أيل، إنها فائقة الكمال بالنسبة له، لكن أيل في ذلك الحين لم تكن تعلم عن قصي أكثر
مما هو جلي لها .

لقد كانت منجذبة ذلك الوقت لشاب آخر، ففي هذا الحيز من الكون لم تدفق طاقتها تجاه قصي وهذا الأمر
مخيب للآمال وقاسٍ قليلاً .

تملكت قصي في تلك اللحظة كآبة غامرة ولم تستطع سعادة الأطفال أن تغير من طبيعة ذلك الشعور ولو قليلاً . . . لقد كان يتمنى في تلك اللحظة أن تراه أيل بذات نظرة هؤلاء الأطفال له قبل أن تغلق باب المطعم من خلفها .

لكنه على يقين أن ذلك لن يحصل أبداً . . .

قد نظن أننا أقل من أن ننال إعجاب الآخرين، لكننا وبشكل غير متوقع قد نكون الأنسب لهم على الإطلاق إلا أن ذلك الشعور قد ينهي كل شيء قبل أن يبدأ حتى .

لله اللحن الرابع والعشرون لله

يومٌ للعائلة... أم حيوأت كاملة؟

فا

في مكان بعيد جداً عن ضجيج المدينة حيث يمكن لرائحة العشب الندي أن تتسلل إلى أقصى مكان في صدرك كان هنالك طفل يلعب بكرته على المرج لكن الكرة انحرقت عن مسارها قليلاً بحيث ارتطمت بسلة القش المتوضعة على شرشف نزاهات أحمر اللون ومن حسن الحظ أن تلك الكرة توقفت عند ذلك الحد ولم تصطدم بأطباق السلطة والفطائر المحلاة والفاكهة، فقد كانت قريبة جداً من السقوط في طبق البطيخ الأحمر والذي لم تكن طراوته لتحتمل ضربة قوية كذلك، وإن الفضل كله يعود للأم في تحويل مسار تلك الكرة حيث رمتها باتجاه ابنها من جديد وطلبت منه اللعب بعيداً مع أبناء عمومته مبتسمة في وجه حمايتها محاولة تبرير فعل ابنها على أنه شقاوة صبيانية اعتيادية لطفل بعمره.

آه... هل يبدو هؤلاء غرباء عنكم؟

حسنًا، سأقدم لكم طريقة سحرية للتعرف على ما يدور من حولكم... إنها طريقة المنظار.

أنتم الآن تمسكون منظاراً ويمكنكم من خلال ساحة الرؤية المستديرة أن تشاهدوا الامتداد الواسع للمرج الأخضر، فعلى الجانب الأيمن هنالك غدير تعوم فيه عدة بطات وبنظرة أقرب يمكن رؤية الماء المتناثر من جناحي بطة رمادية اللون تحمل في منقارها قطعة خبز رماها لها ذلك الطفل الذي كان يلعب بالكرة سابقاً.

وفي حال أدركنا رؤوسنا قليلاً إلى الجهة اليسرى سنرى ما أود أن ترونه حقاً.

لا لقد ابتعدتم كثيراً، أنتم في أقصى اليسار الآن لذلك ليس بإمكانكم إلا رؤية ذلك المزيج من اللون الأصفر والأخضر... فلتضبطوا الدقة إن أردتم رؤية المزيد.

إنها زهرة دوار الشمس، تحوم حولها فراشة بذات الألوان متوسطة منتصف ساحة الرؤية، إنها قريبة جداً لدرجة يمكن للناظر أن يشعر بلمس جناحيها .

فلنبتعد قليلاً بحيث لا تبدو الفراشة عملاقة إلى هذا الحد وبذلك يمكن رؤية الحقل الواسع لدوار الشمس حيث تنجّه أعناق الأزهار نحو الشمس رغماً عن تلك الغيمة التي تحاول تغطيته .

إن المزيج الأبيض والأصفر والأزرق مثير للراحة وللاستعاش في آنٍ معاً نعم أوافقكم الرأي لكن ما رأيكم أن نحرك منظارنا إلى الأسفل وننظر بإمعان .

إنها يدٌ تثبت قطع اللحم على السيخ المعدني، حسناً أعلم أن الدخان المنبعث من اللحم المشوي يشوش الرؤية بل ويثير في العينين قليلاً من الدموع لكن بتركيز أكبر يمكن ملاحظة أن تلك اليد تحمل وحة بشكل حبة كستناء، وبالنظر إلى أجفان صاحبها يمكن رؤية عروق بنفسجية اللون وقد كشف ضوء الشمس لونها بشكل واضح .

إنه ليس وحده بل هنالك رجُلان بالقرب منه، أحدهما شابٌ على يمينه يمسك قطعة بلاستيكية يحرّكها فوق منقل الفحم فيتطاير الدخان بشكل أكثف أما الآخر فهو مُسنٌ يرتدي ثوباً أبيضاً فضفاضاً ويجلس على حافة حجرية .

لا بد أنه يكبرهما بما لا يقل عن ثلاثين عاماً، لكن بالتدقيق بملاحظتهم جميعاً يمكن القول أنهم على صلة قرابة .

ولو كان لمنظارنا القدرة على الرجوع عكسياً بعلامات التقدم بالسن، لتمكنا من رؤية الشبه الكبير بين ذلك الأب وولديه المنهمكين بشوي اللحم .

إن جميعهم يتشابهون بذات النظرة والابتسامة ولون البشرة إلا أن حليم هو الوحيد الذي تتميز يده بتلك الوحة التي أخبرته والدته مراراً أنها ظهرت في يده لأنها اشتهدت الكستناء صيفاً أثناء حملها به ولم تتمكن من تذوقها .

يقترّب من منقل الفحم ذلك الطفل الذي كان يلعب بالكرة، لا بد أنه ملّ من اللعب وبدأ الجوع يقرص معدته فأخذ يحوم بالقرب من جده .

إنه يعلم من أين تؤكل الكتف، فلا أحد كجده يمكن أن يقتنص له بعض اللحم قبل أن تنتهي عملية الشوي .

ولأنه على درجة من الذكاء تعلم ألا يطلب الأشياء بل أن يقترب منها فحسب بحيث يوفرها له شخص يحبه بصدق.

بدأ الطفل بسؤال جده عن الطريقة التي تعرف فيها على جدته وبالرغم من أن الجد روى تلك القصة عشرات المرات إلا أنه كان يُسر بإعادة سردها من جديد في كل مرة.

نرى الجد وهو يضع يديه على طرف عكازته متأملاً بابتسامة صادقة الجهة التي ينسدل فيها شرشف النزهات حيث تجلس عليه زوجته وكنيته ثم يخبر حفيده بأنه التقى بجدته في منطقة نائية كان قد تعرض فيها لحادث سير وإن جدته كانت الممرضة المقيمة في مستوصف القرية وهي التي قامت على تطبيقه حتى شفائه تماماً.

على الرغم من أن معظم الأطباء كانوا قد أكدوا أنه من غير الممكن أن ينجو من ذلك الحادث الأليم إلا أن عناية الممرضة الملائكية به كانت السبب في نجاته. وقبل شفائه تماماً كان قد وقع في غرامها ولم يغادر تلك القرية إلا بعد أن تزوجها وقد حملت بحليم قبل أن يتمكن من تثبيت عقد الزواج في المدينة.

يخبر الجد حفيده أنها كانت الأجمل بين كل الممرضات، وعلى تلك التجاعيد في وجه جدته ألا تضلله فقد كان لها بشرة رقيقة ناعمة صباها كما أن أنفها كان أشد استقامة من كل حياته.

يلامس أنف حفيده ويخبره بأنه ورث هذا الأنف البديع عن جدته وأن حليم والده له الأنف ذاته أيضاً.

ويسترسل الجد بالحديث فيبدأ بالتنقيب في كل فرع من فروع شجرة العائلة مظهرًا التشابهات النفسية والجسدية فيما بينهم مؤكداً له أنه ورث عنه اسمه عبد السلام وأن جده أيضاً كان يحمل الاسم ذاته وأن هذا الاسم سيبقى متوارثاً لسنوات طويلة في العائلة.

لم يكن عبد السلام الصغير مدركاً لأهمية ذلك كله فما الذي قد يفيد طفلاً صغيراً بمعرفة هذه الأمور، إن كان يشبه فلاناً أو لا يشبه آخر!

إنه يرغب بأن تمتلئ معدته بقطع اللحم اللذيذة بل وسيكون ممثناً إن انتهى يومه بكوزٍ من مثلجات الفانيليا.

أما حلیم فلم يطلق اسم والده على ابنه عن عبث، فهو يحب والده بالطبع لكنه قد سماه بذات الاسم

لأنه يوحي له بالأمان، إنه يعبد تلك الحالة من السلام التي تغمره بمجرد قضائه الوقت مع عائلته.

يضع حلیم في فم ولده قطعة لحم بعد أن ينفخ عليها ليبردها من أجله قليلاً، أما الجد فبقي منشغلاً بالبوح بأحداث الصبا ولم يتوقف إلا بعد أن أصبح الطعام جاهزاً.

يمكن أن نرى في ساحة الرؤية المستديرة تلك العائلة التي جلست حول أطباق اللحم المشوي الذي ينبعث منه البخار الساخن.

نرى الجد وهو يضع لقمة طرية في فاه زوجته ونرى حلیم يقسم قطعاً من الخبز ويضعها أمام عبد السلام الصغير أما زوجة أخيه فتسكب اللبن في الأكواب البلاستيكية وتمنح الكوب الأول لزوجها، بينما تحمل زوجة حلیم الكاميرا ملتقطاً صورة لتخليد تلك اللحظة التي ستصبح يوماً ما ذكرى جميلة.

يجول حلیم بنظره على جميع الموجودين، على أخيه وزوجة أخيه وأولادهما وأبيه وأمه وزوجته وابنه عبد السلام، دون أن يشتهي وضع لقمة واحدة في جوفه. . . . لقد ظن أن فقدانه الشهية كان عارضاً جانبياً لتنشقه رائحة اللحم أثناء شويه.

وهو ليس محقّ تماماً. . . إنه يشعر بالشبع لكنه شبع من نوع آخر.

يبتعد منظارنا أكثر وتنخفض دقة الصورة لتتماهى تلك الأجساد التي تغمرها المحبة مع كل الألوان من حولها. . . . زرقة السماء وبياض الغيوم وصفرة عباد الشمس. . . . إن الصورة المرئية في تلك العدسة المستديرة تتشوش كحلم بعيد يغمره الضوء.

الحل الخامس والعشرون

البيت المائل

صول

كانت السيدة (س) تتظاهر بأنها تغطّي في نوم عميق ريثما يذهب زوجها إلى عمله، فهي لم تكن ترغب بدواعه للمرة الأخيرة، ولذلك قامت بتغطية رأسها خوفاً من أن يرى التجاعيد المرتسمة على جفنيها المغلقتين عمداً أو أن يستشعر رفة غير طبيعية لأهدابها المغطاة بطبقة سميكة من الماسكارا، وكانت تضم الوسادة إلى صدرها كي تخفف من صوت ضربات قلبها الذي لم يكن لأحد أن يسمع اضطراباته.

كان يعزُّ على الزوج ألا يودّع زوجته قبل ذهابه وألا يحصل على حصته المعتادة من الطعام الذي قد ينقذه من جوع مُحتمٍّ خلال رحلته الطويلة التي ينقل فيها البضائع بين المحافظات والتي قد تستمر لأيام عديدة.

ومع ذلك كان حذراً فلم يفتح نافذة ولم يطرق باباً بقوة ولم يشعل ضوءاً في غرفة النوم أيضاً، وهذه التصرفات التي قد تبدو غير مهمة بالنسبة لعدد كبير من الأشخاص إلا أنها تجسيد حقيقي لحب ما بعد الزواج لحظة انتهاء فترة الرسائل الغرامية والمكالمات الهاتفية والهدايا المغلفة بورق لماع.

لقد كان هذا الزوج يحبها على طريقته ويقوم ما بوسعه لإسعاد عائلته الصغيرة.

طبع قبلة على جبين ولده النائم على فراشه الرقيق في غرفة نومه شبه الفارغة، وحاول ألا يلمس جبينه بل مسدّ شعره فقط بهدوء وبطء، فقد خشي أن يزعج أحلامه بخشونة أصابعه.

إن فرحاً عابراً غزا قلب الأب فجأة، لأنه سيستلم هذا الشهر الجمعية التي انتظرها طويلاً ليشتري سريراً وخزانة لابنه، وربما إن بقي بين يديه فائضٌ من المال سيبتاع معطفاً آخر غير معطفه الجلدي المتهرئ عند الكفين وسيشتري لزوجته ذلك الحذاء الذي نال إعجابها بل وفكر أيضاً بأنه سيغلفه من أجلها بورق هدايا أحمر لماع.

وقد كان الأب راضياً عن سير ذلك المخطط الجميل في ذهنه وحاول أن يزيح الأفكار السوداء من عقله لكن دون جدوى.

في الحقيقة إنها فكرة سوداء طاغية... ألا يكون ما يقدمه كافيًا، والمصيبة تكمن بأنه غير قادر على تقديم ما هو أكثر.

لا يمكن اختصار الأمر بسرير أو كراسة مدرسية أو مؤونة للمنزل، فهو قادر على تدبر هذه الأشياء التي يمكن اتباعها حتى لو اقتضى الأمر أن يستغل طاقة شبابه الحالي في رفع الحمولة وتوزيع البضائع وقيادة الشاحنات متحملاً شتى الظروف القاسية.

إلا أنه كان قلقاً بخصوص ما لا يمكن شراؤه من البقالية، كاللحظة التي يكبر فيها ابنه ويحتاج لعمل لائق أو لمنحة دراسية لا تعتمد على المؤهلات العلمية بل على أشياء أخرى لا يعرف إليها طريقاً للوصول، وقد كان يخشى ألا يتمكن من حمايته لأنه لا يعرف أحداً من أولئك المتخصصين بتأمين الحماية الفائقة وتسهيل الطرق الوعرة.

إنه يعلم جيداً أنه ليس من الأشخاص الذين يمكن لهم الحصول على مطالبهم عبر مكالمة هاتفية، أو عن طريق التفوه بعبارة بسيطة تنم عن معرفتهم بإحدى الشخصيات رفيعة المستوى.

كل ما كان يملكه هو أن ينكسر، أن يريق ماء وجهه، وأن يسمح حذاء شخص قد يعرف شخصاً آخر ليلبي مطلبه.

وهو شعور يتم تمريره عادة جيلاً بعد جيل، ولهذا يغرقه الحزن عندما يفكر بذلك فهو يعلم مدى الثقل الذي قد خلفه لابنه دون أن يدري عنه شيئاً قبل إنجابه.

توقف عن تأمل أجفان ابنه الثابتة التي لا تُفصح بأي حلم يحول في عقله حالياً، ثم وضع السيجارة بطرف فمه دون أن يشعلها.

بإمكانه أن يحرق الكثير من الأشياء... فطريق سفره طويل. قلة من قد يفهمون أن التدخين عنفٌ من نوع خاص... إنه عنف من الشخص تجاه ذاته.

تحركت أمعاء الفتى فبمجرد أن أخذ والده حذاءه المطاطي ذي الساق العالية وذهب لارتدائه خارجاً، بدأت ضوضاء من نوع آخر في المنزل.

يمكن للأطفال أن يروا ما لا يمكن للآخرين رؤيته بوضوح، ذلك لأن معظم من حولهم يظنون أنهم لا يدركون شيئاً ولذلك يعاملونهم على أنهم غير مرتين.

وكم من السهل على الإنسان غير المرئي أن ينتبه لكل ما يمكن ملاحظته بل ولكل ما لا يمكن ملاحظته بسهولة. لقد بقي قابلاً بهدوء وعلى ما يبدو انطلت حيلة نومه على والدته كما انطلت على والده تماماً.

لقد تعلم الكثير من الأمور من الأفلام لكنه ينسب قدرته على التحري وكشف الحقائق إلى الروايات والقصص البوليسية التي كان مغرمًا بها، ففي فترة قصيرة من إدمانه على هذه الألغاز بدا أنه قادر على كشف المجرم من خلال فهم عقلية الشخصيات في مسرح الجريمة.

لقد أدرك مبكراً أنه إن أردت اكتشاف المجرم عليك أن تفكر بعقليته، وربما لم يفكر للحظة إلا بالمتعة المترتبة على الأمر دون أن يشك أن له توابع خطيرة.

بالطبع إن التفكير بعقلية المجرم ليس أمراً كافياً، بل من الضروري أيضاً كشف الدوافع من خلال تتبع الأدلة.

خلف كل جريمة دافع تقتضيه الرغبة، رغبة بالحياة أو بالانتصار أو بالانتقام. . . .

وبذلك تكون الأدلة كنقاط يمكن الوصل بينها إلى أن تصبح الصورة واضحة. . . لتبدو الرغبة واضحة.

لقد كان مغرمًا بوصل هذه النقاط، وقد كان يعتمد على وسائل شديدة البساطة.

فمثلاً لم يكن هنالك سوى هاتف واحد في المنزل لذلك من الصعب أن يتبع سير المحادثات التي تجري من خلف ظهره، فما كان منه إلا أن وضع آلة تسجيل صغيرة في غرفة الهاتف.

إنه الـ (الووكمان) الصغير الذي أهده إياه والده في عيد ميلاده السابق والذي كان له فوائد جمّة أكثر بكثير من مجرد الاستماع لأغنية.

لقد كان يسجل تلك الأحاديث على الكاسيات المختلفة، دون أن يثير الريبة لدى أحد، فالغلاف الخارجي كان لمطرب مشهور إلا أن المحتوى الداخلي كان صوت والدته.

بدأ الأمر بمجرد فضول لسماع أحاديث كانت غاية في الملل والابتذال بين أمه وخالاته أو صديقاتها وجيرانها، لكن الأمر أُنقذه في أحيان عديدة.

لا سيما تلك المرة التي كانت والدته السيدة (س) تخاطب أحدهم والذي كان يحلو له أن يطلق عليه اسم السيد (ص) - قائلةً له أنها ستضع بضع قطرات من المنوم في المشروب الغازي الخاص بابنها ليتمكن هو من الدخول إلى المنزل.

إنه يعلم أن والدته لا تحبذ إدمانه المبالغ به لتلك المشروبات شديدة الحلاوة والتي تجعله على حد قولها مفرط النشاط ومع ذلك قدّمت له عبوة كاملة وسمحت له أن يشربها من العلبة حتى دون أن تسكب له نصفها في كأس زجاجي.

إن ابتهاجه المفرط لكل شيء أُنقذه من أن يقع فريسة للنوم وقد عرف الكثير عن السيد (ص) ذلك اليوم ولكن الذي أثار استغرابه أنه بدأ باكتشاف أمه السيدة (س) للمرة الأولى.

ففي مرحلة ما لا يمكن للأطفال إلا أن يروا آباءهم على أنهم الأقوى والأنبى والأذكى وأنهم منزهين تمامًا عن كل ما يقومون به من أخطاء، لكن يمكن للآباء أيضًا أن يكونوا أشقياء.

كما كان وسام يخدع جده بكل سهولة بمجرد إخباره أن لديه رغبة عارمة في أن يصبح طبيبًا، وبهذه الطريقة كان يتمكن من استعارة السماعات الطبية المرفقة بجهاز قياس الضغط لسماع ما خلف الجدران.

هو اليوم دون أن يتحرك من فراشه الرقيق الذي يزجج عظامه يعلم تمامًا ما الذي تفعله والدته في الغرفة المجاورة، إنها تحزم بعض الأمتعة الخفيفة التي تأخذها خارج هذا المنزل إلى الأبد.

وهو على دراية أنها ستحزم بين ملابسها قليلًا من ملابسه ولذلك قام بمنحها الثياب التي لن يجزئه التخلي عنها، فهو بالطبع لن يذعن لخطتها هي والسيد (ص) بالبقاء معهما والعيش في كنفهما.

كان من الممكن له أن يكشف خطتها بسهولة أو أن يقوم بتخريب سيرها إلا أن دموعها الحارة التي سكبتها وهي تخبر السيد (ص) عنه أطربت مسمعه وبذلك قرر أن يحقق لها على الأقل أمنيتها الأخيرة ببقائه _ هو الصبي البار _ معها .

اقتربت منه كي توقظه، فجلس على ركبتيه لوهلة وهو يفرك عينيه، وبالرغم من أنه لم يسألها أي شيء إلا أنها كانت مدينة له بشرح بسيط .

أخبرته أنها ستأخذه لمكان يستطيع أن يمتلك فيه سريراً مترفاً وخزانة يرتب فيها ثيابه الكثيرة عوضاً عن الرف الصغير في خزانها الذي يحمل ثيابه الرثة، وأن هنالك من سيشتري له طعاماً لذيذاً، وستملئ جيوب بزته المدرسية الجديدة بقطع معدنية كثيرة يمكن أن يسمع أصدقاؤه رنينها .

كما يمكن للسيد (ص) أن يقتني عشرات الألعاب من أجله، وهو الآن ينتظرهما في سيارته الفخمة ليسافر بهما إلى منزله الواسع والمزود بمسبح كبير .

إن وسام يفهم كل ما نقوله أمه، فالكبار لا يستطيعون في كل مرة تزييف رغباتهم أمام الأطفال .

إنها ترغب بمنزل أكبر، بثياب أفضل، وبمستقبل أكثر راحة .

عندما ركبوا السيارة كان من الواضح أن السيد (ص) يستطيع تحقيق كل ما وعدته به أمه، لقد كان من دون شك من الأشخاص القادرين على حل أكثر المشاكل صعوبة عبر الهاتف .

كان الطفل يشعر أنه غير مُرحب كثيراً بوجوده، فالسيد (ص) لم يحمل نفسه عناء النظر إليه عبر المرآة حتى، في حين أنه قبل والدته على وجنتيها ثلاث مرات بعد أن فتح لها باب السيارة لتجلس جانبه .

وبكل الأحوال لم يكن السيد (ص) يمتلك الكثير من الوقت، فقد كان يتباهى بالمسجلة التي يمكن وضع أقراص لامعة داخلها والوصول بضغطة واحدة إلى الأغنية المطلوبة .

للأسف لم يكن هنالك من داع لذلك الكاسيت الذي حملة الصبي في جيبه، فكر وسام أن يلقيه من النافذة التي لم

يعلم كيف يمكن له أن يفتحها لذلك ضغط على الشريط في جيبه .

توقف السيد (ص) ووالدته السيدة (س) في إحدى الاستراحات للتزود ببعض الطعام لمتابعة الرحلة، أما وسام فكان يرى من داخل السيارة محفظة النقود المنفخة التي أخرج منها السيد (ص) بعضاً من نقوده ليباع شيئاً ما، أما والدته فكانت تقف إلى جانبه بثياب لم يعتد على أن يراها بها وبسريحة شعر مختلفة وكأنها سيدة أخرى تاركةً سترتها الجلدية ذات الياقة المزينة بالفرو ملقاة عليه في المقعد الخلفي .

رفع وسام تلك السترة عنه ووجه نظره نحو الطريق الذي تسير فيه السيارات متباعدة عن بعضها البعض . إنه طريق ملتوي يتطلب الكثير من الحذر والقليل من الغرور لقيادة سيارة فارهة، فحركة واحدة خاطئة قد تؤدي بالسيارة إلى أعماق الوادي السحيق بسبب عدم وجود سياج عالٍ ومتين .

ترجّل من السيارة وقرر عودة أدراجه قبل أن تعود أمه مع السيد (ص) من جديد، وعلى الرغم من أنه حاول الاستسلام لإغواء القوة والثراء إلا أنه شعر برغبة عارمة بعناق والده وباستنشاق رائحة السجائر المتشعبة في ثيابه والتي كانت تشي له بأن والده يحترق لكن هذه الرائحة وحدها أعادته أدراجه . . . إنه لا يرغب بأن يحترق والده وحيداً .

في ذلك اليوم عاد وسام إلى بيته بعد أن كوّم معطفه أسفل معطف والدته في المقعد الخلفي للسيارة، غرس عدة مسامير في الدواليب الأربعة بعد أن رمى ذلك الكاسيت الذي يحمل صوت والدته وهي تغازل السيد (ص) على الهاتف أسفل المقعد، ثم تسلق إحدى سيارات الشحن المقفوحة من الحلف .

استغرق ساعة واحدة للعودة إلى منزله، إنه كالقطط يستطيع تشم رائحة المكان الذي ينتمي إليه دون أن يبذل جهداً كبيراً في ذلك .

عاد إلى غرفته واستلقى في فراشه وبعد أن اندس تحت اللحاف شعر بدفء من نوع خاص، إلا أنه نهض من جديد وبدأ بالتجول في المكان ذهاباً وإياباً .

لم يكن يعلم ما الذي ينتظره تحديداً فوالده لن يعود من جولته قبل أسبوع، واليوم هو يوم عطلة رسمية فلن يذهب

حتمًا إلى المدرسة، كما أنه لا ينتظر أيضًا وجبة الغداء لأنه يعلم أن والدته لن تقوم بتحضيرها بعد اليوم أبدًا .

لم يذهب للعب في الزقاق أيضًا، ولم يرغب في حل لغز بوليسي جديد لكنه كان ينتظر .

كان ينتظر خبرًا ما .

في ذلك اليوم كان الخبر الرئيسي الذي تصدر الصحف ونشرات الأخبار المحلية هو سقوط سيارة على إحدى

الطرق الجبلية واحتراقها بحيث اختفت معالم ركبها تمامًا .

لم يعلم أحد سوى وسام طبعًا أنها جريمة محتمة الوقوع، لقد كان يشعر بضرورة ملحة للقيام بما قد قام به وكأنه

كان يحمي نفسه بذلك . . . وقد دغدغه شعور دفين أنه لم يكن يحمي نفسه فحسب بل كان يحمي أشخاصًا

آخرين !

لله اللحن السادس والعشرون لله

أعطِ الحبيب قلبه دون أن تأكل نصفه

لا

في ساحات إحدى القرى اجتمع الأهالي كعادتهم دائماً للاحتفال بزفاف أحد أبنائهم مُرددين الأغاني المبهجة ومُطلقين الأهازيج.

وعلى إيقاع الطبول كان الشبان والشابات يؤدون رقصات فولكلورية بحركات رشيقة متناغمة وهم متشابكون الأيدي، أما الذين لم تتح لهم الفرصة للمشاركة فكانوا يرمون بتلات الورد على العريس وحبات الأرز التي كانت تتساقط على كفي العريس وعلى شعر عروسه الجميلة مما عكّر مزاجه قليلاً فقد كان يظن أن هنالك العديد من الأفواه الجائعة أكثر أحقية بحبات الأرز هذه المهدورة عبثاً.

بكل الأحوال كانت السعادة الحيطرة به كفيلاً أن تنسيه ذلك قليلاً، فقد كان منهمكاً بالرقصات وتلقي المباركات وتبادل التحيات، بل والمشاركة بتوزيع الطعام على المدعوين الذين جلسوا متجاورين حول طاولات تصطف على مساحات واسعة بحيث لا يمكن لمن يجلس على الطاولة الأولى أن يلمح الجالسين على الطاولة الأخيرة.

لكنه مع ذلك تفقدتهم جميعاً، وقد كان يُمسك سلة من الحلويات ليمنح قطعة حلوى شهية لكل طفل يراه.

إنه يسعد عندما يرى ضحكاتهم، يشعر بحب تجاههم دون أن يعرفهم حتى، إنهم يبهجونه . . . يبهجونه فحسب.

سينجب من ليلي ستة أطفال أو سبعة أو ربما أكثر، أضحكنه الفكرة التي استحوذت عليه فمن المرجح أنها لن ترضي ليلي كثيراً والتي كانت تمشي بخطوات تحاول ألا تكون سريعة فيطير ثوبها الأبيض وترتخي طرحتها على وجهها المتورد وعينيها اللطيفتين وشامتها اليتيمة التي توضع برقة قرب شفرتها.

في كل مرة تلتقت ليلى للبحث عن سومر كانت تجده بالقرب من الأطفال، وإن ذلك لم يغضبها بل كان يمنحها سَكينةً خاصة فقد كانت تحب الأطفال أيضاً واليوم قد زُفّت إلى الرجل الوحيد الذي يمكن أن تنجب منه أطفالها .

لقد وجدت ليلى هذه المرة سومر منحنياً أمام فتاة صغيرة وكعادة كرمه المضاعف مع الأطفال منحها عدة قطع من الحلوى ولكنه سرعان ما قدم لها وبشكل مفاجئ سلة الحلوى بأكملها !

لن يستطيع سومر أن يشرح لليلى لم قد قام بذلك لأنه هو ذاته لا يعلم السبب الذي قد شده إلى هذه الصغيرة من بين جميع الأطفال في هذا الحفل البهيج، ولن يكون قادراً على فهم تجمده أمامها متأملاً إياها أو عن تفسير شعوره الغريب بالرهبة والذي تخللته سعادة مريبة، ولن يستطيع التعقيب عن كل ذلك إلا بعبارة (ربما قد رأيتها في مكان ما) .

احتفظت الطفلة اللطيفة بقطعة حلوى واحدة ثم أعادت السلة لسومر من جديد الذي بقي منحنياً أمامها وأخبرته بعبارة على الرغم من أنها قد تبدو عادية إلا أنها في غير مكانها، لقد قالت أنها (في أحسن حال)، وهو الذي لم يسألها عن حالها لأنه لم يتعرف إليها . . . على الأقل في هذه الحياة .

تركت الطفلة السلة وجرت بعيداً ليتطاير من خلفها ثوبها الأصفر وتتحرك صغيرتيها المعقودتين بحَبتي فراولة بلاستيكيتين براقيتين، لكنها استدارت مرة أخرى بشكل دوراني وكأنها تريد أن تثبت لسومر أنها بخير حقاً .

نادت ليلى لسومر عدة مرات قبل أن ينتبه إلى وجودها بجانبه، فوقف على ساقيه من جديد وأمسك بذراعيها بعد أن أخبرته أن هنالك العديد من المدعوين الذين يريدون مقدمة التهنئة لهما، لقد كان يسير مع عروسه متلفاً كل عدة أمتار للخلف كي يتبع آثار تلك الطفلة التي تشبه الفراشة الصفراء .

وعندما وصل إلى صفوف المدعوين من جديد أخذ بمصافحتهم مشّت البال والذهن مفكراً بذلك الإحساس الغريب الذي قد اتّابه مسبباً جريان رعشة في أوصاله سرعان ما أصبحت أكثر شدة فانتفضت يده وهو يصافح

رجلاً عرفه إليه والده على أنه أحد أصدقائه الذين قد قضى معهم خدمة العلم في شبابه . كان والده يربت بيده على كتف ذلك الرجل والذي قدّمه على أنه الصديق الوفي البطل الذي قام بإنقاذه من الموت الحتم نتيجة انفجار إحدى القنابل جانبه فبقيت إحدى الشظايا عالقةً في ساق منقذه المقدم، وهذا هو السبب الذي يجعله اليوم يعرج قليلاً عليها .

إلا أن ساقه المعطوبة وظهره الحني قليلاً من ثقل المعارك والزمن لم يمنعه من المشاركة ضمن طقوس السعادة للاحتفاء بابن صديقه العزيز الذي أكرمه بالجلوس على الطاولة الخاصة بالعريس وأقاربهما فكان كرسيه مواجهًا لكروسي ليلي التي شعرت ببرودة قارصة فجأة عندما وقعت عينها على عينه المتهدلة .

ليلي أيضاً كما سומר لن تدرك سبب الانقباضة المفاجئة التي اتبعتها والتي من الصعب شرحها أو حتى فهمها، خاصة أنها زالت خلال مدة قصيرة كأنها لم تكن .

إنها تفاصيل لحياة أخرى . . . حياة نسيت كأنها لم تكن . . . لبدأ العريسان حياتهما الآنية الجميلة التي مهما بدت أنها لا ترتبط بأي حياة أخرى إلا أنها وثيقة الاتصال بها بشكل ما .

إن هذا ما حدث في ذلك الحفل البسيط الذي انتهى بهرب العروسين منه على عجلة إلى أكثر بقعة يجبانها من هذا العالم . كانت العديد من العيون تراقب هروبهما معاً بعض هذه العيون كانت سعيدة وبعضها فضولية وبعضها لا مبالية، لكن كان هنالك عينين غريبتين تراقبهما .

عين زرقاء وأخرى خضراء لقطٍ أبيض ناصع يلوح بذيله يميناً ويسرة كأنه يقول للعروسين . . . وداعاً .

لله اللحن السابع والعشرون لله

لا شيء إلا الموسيقى

سي

كان الهدوء يعمُّ منزل الضيوف والذي يبدو فارغاً للوهلة الأولى، لكن لو امتلكتنا القدرة على التجول في أركانه سندرك أنه ليس فارغاً تمامًا .

فبعد سماع صرير الباب الأول في الردهة يمكننا الدخول إلى غرفة شديدة الترتيب وعلى الرغم من انسداد الستائر فيها إلا أن قليلاً من ضوء النهار يتسرب ليلاصق صندوق زينة تتوارى خلفه قارورة لامعة .

يمكننا سماع صوت غطاء القارورة وهو يُفتح بينما تعبق منها رائحة مستخلص البرتقال التي تنتشر سريعاً في الأرجاء متسللة عبر ثقب باب الغرفة المجاورة فتلاصق عدداً من الأوشحة الحريرية المرمية خارج الخزانة .
لا بد أن أيل احتارت في وقت سابق أثناء انتقاء إحداها، وربما في النهاية لم تختار أيًا منها .

تحمل النسومات الربيعية المناسبة عبر نافذة أيل المفتوحة أحد الأوشحة الرقيقة والتي تنسل عبر الفراغ الموجود أسفل باب الغرفة المقابلة فيستقر الوشاح الملون على سجادة صلاة مطوية إلى نصفين في ركن خاص فيما يظهر نسيجها الوردي الناعم وقد تغير لونه قليلاً بسبب الدموع المالحه .

لو امتلكتنا جسداً أثرياً قادراً على عبور الجدران الخشبية لدلفنا إلى غرفة أخرى حيث يمكن ملاحظة تكلل واضح على السرير، ولو قمنا بسحب الغطاء لظهر الدب (باربي) بأذنه الممزقة قليلاً وقد عبقت منه رائحة ما .
سيخيل لك في البداية أنها رائحة فاسدة نظراً لأن الدب قديم ومهترئ بعض الشيء إلا أنها رائحة الفانيليا وقد صدرت من أذن الدب تحديداً حيث كانت تستقر كل أسرار حلیم .

تسرب أسرار الفانيليا عبر الأرضية الخشبية وصولاً إلى الطابق الأول حيث نرى ضوءاً صادراً عن مصباح

كهربائي يومض بشكل مفاجئ عدة مرات فيتيح لنا ملاحظة بنطال مرمي على السرير وقد ظهرت من جيبه ورقة مثنية عدة مرات .

وبعد سماع صوت الورق المجدد وهو يُمهّد ببطء يمكننا رؤية أسماء نسائية كثيرة، وفي آخر القائمة هنالك اسم شُطب وكُتب عدة مرات .

أما الغرفة المجاورة فقد عُلق على بابها من الداخل قلادة خشبية تبدو أشبه بتميمة حماية من شر ما، تدور القلادة حول نفسها بسرعة فيندمج سوادها ببياضها بشكل خاطف بحيث نعجز عن التمييز بين اللونين . وقبل أن توقف عن الدوران تُصدر صوت اصطدام بالباب الخشبي يُسمع وقعه من الغرفة المجاورة والتي تبدو شديدة الفوضى مقارنة بمعظم الغرف الأخرى .

هنالك الكثير من الأشياء المرمية على الأرضية والسرير والمنضدة والتي سقط أسفلها سوار الفراولة المبتسمة وسيصعب العثور عليه مجدداً إذا لم ينخفض المرء كثيراً لالتقاطه .
لم تكن الفراولة الوحيدة التي تبسّم في هذا المنزل، هنالك طيف ابتسامة عابرة أيضاً على وجه ما .
إنه وجه زين .

لقد كان النسيم ينسل عبر النافذة ليلامس عنقها بينما تجلس مغمضة العينين في وضعية اللوتس المعتادة .
كانت زين الوحيدة التي لم تشارك في تلك التجربة لأنها كانت تعتقد أن عليها إكمال حياتها حتى نهايتها كي تستطيع لاحقاً البدء بحياة جديدة، ففي نظرها الحياة التي لم تكتمل أشبه برواية مُزقت صفحاتها الأخيرة .
ومن ذا الذي قد يرغب باقتناء رواية مزق الجزء الأهم منها !

لم تكن زين تفكر بأي شيء وقد بقيت مبتسمة ومغمضة العينين ولم تكن الوحيدة التي أغمضت عينيها ذلك اليوم .

فبعيداً عن منزل الضيوف كان آدم ينحني على البيانو ممرراً أصابعه بحفّة على الأزوار البيضاء والسوداء، فيما

يبدو جسده كظلٍ داكنٍ في غرفة المكتبة.

لقد كان يعزف Philip Glass ل Morning Passages، إنه يحفظ هذه المقطوعة عن ظهر قلب ولذلك لم يكن بحاجة لإلقاء نظرة على النوتة الموسيقية.

كانت تلك النغمات تسلسل عبر أذنيه إلى قلبه وعقله الذي مازال مشغولاً بمجموعة الغارقين في الشوكولاته.

ما زال مشدوهاً بكل تلك السيناريوهات المختلفة التي عاشها كل منهم، وقد فكر ملياً بأن تلك الأشياء التي تبدو منفصلة عن بعضها البعض قد لا تكون كذلك حقاً، بل هي مترابطة في نمط اهتزازي واحد وإن تم تغيير نقطة واحدة ستتغير معها كل النقاط الأخرى.

فعلما هذا ليس تسلسلياً بل متعدد الأبعاد مما يعني أن كل شيء يحدث بأن واحد وبطريقة يصعب تتبعها.

تشوش آدم قليلاً فتوقف عن العزف لبرهة بعد أن نسي النسق اللحني المناسب، لقد تشوش لأنه كان يخفي أمراً بمنتهى الأهمية عن سارة.

فهو لن يتمكن من إعادة الأصدقاء الغارقين في الشوكولاته أبداً، فقد كانت هذه الحياة ثمناً لذلك السيناريو الآخر الذي تمكوا الحياة فيه من جديد.

لقد كان يعلم ذلك منذ البداية إلا أنه كان يفكر بالنجاح المرجو فيما لو كشف للعالم عن هذا الابتكار الفريد من نوعه.

أبذلك يكون شخصاً سيئاً؟

ارتسمت خطوط عميقة بين حاجبيه لعدة ثوانٍ وكأن شيئاً ما قد ألمه.

(إن الإنسان هو نجاحاته) كرر تلك العبارة على نفسه عدة مرات فارتحت ملامحه، ازدرد لعابه بقوة كأنه

يحاول ابتلاع غصة ما ثم تابع العزف من جديد، وسرعان ما تدفقت النغمات مرة أخرى ولم تغمر الموسيقى

المكتبة فحسب بل تسلسلت نحو الخارج حيث كانت سارة تجلس بالقرب من قبري والديها مداعبة بطن لوسي

التي رفعت قوائمها باسترخاء نحو الأعلى كجروءة صغيرة مدللة وقد هب نسيم قوي لم يحرك فرو لوسي فحسب بل حرك شعر سارة أيضاً والتي سرعان ما قامت بترتيبه عاقصة إياه نحو الأعلى، ثم خلعت نظارتها كي تمسح الدموع التي سببتها الريح في عينيها فبدا المظهر أمامها مشوشاً .

لم تعد قادرة على رؤية الأشجار إلا بصورة مموهة، أما منزل الضيوف فبدا لها ككتلة سحرية غارقة بين الغيوم . كانت ترى ألواناً كثيرة دون أن تستطيع تمييز الأشكال بدقة، ومن بين تلك الألوان بدا اللون البنفسجي والوردي الأشد وضوحاً، ذلك لأن أزهار الـ Night Sky كانت الأكثر قرباً إليها إضافة لأزهار أخرى ملونة .

قامت سارة بقطف بعضها وهي تتساءل بشأن كل الذين قابلتهم في حياتها .

ماذا لو أصبح الأحباء أعداء في حياة أخرى؟ وماذا لو تحول عابروا السبيل إلى عشاق متيمين؟

ماذا لو عاد الذين فقدناهم يوماً ما؟

ماذا لو اختفى إنسانٌ لم تخيل يوماً حياتنا بدونه؟

وما الذي كان ليحصل لو لم نكن!

هل كانت الحياة لتكون أفضل؟

ماذا لو كان بإمكاننا أن نعيش كل الاحتمالات الممكنة إلى مالانهاية؟

فقط لأن ذاكرة الكون تخونه في كل مرة يروي فيها قصصنا، وعندما يحرك شفاهه . . . ينفخ قليلاً على أوتارنا فنشكل لحناً آخر .

استلقت سارة بجانب لوسي وقد وضعت الأزهار على جفنيها المغلقتين مصغية للموسيقى التي يعزفها آدم .

فكرت وهي تداعب قرطها بكل ما قد جمعه أثناء بحثها من أجل أطروحتها .

فكرت بوسام وبحر وزين وناي ونورسين وحليم وأيل وسومر، وبكل ما قد عرفوا به عن أنفسهم .

تري هل الإنسان هو شغفه أم أسرارہ أم شرفه أم رائحته، هل هو دينه أم آثامه أم مظهره أم ذاكرته ؟ هل من الممكن أن يكون الإنسان كل ما فقده ؟

سقط بريق الشمس التي ظهرت فجأة بين الغيوم على قرط سارة الموسيقي والذي التمع متللاً كنجمه تغمز لملاك بعيد وكأن الكون منحها الإجابة التي لطالما تساءلت عنها، وبالرغم من أنها لم تتمكن من رؤية هذه الإجابة إلا أنها شعرت بها .

فقد يكون الإنسان موسيقي . . . مجرد موسيقي فحسب .

∞ دو ∞

عُزِفَتْ بِحُبِّ 

فهرس الألحان

ص 4	اللحن الأول: ثمرة بداخلها حبة لوز حلو وقلب بداخله حُبُّ مر
ص 35	اللحن الثاني: تصبحين على عناق
ص 51	اللحن الثالث: كيف ستنجو من القناديل التي تلسعك من الداخل؟
ص 60	اللحن الرابع: متلازمة (علبة البسكويت)
ص 66	اللحن الخامس: إنسان برتبة نجم بحر
ص 76	اللحن السادس: الثقوب التي لا يراها أحد
ص 83	اللحن السابع: أنت الموسيقى التي تُرى
ص 90	اللحن الثامن: أشياء لا تعرفها السناجب عن البشر ويتجاهلها البشر أنفسهم
ص 97	اللحن التاسع: لمخاوفك قدرة هائلة في التحول إلى حقيقة
ص 105	اللحن العاشر: غرفة لا تخص المرء وحده
ص 113	اللحن الحادي عشر: لن تكتمل إلا إن كنت ناقصاً
ص 127	اللحن الثاني عشر: الغارقون في الشوكولاته
ص 134	اللحن الثالث عشر: مدينة العاطلين عن الحب
ص 160	اللحن الرابع عشر: في غواية الألفه
ص 177	اللحن الخامس عشر: لتفهم الإنسان أعده إلى غابات السافانا
ص 195	اللحن السادس عشر: الحب هو أن تنقذ شخصاً ما من نفسه

ص 211	الحن السابع عشر: أغمض لتراني
ص 229	الحن الثامن عشر: جنيّ الأمنيات
ص 242	الحن التاسع عشر: المشهد دومًا جزءً من النظرة
ص 252	الحن العشرون: رحلة الحج إلى القلب المقدس
ص 304	الحن الحادي والعشرون: المرة الأولى قد لا تكون الأولى حقًا
ص 311	الحن الثاني والعشرون: التلوين مرض النساء المزمّن
ص 316	الحن الثالث والعشرون: القلب الصحيح في اليانصيب الكوني
ص 322	الحن الرابع والعشرون: يومٌ للعائلة . . . أم حيوات كاملة؟
ص 326	الحن الخامس والعشرون: البيت المائل
ص 333	الحن السادس والعشرون: أعطِ الحبيب قلبه دون أن تأكل نصفه
ص 336	الحن السابع والعشرون: لا شيء إلا الموسيقى